سِلْسِلَةُ النَّصِيحَةِ الذَّهَبِيَّةِ لِلعَوْدَةِ إِلى السَّلَفِيَّةِ ٤٩

الفُرقَانُ

في

إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَى العِبَادِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ بِالمِيثَاقِ

تأليف

الشيخ العلامة المحدث

فوزي بن عبد الله بن محمد الحميدي الأثري

حفظه الله ورعاه

مكتبة أهل الحديث

مملكة البحرين - قلالي

الفَوَاقُ

في

إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَى العِبَادِ فِي
الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ بالمِيثَاقِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ ٢٠٢١

مكتبة أهل الحديث

مملكة البحرين - قلالي

التويتر: @ahel_alhadeeth

البريد: ahel.alhadeeth@gmail.com

سِلْسِلَةُ النَّصِيحَةِ الذَّهَبِيَّةِ لِلعَوْدَةِ إِلى السَّلَفِيَّةِ ٤٩

النَّوَافِقُ

فِي

إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَى العِبَادِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ بالمِيثَاقِ

دِرَاسَةٌ أَثَرِيَّةٌ مَنْهَجِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ؛ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَقَامَ الحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ بالمِيثَاقِ الأَوَّلِ، الَّذِي أَخَذَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَبِمَا فَطَرَهُمْ فِي وِلاَدَتِهِمْ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ.

* وَقِيَامُ الحُجَّةِ بِبُلُوغِ القُرْآنِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، لِلأُمَمِ: لِتَذْكِيرِهِمْ فَقَطْ بِهَذَا المِيثَاقِ وَتَعْلِيمِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لأَنَّ مِنْ طَبِيعَةِ العِبَادِ يَقَعُونَ فِي الغَفْلَةِ والنِّسْيَانِ.

* فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى العِبَادِ الكُتُبَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسَلَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، لِذَلِكَ، وَإِلاَّ فَإِنَّ الحُجَّةَ، قَدْ قَامَتْ بِنَفْسِهَا عَلَيْهِمْ بالمِيثَاقِ الأَوَّلِ، وبالفِطْرَةِ، وهي المِيثَاقُ الثَّانِي، وَقَدِ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ، وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ: شَهِدُوا أَنَّهُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ رَبُّهُمْ، وَأَنَّهُ المَعْبُودُ بِحَقٍّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

تَأْلِيفُ

الشَّيْخِ العَلاَّمَةِ المُحَدِّثِ

فَوْزِيِّ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الحُمَيْدِيِّ الأَثَرِيِّ

حَفِظَهُ اللهُ وَرَعَاهُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

دُرَّةٌ نَادِرَةٌ

للعَلَّامَةِ الشَّيْخِ حَافِظِ الحَكَمِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ

فِي

إِثْبَاتِ: «المِيثَاقِ الأَوَّلِ» عَلَى أَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى الخَلْقِ

قَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ» (ج١ ص٩٢): (لَيْسَ بَيْنَ التَّفْسِيرَيْنِ مُنَافَاةٌ، وَلَا مُضَادَّةٌ، وَلَا مُعَارَضَةٌ؛ فَإِنَّ هَذِهِ المَوَاثِيقَ كُلَّهَا ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الأَوَّلُ المِيثَاقُ: الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَهُوَ الَّذِي قَالَهُ جُمْهُورُ المُفَسِّرِينَ رَحِمَهُمُ اللهُ، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَهُوَ نَصُّ الأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَغَيْرِهِمَا.

المِيثَاقُ الثَّانِي: مِيثَاقُ الفِطْرَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَطَرَهُمْ شَاهِدِينَ بِمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ؛ فِي **المِيثَاقِ الْأَوَّلِ**: كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾ [الرُّوم: ٣٠]؛ الآيَةَ: وَهُوَ الثَّابِتُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، وَالأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَغَيْرِهَا، مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَغَيْرِهِمَا.

المِيثَاقُ الثَّالِثُ: هُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الكُتُبُ **تَجْدِيدًا لِلْمِيثَاقِ الأَوَّلِ، وَتَذْكِيرًا بِهِ:** ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٦٥]؛ **فَمَنْ أَدْرَكَ هَذَا المِيثَاقَ**، وَهُوَ بَاقٍ عَلَىٰ فِطْرَتِهِ الَّتِي هِيَ شَاهِدَةٌ بِمَا ثَبَتَ فِي: «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**»، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَلَا يَتَوَقَّفُ؛ **لِأَنَّهُ جَاءَ مُوَافِقًا؛ لِمَا فِي فِطْرَتِهِ، وَمَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَيَزْدَادُ بِذَلِكَ يَقِينُهُ، وَيَقْوَىٰ إِيمَانُهُ، فَلَا يَتَلَعْثَمُ، وَلَا يَتَرَدَّدُ**، وَمَنْ أَدْرَكَهُ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ فِطْرَتُهُ عَمَّا جَبَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِمَا ثَبَتَ فِي: «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**»؛ بِأَنْ كَانَ قَدِ اجْتَالَتْهُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِ، وَهَوَّدَهُ أَبَوَاهُ، أَوْ نَصَّرَاهُ، أَوْ مَجَّسَاهُ؛ فَهَذَا إِنْ تَدَارَكَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِرَحْمَتِهِ: فَرَجَعَ إِلَىٰ فِطْرَتِهِ، وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الكُتُبُ؛ نَفَعَهُ: «**المِيثَاقُ الأَوَّلُ**»، وَ« **المِيثَاقُ الثَّانِي**»، وَإِنْ كَذَّبَ بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**»، كَانَ مُكَذِّبًا: «**بِالأَوَّلِ**»، فَلَمْ يَنْفَعْهُ إِقْرَارُهُ بِهِ يَوْمَ أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿بَلَىٰ﴾؛ جَوَابًا: لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ **وَقَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللهِ**، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَحَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ). اهـ

وَقَالَ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ» (ج١ ص٥٨): (وَأَمَّا دِلَالَةُ الفِطْرَةِ:** فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ تَنْحَرِفْ فِطَرُهُمْ، يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَتَّىٰ البَهَائِمَ العُجْمِ: تُؤْمِنُ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَالفِطَرُ: مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَوْحِيدِهِ.

* **وَقَدْ أَشَارَ اللهُ تَعَالَىٰ:** إِلَىٰ ذَلِكَ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ

الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ - ١٧٣]؛ **فَهَذِهِ الآيَةُ**: تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ مَجْبُولٌ بِفِطْرَتِهِ عَلَىٰ شَهَادَتِهِ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، **وَسَوَاءٌ أَقُلْنَا**: إِنَّ اللهَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ وَاسْتَشْهَدَهُمْ، **أَوْ قُلْنَا**: إِنَّ هَذَا هُوَ مَا رَكَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي فِطَرِهِمْ مِنَ الإِقْرَارِ بِهِ، فَإِنَّ الآيَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ بِفِطْرَتِهِ). اهـ

قُلْتُ: بِهَذَا فَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذَا الإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ.

فَهَذَا المِيْثَاقُ: جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَىٰ الخَلْقِ كُلِّهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ الفِطْرَةَ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ.

* **وَلِهَذَا**؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾؛ أَيْ: لِئَلَّا تَقُولُوا: يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ **أَيْ**: عَنِ التَّوْحِيدِ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣].(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرَّعْدُ:٢٥].

قُلْتُ: فَمَنْ لَمْ يُدْرِكْ: «**المِيْثَاقَ الثَّالِثَ**»، وَهُوَ بُلُوغُهُ القُرْآنُ بِالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، بَعْدَ بُلُوغِهِ فِي السِّنِّ المُعْتَبَرِ شَرْعاً فِي التَّكْلِيفِ، وَ«**المِيْثَاقَ الرَّابِعَ**»، وَهُوَ بُلُوغُهُ دَعْوَةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* بِأَنْ مَاتَ صَغِيراً، قَبْلَ التَّكْلِيفِ، فَهُوَ: مَاتَ عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ الثَّانِي**»، عَلَىٰ الفِطْرَةِ.

---

(١) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٢ ص٣٧٥).

* فَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُسْلِمِينَ، فَهُمْ مَعَ آبَائِهِمْ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُشْرِكِينَ، فَقَدْ أَدْرَكَهُمُ: «**المِيْثَاقُ الأَوَّلُ**»، وَ«**المِيْثَاقُ الثَّانِي**»، فَهُمْ: مَاتُوا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، رَحْمَةً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ.

قَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ، بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ إِلَىٰ عِلْمِ الأُصُولِ» (ج١ ص٩٦): (فَذَاكَ: أَيِ؛ المُكَذِّبُ بِالكِتَابِ، وَبِمَا أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ رُسُلَهُ الآبِي مِنْهُ المُعْرِضُ عَنْهُ المُصِرُّ، عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ مَاتَ عَلَيْهِ هُوَ: «**نَاقِضٌ كِلَا العَهْدَيْنِ**»؛ **المِيثَاقِ**: الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَفَطَرَهُ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مِنْ تَجْدِيدِ: «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**» ،وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ: «**مُسْتَوْجِبٌ**»؛ بِفِعْلِهِ ذَلِكَ: «**لِلْخِزْيِ فِي الدَّارَيْنِ**»؛ أَيْ: فِي الدُّنْيَا، وَالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القَصَصُ: ٤٢]). اهـ

* **فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ**: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ يَعْنِي: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَنْ يَقُولُوا؛ أَيْ: لِئَلَّا يَقُولُوا، أَوْ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَقُولُوا.

* **وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ، فَتَقْدِيرُ الكَلَامِ**: أُخَاطِبُكُمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ: لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَنْ هَذَا «**المِيثَاقِ**»، وَالإِقْرَارِ.

* **فَإِنْ قِيلَ**: كَيْفَ يُلْزَمُ الحُجَّةَ وَاحِداً، لَا يَذْكُرُ: «**المِيْثَاقَ**»؟، قِيْلَ: قَدْ أَوْضَحَ اللهُ تَعَالَىٰ، الدَّلَائِلَ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، فِيمَا أَخْبَرُوا.

* **فَمَنْ أَنْكَرَهُ**: كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً: لِلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُ الحُجَّةُ، وَبِنِسْيَانِهِمْ، وَعَدَمِ حِفْظِهِمْ: لَا يَسْقُطُ الاحْتِجَاجُ بَعْدَ إِخْبَارِ المُخْبِرِ، صَاحِبِ المُعْجِزَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ

تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ **يَقُولُ تَعَالَىٰ**: إِنَّمَا أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» عَلَيْكُمْ لِئَلَّا تَقُولُوا: أَيُّهَا المُشْرِكُونَ، إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَنَقَضُوا العَهْدَ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ؛ **أَيْ**: كُنَّا أَتْبَاعاً لَهُمْ فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ، فَتَجْعَلُوا هَذَا عُذْراً لِأَنْفُسِهِمْ، وَتَقُولُوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٣]؛ افَتُعَذِّبُنَا بِجِنَايَةِ: آبَائِنَا المُبْطِلِينَ؛ فَلَا يُمَكِّنَهُمْ: أَنْ يُمْكِنَهُمْ، أَنْ يَحْتَجُّوا بِمِثْلِ هَذَا الكَلَامِ، بَعْدَ تَذْكِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ: بِأَخْذِ «**المِيثَاقِ**» عَلَىٰ التَّوْحِيدِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ **أَيْ**: نُبَيِّنُ الآيَاتِ؛ لِيَتَدَبَّرَهَا العِبَادُ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٣]، مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.(١)

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٧٥)**: (**وَذَهَبَ طَائِفَةٌ**: مِنَ السَّلَفِ، وَالخَلَفِ؛ أَنَّ المُرَادَ: بِهَذَا الإِشْهَادِ، إِنَّمَا هُوَ: فَطْرُهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «عَلَىٰ هَذِهِ المِلَّةِ».). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ» (ج١ ص٢٨)**:

وَبَعْدَ هَـذَا رُسْـلَهُ قَـدْ أَرْسَـلَا

لَهُمْ وَبِالْحَـقِّ الْكِتَـابَ أَنْـزَلَا

(١) انْظُرْ: «مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلبَغَوِيِّ (ج٢ ص٥٦٨)؛ وَ«مَعَارِجَ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ إِلَىٰ عِلْمِ الأُصُولِ» لِلْحَكَمِيِّ (ج١ ص٩٠ و٩١).

لِكَيْ بِذَا الْعَهْـــدِ يُذَكِّرُوهُـــــمْ
وَيُنْـــذِرُوهُـــــمْ وَيُبَشِّـــرُوهُـــــمْ
كَيْ لَا يَكُـــونَ حُجَّـــةٌ لِلنَّـاسِ بَلْ
لِلَّهِ أَعْـــــلَىٰ حُجَّـــةٍ عَـــزَّ وَجَـــــلْ
فَمَنْ يُصَدِّقْهُـــــمْ بِلَا شِقَـــــاقِ
فَقَـــدْ وَفَىٰ بِـــــذَلِكَ الْمِيثَـــــاقِ
وَذَاكَ نَـــــاجٍ مِنْ عَـــذَابِ النَّـــارِ
وَذَلِكَ الْـــــوَارِثُ عُقْبَىٰ الـــــدَّارِ
وَمَنْ بِهِـــــمْ وَبِالْكِتَـــابِ كَذَّبَـــا
وَلَازَمَ الْإِعْـــــرَاضَ عَنْـــهُ وَالْإِبَـــا
فَذَاكَ نَاقِـــــضٌ كِلَا الْعَهْـــدَيْنِ
مُسْتَـــــوْجِبٌ لِلْخِـــزْيِ فِي الـــدَّارَيْنِ

* (**وَبَعْدَ هَذَا**)؛ أَيْ: «**المِيثَاقِ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ فِي ظَهْرِ أَبِيهِمْ؛ ثُمَّ فَطَرَهُمْ وَجَبَلَهُمْ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِهِ، وَخَلَقَهُمْ شَاهِدِينَ بِهِ: (**رُسْلَهُ**)؛ بِإِسْكَانِ السِّينِ: لِلوَزْنِ، مَفْعُولٌ: أَرْسَلَ مُقَدَّمٌ، (**قَدْ أَرْسَلَا**)؛ بِأَلْفِ الإِطْلَاقِ: (**لَهُمْ**)؛ أَيْ: إِلَيْهِمْ: (**وَبِالحَقِّ**)؛ مُتَعَلِّقٌ بِأَنْزَلَ؛ أَيْ: بِدِينِ الحَقِّ: (**الكِتَابَ**)؛ جِنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ الرُّسُلِ: (**أَنْزَلَا**)؛ بِأَلْفِ الإِطْلَاقِ، وَالأَمْرُ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الرُّسُلَ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ بِهِ الكُتُبَ هُوَ: (**لِكَيْ بِذَا العَهْدِ**): المِيثَاقِ الأَوَّلِ: (**يُذَكِّرُوهُمْ**)؛ تَجْدِيدًا لَهُ، وَإِقَامَةً لِحُجَّةِ اللهِ البَالِغَةِ عَلَيْهِمْ: (**وَيُنْذِرُوهُمْ**)؛ عِقَابَ اللهِ إِنْ هُمْ عَصَوْهُ

وَنَقَضُوا عَهْدَهُ: (**وَيُبَشِّرُوهُمْ**)؛ بِمَغْفِرَتِهِ، وَرِضْوَانِهِ إِنْ هُمْ: وَفَّوْا بِعَهْدِهِ، وَلَمْ يَنْقُضُوا مِيثَاقَهُ، وَأَطَاعُوهُ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ، **وَالحِكْمَةُ**: فِي ذَلِكَ لِـ(**كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ**)؛ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: (**لِلنَّاسِ بَلْ لِلَّهِ**) عَلَىٰ جَمِيعِ عِبَادِهِ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رحمه الله **فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ» (ج١ ص٢٨)**: (مُقَدِّمَةٌ: تُعَرِّفُ العَبْدَ بِمَا خُلِقَ لَهُ وَبِأَوَّلِ مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَبِمَا أَخَذَ اللهُ عَلَيهِ بِهِ: «**المِيثَاقَ**» فِي ظَهْرِ أَبِيهِ آدَمَ، وَبِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ:

اعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا
لَمْ يَتْرُكِ الْخَلْقَ سُدًى وَهَمَلَا
بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ
وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفْرِدُوهُ
أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَىٰ مِنْ ظَهْرِ
آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ كَالذَّرِّ
وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ
لَا رَبَّ مَعْبُودٌ بِحُقٍّ غَيْرَهُ
وَبَعْدَ هَذَا رُسْلَهُ قَدْ أَرْسَلَا
لَهُمْ وَبِالْحَقِّ الْكِتَابَ أَنْزَلَا
لِكَيْ بِذَا الْعَهْدِ يُذَكِّرُوهُمْ

وَيُنْـــذِرُوهُـــــمْ وَيُبَشِّـــرُوهُـــــمْ[1]

كَيْ لَا يَكُـــونَ حُجَّـــةٌ لِلنَّـاسِ بَلْ

لِلَّهِ أَعْـــــلَىٰ حُجَّـــةٍ عَـــزَّ وَجَـــــلْ

فَمَنْ يُصَدِّقْهُـــــمْ بِلَا شِقَـــــاقِ

فَقَـــدْ وَفَىٰ بِـــــذَلِكَ الْمِيثَـــــاقِ

وَذَاكَ نَـــــاجٍ مِنْ عَـــذَابِ النَّـــارِ

وَذَلِكَ الْـــــوَارِثُ عُقْبَىٰ الـــــدَّارِ

وَمَنْ بِهِـــــمْ وَبِالْكِتَـــابِ كَذَّبَـــا

وَلَازَمَ الْإِعْـــــرَاضَ عَنْـهُ وَالْإِبَـــــا

فَـــذَاكَ نَاقِضٌ كِـــلَا الْعَهْـــدَيْنِ

مُسْتَوْجِـــبٌ لِلْخِـــزْيِ فِي الـــدَّارَيْنِ

قُلْتُ: فَبَيَّنَ الشَّيْخُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ عَنْ أَصْلِ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**» الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ، فِي ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، ثُمَّ فَطَرَهُمْ، وَجَبَلَهُمْ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ هَذَا: «**المِيْثَاقَ**»، حُجَّةً فِي نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ يَكْفِي فِي إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَعَذَابِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.

---

(١) **في النسخة الخطية**: وَيُنْذِرُوهُمْ، وَيُحَذِّرُوهُمْ.

* **ثُمَّ بَيَّنَ الشَّيْخُ الحَكَمِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ بُلُوغَ الكُتُبِ وَحُجَّتَهَا عَلَىٰ الخَلْقِ، وَحُجَّةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ عَلَيهِمْ إِلَّا لِلتَّذْكِيرِ فَقَطْ[1]، بِـ«**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، وَتَجْدِيداً لَهُ، وَزِيَادَةَ عَذَابٍ، مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُعْرِضِ بِحَسَبِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ.

❁ ❁ ❁

(١) **قُلْتُ**: وَالعَذَابُ فِي الخَلْقِ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، هُوَ دَرَجَاتٌ، بِحَسَبِ نَقْضِ المَوَاثِيقِ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَىٰ الهُدَىٰ، وَيَصْبرُونَ مِنْهُمْ عَلَىٰ الأَذَىٰ، يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللهِ المَوْتَىٰ، يُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللهِ أَهْلَ العَمَىٰ، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ، فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَىٰ النَّاسِ، وأَقْبَحَ أَثَرِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ!.

يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللهِ تَحْرِيفَ الغَالِينَ، وانْتِحَالَ المُبْطِلِينَ، وتَاوِيلَ الجَاهِلِينَ، الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ البِدْعَةِ، وأَطْلَقُوا عِنَانَ الفِتْنَةِ، فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الكِتَابِ[1]، مُخَالِفُونَ للكِتَابِ، مُجْمِعُونَ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الكِتَابِ[2]،يَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ، وَفِي اللهِ، وَفِي

---

(١) **قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ** رَحِمَهُ اللهُ **في «دَرْءِ تَعَارضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» (ج٥ ص٢٨٢)؛ تَعْلِيقًا عَلَىٰ كَلَمَةِ الإِمَامِ أَحْمدَ هَذِهِ:** (هَذِهِ حَقِيقَةُ حَالِ أَهْلِ البِدَعِ؛ كَمَا قَالَ الإِمامُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِهِ «الردِّ عَلَىٰ الزَّنَادِقَةِ والجَهْمِيَّةِ»: مُخْتَلِفُونَ فِي الكِتَابِ، مُخَالِفُونَ للكِتَابِ، مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ مُخَالفَةِ الكِتَابِ). اهـ

(٢) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ **في «بَيَانِ تَلْبِيسِ الجَهْمِيَّةِ» (ج٢ ص٣٠١)**: (قَدْ جَمَعُوا وَصْفيْ الاخْتِلافِ الَّذي ذَمَّهُ اللهُ في كِتَابِهِ، فإنَّهُ ذَمّ الّذِينَ خَالفُوا الأَنْبياءَ، والّذِينَ اخْتَلفُوا عَلَىٰ الأَنْبيَاءِ). اهـ

وقَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ **في «دَرْءِ تَعَارضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» (ج٥ ص٢٨٤)**: (وأَمَّا قَوْلهُ: بأَنَّهُم (مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ الكِتَابِ)؛ فَهَذَا إِشَارَةٌ إِلَىٰ تَقْدِيمِ غَيْرِ الكِتَابِ عَلَىٰ الكِتَابِ، كَتَقْدِيمِ مَعْقُولهِمْ، وأَذْواقهِمْ، وآرَائهِمْ ونَحْوِ ذَلِكَ عَلَىٰ الكِتَابِ، فإنَّ هَذَا اتِّفاقٌ مِنْهُمْ عَلَىٰ مُخَالفَةِ الكِتَابِ، ومَتَىٰ تَركُوا الاعْتِصَامَ بالكِتَابِ والسُّنَّةِ؛ فَلاَ بدَّ أَنْ يَخْتلِفُوا، فإنَّ النَّاسَ لا يَفْصِلُ بَيْنهُمْ إلاَّ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّمَاءِ). اهـ

كِتَابِ اللهِ بغَيْرِ عِلْمٍ، يَتَكَلَّمونَ بالمُتَشَابِهِ مِنَ الكَلاَمِ، ويَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يُشَبِّهُونَ عَلَيهِم[١]، فَنَعُوذُ باللهِ مِنْ فِتْنَةِ المُضِلِّينَ.[٢]

وَاعْلَمْ رَحِمكَ اللهُ: أَنَّ أَوَّلَ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، الَّتِي يَحُجُّهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَالآخِرَةِ، هِيَ: حُجَّةُ المِيْثَاقِ عَلَىٰ الإِجْمَالِ[٣]، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِمْ، وَهُمْ: فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَقَدْ فَطَرَ اللهُ تَعَالَىٰ العِبَادَ عَلَىٰ هَذَا المِيْثَاقِ، وَعَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ[٤]، وَالفِطْرَةُ: حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، حَيْثُ مَا مِنْ مَوْلُودٍ، إِلاَّ يُوْلَدُ عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ، وَالإِيْمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ رَبُّكُمْ سُبْحَانَهُ، وَقَطَعَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَذَا المِيْثَاقِ أَعْذَارَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا عَنْ هَذَا المِيْثَاقِ، وَمِنْ أَنْ لاَ يَفُونَ بِهِ، أَوْ أَنْ يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ؛ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَغَيْرِهِمْ عَلَىٰ الشِّرْكِ، وَالضَّلاَلِ، وَأَنْ يَكُونُوا غَافِلِينَ عَنِ الإِسْلاَمِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَقَدْ أَكَّدَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَذَكَّرَ العِبَادَ رَحْمَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ، بِهَذَا المِيْثَاقِ؛ وَالفِطْرَةِ، بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ الكَرِيمَ[٥]، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، بِبُلُوغِهِ؛ تَأْكِيداً،

---

(١) **قَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ** رَحِمَهُ اللهُ في «**دَرْءِ تَعَارضِ العَقْلِ والنَّقْلِ**» (ج١ ص٢٢٢)؛ (وهَذَا الكَلاَمُ المُتَشَابهُ الَّذِي يَخْدَعُونَ بِهِ جُهَّالَ النَّاسِ، هُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الأَلْفَاظَ المُتَشابهَة المُجْمَلة الَّتِي يُعارِضُونَ بِهَا نُصُوصَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ). اهـ

(٢) انظر: «الردّ عَلَىٰ الزَّنَادِقَةِ والجَهْمِيَّةِ» للإِمَامِ أَحْمَدَ (ص١٧٠).

(٣) **فَحُجِّيَّةُ المِيْثَاقِ**: عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَحُجَّةُ المِيْثَاقِ، هِيَ: الحُجَّةُ الأُوْلَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ فِي الغَيْبِ.

(٤) **فَحُجِّيَّةُ الفِطْرَةِ**: فِي الجُمْلَةِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَطَرَ الخَلْقَ مِنْ صِغَرِهِمْ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ، وَحُجَّةُ الفِطْرَةِ، هِيَ: الحُجَّةُ الثَّانِيَةُ فِي خُرُوجِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

(٥) **وَحُجِّيَّةُ القُرْآنِ**: عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ مَعاً فِي الحِيَاةِ الدُّنْيَا، وَحُجِّيَّةُ القُرْآنِ، هِيَ: الحُجَّةُ الثَّالِثَةُ فِي الدُّنْيَا.

وَتَذْكِيراً: لَهُمْ عَنْ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الدِّيْنِ الصَّحِيحِ، فَهُوَ دَاعٍ، وَنَذِيرٌ، أَيْضاً لِلْعِبَادِ عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَعَلَىٰ التَّفْصِيلِ، وَهُوَ البُرْهَانُ المُؤَكَّدُ، الَّذِي يَنْدَفِعُ بِهِ الجَهْلُ أَيْضاً، وَتُحْسَمُ بِهِ الأَعْذَارُ، فَمَنْ بَلَغَهُ القُرْآنُ، فَقَدْ بَلَغَتْهُ الحُجَّةُ الَّتِي تُبْطِلُ الأَعْذَارَ، وَتُوْجِبُ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهَا، وَمُعَانِدِهَا عَذَابَ النَّارِ، وَكَذَا وُصُولُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالسَّمَاعِ بِالرِّسَالَةِ، وَبِدَعْوَتِهِ ﷺ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ، فَقَدْ بَلَغَتْهُ نِذَارَةُ الرَّسُولِ ﷺ[1]، الَّتِي تُبْطِلُ الأَعْذَارَ، وَكَأَنَّمَا رَأَىٰ الرَّسُولَ ﷺ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالإِسْلاَمُ، أَخَذَهُ، أَوْ تَرَكَهُ، وَبِالتَّالِي، فَقَدْ أُقِيْمَتْ عَلَىٰ العِبَادِ حُجَجُ اللهِ تَعَالَىٰ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ نَارَ جَهَنَّمَ إِذَا خَالَفُوهَا، وَوَقَعُوا فِي الشِّرْكِ، أَوِ الكُفْرِ، أَوْ التَّقْلِيدِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٥٣ و١٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى

(١) **وَحُجِّيَةُ الرِّسَالَةِ**: عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ مَعاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحُجَّةُ السُّنَّةِ، هِيَ: الحُجَّةُ الرَّابِعَةُ عَلَىٰ الخَلْقِ.

وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٥٥ و١٥٦ و١٥٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٢].

عَنِ الإِمَامِ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَحْمَةً﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٢]؛ **(القُرْآنُ).**(١)

وَقَالَ الإِمَامُ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٤٠): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٢]؛ يَعْنِي: بَيَّنَاهُ، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ وَهُوَ القُرْآنُ، ﴿هُدًى﴾؛ مِنَ الضَّلَالَةِ، ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ مِنَ العَذَابِ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ يَعْنِي: يُصَدِّقُونَ بِالقُرْآنِ بِأَنَّهُ مِنَ اللهِ). اهـ

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا

---

(١) **أَثَرٌ حَسَنٌ.**

أَخْرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٥ ص١٤٩٣).

وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥١ و٥٢ و٥٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٨٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصَصُ: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العَنْكَبُوتُ: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجَاثِيَةُ: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ١٠٧].

قُلْتُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ: رَحْمَةً لِجَمِيعِ العَالَمِينَ؛ يَعْنِي: لِلْجِنِّ وَالإِنْسِ، فَعَلَيْهِمُ الإِيْمَانَ بِهِ ﷺ، وَبِالعَمَلِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ.

* فَمَنْ آمَنَ بِهِ ﷺ: تَمَّتْ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

* وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، فَلَيْسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ، إِلَّا النَّارَ.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ١٠٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَرُ: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٥].

---

(١) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٦ ص٤٤٠ و٤٤١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِمُقَاتِلِ بنِ سُلَيْمَانَ (ج٣ ص٩٧)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِيَحْيَىٰ بنِ سَلَّامٍ (ج١ ص٣٥٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٥ ص٣٨٢)، وَ«مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلبَغَوِيِّ (ج٥ ص٣٥٩)، وَ«الكَشْفَ وَالبَيَانَ» لِلثَّعْلَبِيِّ (ج٦ ص٣١٤).

* **مَعْنَاهُ:** ذَكِّرْ بِالقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَىٰ، أَنْ يُؤْمِنَ مِنْهُمْ.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦].

قَالَ الإِمَامُ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١٣٣): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦]؛ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ). اهـ

* **وَالحُجَّةُ:** هِيَ الدَّلِيلُ، وَالبُرْهَانُ: الَّذِي يَنْدَفِعُ بِهِ الجَهْلُ، وَتُحْسَمُ بِهِ الأَعْذَارُ، وَهَذَا الحُجَّةُ تَمْنَعُ العَبْدَ أَنْ يَتَعَذَّرَ، وَإِنْ وُجِدَتْ هَذِهِ الأَعْذَارُ.

فَمِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ: عَلَىٰ عِبَادِهِ، الَّتِي يَحُجُّهُمْ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حُجَّةُ: «**المِيْثَاقِ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ: فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ، عَلَىٰ وُحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَقَطَعَ بِهِ أَعْذَارَهُمْ، وَحَذَّرَهُم مِنَ الغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا، عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، وَمِنْ أَنْ لَا يَفُونَ بِهِ، أَوْ أَنْ يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، وَالأَسْلَافِ عَلَىٰ الضَّلَالِ، وَالشِّرْكِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ *

(١) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِمُقَاتِلِ بنِ سُلَيْمَانَ (ج٤ ص١٣٣)، وَ«مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلبَغَوِيِّ (ج٧ ص٣٨٠)، وَ«المُحَرَّرَ الوَجِيزَ» لِابنِ عَطِيَّةَ (ج٨ ص٨١)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج١٣ ص٦٨٧).

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

* **وَالمَعْنَىٰ**: اذْكُرْ لَهُمُ: «**المِيْثَاقَ**» المَأْخُوذَ مِنْهُمْ: فِيمَا مَضَىٰ لِئَلَّا: يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ بِالغَفْلَةِ عَنْهُ، أَوْ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ.(١)

قُلْتُ: وَالمَفْعُولُ المَحْذُوفُ، هُوَ: «**المِيْثَاقُ**».(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ [البَقَرَةُ: ٨٣].

قُلْتُ: فَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ: «**المِيْثَاقَ**» بِالتَّوْحِيدِ لَهُ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

وَالَّذِي عَلَيهِ أَهْلُ العِلْمِ قَاطِبَةً، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخَذَ مِنَ العِبَادِ، بِأَسْرِهِمْ: «**مِيْثَاقًا قَالِيًا**»، قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا بِهَذَا البُنْيَةِ المَخْصُوصَةِ.(٣)

---

(١) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠)، وَ«فَتْحَ القَدِيرِ الجَامِعِ بَيْنَ، فَنِّيِّ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ، مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢ و١٥٣)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٣)، وَ«إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَىٰ مَزَايَا القُرْآنِ الكَرِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩ و٢٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص٢٣٠ و٢٣١)، وَ«جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٥٧ و٥٥٨)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلسَّمْعَانِيِّ (ج٢ ص٢٣١)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٦٥)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

(٢) وَانْظُرْ: «البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٣).

(٣) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٧)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

* **وَهَذِهِ الآيَةُ**: فِيهَا الاحْتِجَاجُ عَلَىٰ الخَلْقِ؛ بِتَذْكِيرِ: «**المِيْثَاقِ**» العَامِّ المُنْتَظِمِ قَاطِبَةً.

* **وَفِيهَا**: الإِجْمَالُ عَلَىٰ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ: «**المِيْثَاقَ**» قَدْ أُخِذَ مِنْهُمْ: وَهُمْ في أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَلَمْ يُسْتَوْدَعُوا في أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ بَعْدُ.

* وَأَشْهَدَ اللهُ تَعَالَىٰ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أُوْلَئِكَ الذُّرِّيَّاتِ المَأْخُوذِيْنَ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ عَلَىٰ نَفْسِهَا، لَا عَلَىٰ غَيْرِهَا؛ **تَقْرِيراً**: لَهُمْ، بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ التَّامَّةِ، وَمَا تَسْتَتْبِعُهُ مِنَ العُبُودِيَّةِ عَلَىٰ الاخْتِصَاصِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهَا.

* **قَالُوا**: بَلَىٰ شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا، وَإِلَهُنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ.

* لِئَلَّا تَقُولُوا أَيُّهَا المُقَلِّدَةُ لِلْآبَاءِ، يَوْمَ القِيَامَةِ، عِنْدَ ظُهُورِ الأَمْرِ: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾؛ عَنْ هَذَا، أَيْ: عَنْ وُحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَحْكَامِهَا: ﴿غَافِلِينَ﴾.

* فَإِنَّهُمْ حَيْثُ جُبِلُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، **فَصَارُوا**: مَحْجُوجِيْنَ، عَاجِزِينَ عَنِ الاعْتِذَارِ بِذَلِكَ، إِذْ لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَىٰ إِنْكَارِ مَا ذُكِرَ مِنْ خَلْقِهِمْ عَلَىٰ فِطْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ.

* **فَقَالُوا**: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ مِنْ آبَائِنَا المُضِلِّيْنَ، بَعْدَ مَا ظَهَرَ أَنَّهُمْ: مُجْرِمُونَ، لِأَنَّهُمْ رَبُّوهُمْ عَلَىٰ البَاطِلِ في الدِّيْنِ، فَكَانَ الأَمْرُ الأَخِيرُ، أَنَّ الآبَاءَ، وَالأَوْلَادَ، يَوْمَ القِيَامَةِ؛ **هُمْ**: أَعْدَاءٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَبَّهَهُمْ عَنْ ذَلِكَ:

«**المِيْثَاقِ**» فِي عَالَمِ الغَيْبِ، وَفِي دَارِ التَّكْلِيفِ مَرَّةً ثَانِيَةً، **وَهُمْ**: فِي قِوَىٰ العَقْلِ، وَالإِدْرَاكِ، وَالعِلْمِ.(١)

* **فَقَوْلُهُمْ**: «**بَلَىٰ**»، إِقْرَارٌ مِنْهُمْ؛ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّهُمْ، **لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ**: أَنْتَ رَبُّنَا، فَإِنَّ: «**بَلَىٰ**» بَعْدَ التَّقْرِيرِ: تَقْتَضِي الإِثْبَاتَ.

* **بِخِلَافِ**: «**نَعَمْ**»، فَإِنَّهَا إِذَا وَرَدَتْ بَعْدَ الاسْتِفْهَامِ: تَقْتَضِي الإِيْجَابَ، وَإِذَا وَرَدَتْ بَعْدَ التَّقْرِيرِ: تَقْتَضِي النَّفْيَ.(٢)

* **وَأَمَّا قَوْلُهُمْ**: شَهِدْنَا؛ فَمَعْنَاهُ: شَهِدْنَا بِرُبُوبِيَّتِكَ، فَهُوَ تَحْقِيقٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَدَاءٌ لِشَهَادَتِهِمْ بِذَلِكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.(٣)

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ **قَالَ، فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ **الآيَةُ، قَالَ: جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ، فَتَكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ**: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ **قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُ**

---

(١) وَانْظُرْ: «إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَىٰ مَزَايَا القُرْآنِ الكَرِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩ و٢٩٠ و٢٩١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص٢٣٠ و٢٣١)، وَ«مَحَاسِنَ التَّأْوِيلِ» لِلقَاسِمِيِّ (ج٧ ص٢٩٣)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١١)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٨٨ و٤٩٠)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لَهُ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١١)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

(٢) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص ٢٣١).

(٣) انْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص ٢٣١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١٢).

عَلَيْكُمُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ، وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا، اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي، وَلَا رَبَّ غَيْرِي، فَلا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا، إِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي، يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي، قَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ).

أَثَرٌ حَسَنٌ؛ بِهَذَا اللَّفْظِ فَقَطْ

أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ في «زَوَائِدِ المُسْنَدِ» (ج٣٥ ص١٥٥)، وَابْنُ مَنْدَه في «الرَّدِّ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ» (٣٠)، و(٣٣)، وَالطَّبَرِيُّ في «جَامِعِ البَيَانِ» (ج١٠ ص٥٥٧ و٥٥٨)، وَالبَيْهَقِيُّ في «الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (٧٨٥)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٧ ص٤٦٦ و٤٦٧)، وَالحَاكِمُ في «المُسْتَدْرَكِ» (ج٢ ص٣٥٤)، وَالآجُرِّيُّ في «الشَّرِيعَةِ» (ص٢٠٧)، وَابْنُ عَبْدِ البَرِّ في «التَّقَصِّي» (ص٣٠٧)، وَفي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٩٢)، وَاللَّالَكَائِيُّ في «الاعْتِقَادِ» (ج٣ ص٦١٨)، وَابْنُ عَسَاكِرَ في «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (ج٧ ص٣٩٦)، وَضِيَاءُ الدِّيْنِ المَقْدِسِيُّ في «الأَحَادِيثِ المُخْتَارَةِ» (ج٣ ص٣٦٥)، وَعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٦ ص٦٥٥-الدُّرُّ المَنْثُورُ)، وَالدُّوْلَابِيُّ في «الكُنَىٰ وَالأَسْمَاءِ» (ج٢ ص٨٩)، وَابْنُ الجَوْزِيِّ في «الحَدَائِقِ» (ج١ ص٨٩) مِنْ طَرِيقِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، وَسُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، كِلَاهُمَا: عَنِ الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ عَنْ رَفِيعٍ أَبِي العَالِيَةِ عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ﷺ بِهِ.

قُلْتُ: وَهَذَا سَنَدُهُ حَسَنٌ، وَهُوَ مَوْقُوفٌ، وَلَكِنَّهُ في حُكْمِ الرَّفْعِ، لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ.

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ في «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٥٧): «وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ».

وَأَوْرَدَهُ الهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (ج٧ ص٢٥)؛ ثُمَّ قَالَ: «رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ، عَنْ شَيْخِهِ: مُحَمَّدِ بنِ يَعْقُوبَ [١]، وَهُوَ: «مَسْتُورٌ»، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدُّرِّ المَنْثُورِ» (ج٦ ص٦٥٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٦٣).

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو المُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٣١): (وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ: مُقِرُّونَ، بِيَوْمِ **المِيْثَاقِ**). اهـ

* إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْرَجَ جَمِيعَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِ الآبَاءِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِلِسَانِ المَقَالِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢].

* ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ، بَعْدَ ذَلِكَ: الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مُذَكِّرَةً بِذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**» الَّذِي نَسِيَهُ الكُلُّ، وَلَمْ يُوْلَدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهُ، وَإِخْبَارُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهِ، يَحْصُلُ بِهِ اليَقِينُ بِوُجُودِهِ.

* فَاللهُ تَعَالَىٰ أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا: بَلَىٰ، فَاسْتَجَابُوا للهِ تَعَالَىٰ، وَاعْتَرَفُوا، وَأَقَرُّوا، بِأَنَّهُ هُوَ الإِلَهُ المَعْبُودُ بِحَقٍّ.

* فَأَهْلُ الجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

---

(١) وَقَدْ تُوْبِعَ فِي إِسْنَادِهِ.

* فَشَهِدُوا عَلَىٰ وَجْهِ الخَبَرِ عَنِ الغَيْبِ، وَهَذَا عَلَىٰ وَجْهِ الخِطَابِ مِنَ الشُّهُودِ، لِلمَشْهُودِ عَلَيْهِمْ.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٩].

قُلْتُ: فَقَرَّرَهُمْ بِأَنَّهُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُمُ: العَبِيدُ، وَأَخَذَ عُهُودَهُمْ، وَمَوَاثِيْقَهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ مُبْتَدَأٌ: خَبَرُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، عَمَّا كَانَ مِنْهُ فِي أَخْذِ العَهْدِ عَلَيْهِمْ، وَإِذْ يَقْتَضِي جَوَابًا، يُجْعَلُ جَوَابُهُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، وَانْقَطَعَ هَذَا الخَبَرُ، بِتَمَامِ قِصَّتِهِ.

* ثُمَّ ابْتَدَأَ عَزَّ وَجَلَّ، خَبَراً آخَرَ، بِذِكْرِ مَا يَقُولُهُ: المُشْرِكُونَ، يَوْمَ القِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدْنَا﴾؛ يَعْنِي: نَشْهَدُ.

* **بِمَعْنَىٰ**: يَشْهَدُ، يَقُولُ تَعَالَىٰ: نَشْهَدُ أَنَّكُمْ سَتَقُولُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الحِسَابِ، وَالمُنَاقَشَةِ، وَالمُؤَاخَذَةِ بِالكُفْرِ.

---

(١) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٦٢ و٥٦٤ و٥٦٥)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ أَبِي حَاتِمٍ (ج٥ ص١٦١٤)، وَ«المُحَرَّرَ الوَجِيزَ» لِابنِ عَطِيَّةَ (ج٤ ص٨٦)، وَ«الكَشْفَ وَالبَيَانَ» لِلثَّعْلَبِيِّ (ج٨ ص٢٣٩)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٤ ص١٣٣)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٦٥ و٤٩٠)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لَهُ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«الإِبَانَةَ الكُبْرَىٰ» لِابنِ بَطَّةَ (ج٣ ص٣١٢)، وَ«مِرْقَاةَ المَفَاتِيحِ فِي شَرْحِ مِشْكَاةِ المَصَابِيحِ» لِلقَارِيِّ (ج١ ص١٦٠ و١٦١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٣ ص٥٠٦)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٦ ص٦٥٥)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٥ و٨٦)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ، وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤).

ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ خَبَراً آخَرَ، فَقَالَ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ بِمَعْنَىٰ: وَأَنْ تَقُوْلُوا؛ لِأَنَّ: ﴿أَوْ﴾؛ بِمَعْنَىٰ: وَاوِ النَّسَقِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإِنْسَانُ:٢٤]، فَتَأْوِيلُهُ: وَنَشْهَدُ أَنْ تَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا، وَحَمَلُونَا عَلَىٰ مَذْهَبِهِمْ فِي الشِّرْكِ فِي صِبَانَا، فَجَرَيْنَا عَلَىٰ مَذَاهِبِهِمْ، وَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ؛ فَلَا ذَنْبَ لَنَا إِذْ كُنَّا مُقْتَدِينَ بِهِمْ، وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لَهُمْ، كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٣]؛ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أَيْ: حَمْلِهِمْ إِيَّانَا عَلَىٰ الشِّرْكِ.

فَتَكُونُ القِصَّةُ الأُوْلَىٰ: خَبَراً عَنْ جَمِيعِ المَخْلُوقِينَ بِأَخْذِ: «المِيْثَاقِ» عَلَيْهِمْ، **وَالقِصَّةُ الثَّانِيَةُ**: خَبَراً عَمَّا يَقُولُ المُشْرِكُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الاعْتِذَارِ.(١)

قَالَ الإِمَامُ إِسْحَاقُ بنُ رَاهُوْيَه رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَقَدْ كَانُوا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مُقِرِّيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يُخَاطِبُ؛ إِلَّا مَنْ يَفْهَمْ عَنْهُ المُخَاطَبَةَ، وَلَا يُجِيبُ؛ إِلَّا مَنْ فَهِمَ السُّؤَالَ، فَإِجَابَتُهُمْ إِيَّاهُ بِقَوْلِهِمْ: دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ فَهِمُوا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَقِلُوا عَنْهُ، اسْتِشْهَادُهُ إِيَّاهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ فَأَجَابُوهُ مِنْ بَعْدِ عَقْلٍ مِنْهُمْ؛ لِلمُخَاطَبَةِ، وَفَهْمٍ لَهَا بِأَنْ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ فَأَقَرُّوْا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ)(٢). اهـ

---

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٩٦)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لَهُ (ج٢ ص٥٦٢).

(٢) نَقَلَهُ عَنْهُ ابنُ القَيِّمِ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٦٥).

قُلْتُ: فَكُلُّ آدَمِيٍّ قَدْ أَقَرَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، هُوَ: رَبُّهُ، وَأَنَّ هَذَا الآدَمِيَّ، هُوَ عَبْدٌ للهِ تَعَالَىٰ.(١)

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٩٠): (وَقَالَ آخَرُونَ**: مَعْنَىٰ الفِطْرَةِ المَذْكُورَةِ فِي المَوْلُودِينَ، مَا أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنَ: «**المِيثَاقِ**»، قَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا يَوْمَ اسْتَخْرَجَ ذَرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَخَاطَبَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَأَقَرُّوا جَمِيعًا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ مَخْلُوقِينَ، مَطْبُوعِينَ عَلَىٰ تِلْكَ المَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ الإِقْرَارِ.

* **قَالُوا**: وَلَيْسَتْ تِلْكَ المَعْرِفَةُ، وَلَا ذَلِكَ الإِقْرَارُ بِإِيمَانٍ؛ وَلَكِنَّهُ إِقْرَارٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ لِلرَّبِّ، فِطْرَةٌ أَلْزَمَهَا قُلُوبَهُمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ الِاعْتِرَافِ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالخُضُوعِ؛ تَصْدِيقًا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ، وَجَحَدَ بَعْدَ المَعْرِفَةِ، وَهُوَ بِهِ عَارِفٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ اللهُ تَعَالَىٰ لِيَدْعُوَ خَلْقَهُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِهِ، وَهُوَ لَمْ يُعَرِّفْهُمْ نَفْسَهُ، إِذْ كَانَ يَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ كَلَّفَهُمُ الإِيمَانَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ.

* **قَالُوا**: وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]). اهـ

---

(١) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج٦ ص٥٦٥)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

وَقَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٣): (مَثَّلَ تَعَالَىٰ: خَلْقَهُمْ عَلَىٰ فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، شَاهِدِينَ: بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، شَهَادَةً لَا يُخَالِجُهَا رَيْبٌ.

* بِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ الاعْتِرَافِ بِهَا بِطَرِيقِ الأَمْرِ، وَمُسَارَعَتِهِمْ إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَلَعْثُمٍ أَصْلاً.

* **وَالقَصْدُ مِنَ الآيَةِ**: الاحْتِجَاجُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، مَعْرِفَةً فِطْرِيَّةً، لَازِمَةً لَهُمْ لِزُومِ الإِقْرَارِ مِنْهُمْ، وَالشَّهَادَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠] ، وَالفِطْرَةُ: هِيَ مَعْرِفَةُ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ). اهـ

* فَإِنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَأُخْرِجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ قَالُوا بَلَىٰ: طَائِعِينَ.

فَهَذَا الآيَةُ: تَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ التَّقْلِيدِ فِي الدِّيْنِ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَزَالَ العُذْرَ، وَأَزَاحَ العِلَّةَ، وَبَعْدَهَا لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ إِذَا وَقَعَ فِي الشِّرْكِ، وَالضَّلَالِ.(١)

قَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٧): (اسْتُدِلَّ: بِهَذِهِ الآيَةِ، وَالأَحَادِيثِ المُتَقَدِّمَةِ فِي مَعْنَاهُ، أَنَّ مَعْرِفَتَهُ تَعَالَىٰ: فِطْرِيَّةٌ، ضَرُورِيَّةٌ.

---

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٣١١)، وَ«البُرْهَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلزَّرْكَشِيِّ (ج٢ ص٧٦)، وَ«لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٢)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» للرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٨٦ و٨٧]). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١١): (كَوْنُ النَّاسِ: تَكَلَّمُوا حِيْنَئِذٍ، وَأَقَرُّوا بِالإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا تَقُومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٩٠): (أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُم مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ، وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتِ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا الشِّرْكُ الَّذِي يُؤَاخَذُونَ بِهِ يَكُونُ مِنْ آبَائِهِمْ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ، لِثُبُوتِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**العَهْدِ**».(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٢): (وَهَذَا الإِشْهَادُ؛ مُقِرُّونَ بِأَخْذِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، وَهَذَا الأَخْذُ المَعْلُومُ المَشْهُودُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ؛ هُوَ: أَخْذُ المَنِيِّ مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَنُزُولُهُ فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا الأُمَّهَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ وَهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِدِينِ آبَائِهِمْ، لَا لِدِينِ الأُمَّهَاتِ، كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٢]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٤]؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: اذْكُرْ حِينَ أُخِذُوا مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، فَخُلِقُوا حِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، مُقِرِّينَ بِالخَالِقِ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّهُمْ، فَهَذَا الإِقْرَارُ: حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ،

---

(١) وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«شِفَاءَ العَلِيلِ» لَهُ (ص١٩٥)، وَ«الرُّوحَ» لَهُ أَيْضًا (ج٢ ص٤٨٨)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٣)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلسَّمْعَانِيِّ (ج٢ ص٢٣١)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١٢)، وَ«لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٠ و٦١٢)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٢)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤)، وَ«نَوَادِرَ الأُصُولِ» لِلْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ (ج١ ص٣١٠)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٩)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

فَأَخْذُهُمْ يَتَضَمَّنُ: خَلْقَهُمْ، وَالإِشْهَادُ يَتَضَمَّنُ: هُدَاهُ لَهُمْ إِلَىٰ هَذَا الإِقْرَارِ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ، فَهَذَا الإِشْهَادُ مِنْ لَوَازِمِ الإِنْسَانِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، شَاهِدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَاللهَ تَعَالَىٰ خَالِقُهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِبَنِي آدَمَ، لَا يَنْفِكُّ مِنْهُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ مِمَّا جُبِلُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ، لَا يُمْكِنُ أَحَدًا جَحْدُهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾؛ أَيْ: كَرَاهِيَةَ أَنْ تَقُولُوا، أَوْ؛ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَنْ هَذَا الإِقْرَارِ للهِ تَعَالَىٰ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَعَلَىٰ نُفُوسِنَا بِالعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ هَذَا، بَلْ كَانَ هَذَا مِنَ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمُ الَّتِي لَمْ يَخْلُ مِنْهَا بَشَرٌ قَطُّ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً، وَلَكِنْ قَدْ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ عُلُومِ العَدَدِ، وَالحِسَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ: فَإِنَّهَا إِذَا تَصَوَّرَتْ كَانَتْ عُلُومًا ضَرُورِيَّةً، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ غَافِلٌ عَنْهَا.

وَأَمَّا الِاعْتِرَافُ بِالخَالِقِ: فَإِنَّهُ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَازِمٌ لِلإِنْسَانِ، لَا يَغْفُلُ عَنْهُ أَحَدٌ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَهُ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَسِيَهُ.

* وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ التَّعْرِيفُ بِذَلِكَ: تَذْكِيرًا، فَإِنَّهُ تَذْكِيرٌ بِعُلُومٍ فِطْرِيَّةٍ ضَرُورِيَّةٍ، وَقَدْ يَنْسَاهَا العَبْدُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾

[الحَشْرُ: ١٩]، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يَقُولُ اللهُ؛ لِلكَافِرِ: فَاليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**»(١). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الرُّوْحِ»** (ج٢ ص٤٨٨): (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ: وَنَظِيرَتُهَا فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ، بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**» فِيهَا أَهْلَ الكِتَابِ، فَإِنَّهُ: «**مِيثَاقٌ**» أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الأَعْرَافِ فِي سُوْرَةٍ مَكِّيَّةٍ؛ ذَكَرَ فِيهَا: «**المِيثَاقَ**»، وَ«**الإِشْهَادَ العَامَّ**»: لِجَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرَّ بِرُبوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ «**مِيثَاقٌ**»: وَ«**إِشْهَادٌ**» تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ العُذْرُ، وَتَحِلُّ بِهِ العُقُوبَةُ، وَيُسْتَحَقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الإِهْلَاكُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، عَارِفِينَ بِهِ؛ وَذَلِكَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُ، وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ.

*** وَنَظْمُ الآيَةِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:**

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: آدَمَ، وَبَنُو آدَمَ غَيْرُ آدَمَ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ، أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٨٢٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج٤ ص٥٣٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: ذُرِّيَّتَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهَا.

الخَامِسُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ: بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

السَّادِسُ: تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ، وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتَ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

السَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ وَالإِشْهَادِ: **إِحْدَاهُمَا**: أَنْ لَا يَدَّعُوا الغَفْلَةَ، **وَالثَّانِيَةُ**: أَنْ لَا يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ؛ فَالغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ.

الثَّامِنُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أَيْ: لَو عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ، وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ، فَلَو أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِم فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم بِالرُّسُلِ؛ لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ

سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ، وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الأَعْذَارِ، وَالإِنْذَارِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كَلَّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]؛ أَيْ: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ بَعْدَ هَذَا الإِقْرَارِ مِنْهُمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ؛ فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ:١٠].

* فَاللهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا ذَكَّرَهُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِهَذَا الإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُمْ قَطُّ بِإِقْرَارٍ سَابِقٍ عَلَىٰ إِيْجَادِهِمْ، وَلَا أَقَامَ بِهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةً.

العَاشِرُ: أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدِّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأَنْعَامُ:٥٥]؛ أَيْ: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيْمَانِ.

* وَهَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي فَصَّلَهَا هِيَ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَهِيَ آيَاتٌ أَفَقِيَّةٌ[1]، **وَنَفْسِيَّةٌ**، آيَاتٌ فِي نُفُوسِهِمْ، وَذَوَاتِهِمْ، وَخَلْقِهِمْ، وَآيَاتٌ فِي الأَقْطَارِ وَالنَّوَاحِي مِمَّا يُحْدِثُهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَعَلَىٰ المَعَادِ وَالقِيَامَةِ، **وَمِنْ أَبْيَنِهَا**: مَا أَشْهَدَ بِهِ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ، مِنْ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَخَالِقُهُ، وَمُبْدِعُهُ، وَأَنَّهُ مَرْبُوبٌ مَصْنُوعٌ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ حَدَثَ بِلَا مُحْدِثٍ، أَوْ يَكُونَ هُوَ المُحْدِثَ لِنَفْسِهِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوْجِدٍ أَوْجَدَهُ لَيْسَ هُوَ كَمْثِلِهِ.

وَهَذَا الإِقْرَارُ وَالشَّهَادَةُ: فِطْرَةٌ فُطِرُوا عَلَيْهَا لَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ.

وَهَذِهِ الآيَةُ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾[2] [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، مُطَابِقَةٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»[3]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠-٣١]). اهـ

---

(١) **بِفَتْحِ أَوَّلِهِ، وَثَانِيهِ؛ قَالَ اللُّغَوِيُّ ابنُ السِّكِّيْتِ فِي «إِصْلَاحِ المَنْطِقِ»** (ص١٣٢): (رَجُلٌ أَفَقِيٌّ، إِذَا أَضَفْتَهُ إِلَىٰ الآفَاقِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أُفُقِيٌّ). اهـ

(٢) الآيَةُ وَرَدَتْ كَذَا فِي النُّسَخِ عَلَىٰ قِرَاءَةِ: أَبِي عَمْرٍو، وَبِهَا قَرَأَ: نَافِعُ، وَابنُ عَامِرٍ أَيْضًا.

وانْظُرْ: «حُجَّةِ القِرَاءَاتِ» لابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠١ و٣٠٢)، و«زَادَ المَسِيرِ» لابنِ الجَوْزِيِّ (ج٣ ص٢٨٤).

(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٨٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَبِلَفْظٍ آخَرَ عَنْهُ؛ عِنْدَ البُخَارِيِّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٨)، وَمُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ قِيْلَ: بَدَلٌ مِنْ: «**بَنِي آدَمَ**»؛ بَدَلُ البَعْضِ مِنَ الكُلِّ، بِتَكْرِيرِ الجَارِّ، أَوْ بِإِعَادَةِ الجَارِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ﴾ [الأَعْرَافُ:٧٥]؛ **وَالمَعْنَىٰ:** أَخَذُ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ، إِخْرَاجُهُمْ مِنْ أَصْلَابِهِمْ نَسْلاً، وَإِشْهَادُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، **فَيَكُونُ المَعْنَىٰ:** وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

* **وَقِيلَ:** بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَبَدَلُ الاشْتِمَالِ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ المُبْدَلِ مِنْهُ مُلَابَسَةٌ؛ بِحَيْثُ تُوْجِبُ النِّسْبَةَ إِلَىٰ المَتْبُوعِ، النِّسْبَةَ إِلَىٰ التَّابِعِ إِجْمَالاً.

نَحْوَ: «**أَعْجَبَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ**».

فَإِنَّهُ يُعْلَمُ ابْتِدَاءً، أَنَّ زَيْداً مُعْجَبٌ بِاعْتِبَارِ صِفَاتِهِ، لَا بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ، وَتَتَضَمَّنُ نِسْبَةُ: الإِعْجَابِ إِلَيْهِ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ إِجْمَالاً.

* **وَنِسْبَةُ الأَخْذِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَىٰ:** الإِخْرَاجِ هُنَا، إِلَىٰ بَنِي آدَمَ نِسْبَةٌ إِلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِجْمَالاً[1]، لِأَنَّهُ يُعْلَمُ أَنَّ بَنِي آدَمَ لَيْسُوا مَأْخُوذِينَ بِاعْتِبَارِ ذَوَاتِهِمْ، بَلْ بِاعْتِبَارِ أَجْسَادِهِمْ، وَأَعْضَائِهِمْ، وَتَتَضَمَّنُ نِسْبَةُ الأَخْذِ إِلَيْهِمْ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ أَعْضَائِهِمْ إِجْمَالاً.[2]

---

(١) وَهَذَا فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ: «**المِيْثَاقَ**» قَدْ أُخِذَ مِنْهُمْ، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَلَمْ يُسْتَوْدَعُوا فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ.

(٢) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٤)، وَ«التِّبْيَانَ فِي إِعْرَابِ القُرْآنِ» لِلعُكْبُرِيِّ (ج١ ص٦٠٢)، وَ«مُشْكِلَ إِعْرَابِ القُرْآنِ» لِمَكِّيٍّ (ج١ ص٣٠٦)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٨٩)، وَ«إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩)، وَ«فَتْحَ القَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٣٩)، وَ«الجَامِعَ لِأَحْكَامِ القُرْآنِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٧ ص٣١٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ المُرَادُ: أَوْلَادُهُمْ عَلَىٰ العُمُومِ.

قُلْتُ: فَنَصْبُ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمَا نُبِّهُوا عَلَيهِ، قَائِمٌ مَعَهُمْ، فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي الإِعْرَاضِ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَالإِقْبَالِ عَلَىٰ الشِّرْكِ بِالتَّقْلِيدِ، وَالاقْتِدَاءِ بِالآبَاءِ، كَمَا لَا عُذْرَ لِآبَائِهِمْ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

* **وَالمَعْنَىٰ:** أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ هَذَا الإِشْهَادِ أَنْ لَا يَقُولَ: الكُفَّارُ إِنَّمَا أَشْرَكْنَا، لِأَنَّ آبَاءَنَا أَشْرَكُوا، فَقَلَّدْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الشِّرْكِ.

قُلْتُ: وَالحَاصِلُ؛ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمْ: «**المِيْثَاقَ**»، امْتَنَعَ عَلَيْهِمُ التَّمَسُّكُ بِهَذَا القَدْرِ مِنَ الأَعْذَارِ البَاطِلَةِ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٣): (وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّاتِ بَنِي آدَمَ: **مِيْثَاقَ التَّوْحِيدِ للهِ تَعَالَىٰ**، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ). اهـ

* حَتَّىٰ يَجِبُ كَوْنَ ذَلِكَ الإِشْهَادَ، وَالشَّهَادَةَ، مَحْفُوظًا لَهُمْ فِي إِلْزَامِهِمْ، بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**».

وَالمَعْنَىٰ: فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا مِنَ الأَمْرِ بِذِكْرِ: «**المِيْثَاقِ**»، وَبَيَانِهِ كَرَاهَةً، أَنْ تَقُولُوا، أَوْ لِئَلَّا تَقُولُوا: أَيُّهَا الكَفَرَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «**إِنَّا كُنَّا غَافِلِينَ**»، عَنْ ذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**»، لَمْ نُنَبَّهْ عَلَيهِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، وَإِلَّا لَعَمِلْنَا بِمُوْجِبِهِ، هَذَا عَلَىٰ قِرَاءَةِ الجُمْهُورِ.[1]

---

(١) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠).

قَالَ الإِمَامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «البُرْهَانِ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٧٦)؛ عَنِ الآيَاتِ**: (إِقَامَةُ الحُجَّةِ بِهَا عَلَيْهِمْ(١)؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، وَلُغَتِهِمْ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٨٨)**: (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَنَظِيرَتُهَا، فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ: خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ، بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**»؛ فِيهَا: أَهْلَ الكِتَابِ، فَإِنَّهُ: «**مِيثَاقٌ**» أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ.

* وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الأَعْرَافِ فِي سُوْرَةٍ مَكِّيَّةٍ؛ ذَكَرَ فِيهَا: «**المِيثَاقَ**»، وَ«**الإِشْهَادَ العَامَّ**»: لِجَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرَّ بِرُبوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ: «**مِيثَاقٌ**»، وَ«**إِشْهَادٌ**» تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ العُذْرُ، وَتَحِلُّ بِهِ العُقُوبَةُ، وَيُسْتَحَقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الإِهْلَاكُ.

* فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، عَارِفِينَ بِهِ؛ وَذَلِكَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُ، وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ). اهـ

قُلْتُ: فَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَوْضَحَ الدَّلَائِلَ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقَ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِيْمَا أَخْبَرُوا بِهِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً لِلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُ الحُجَّةُ، وَنِسْيَانُهُ، وَعَدَمُ حِفْظِهِ، لَا يُسْقِطُ الاحْتِجَاجَ بَعْدَ إِخْبَارِ المُخْبِرِ الصَّادِقِ.

---

(١) **يَعْنِي**: العَرَبَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٣): (وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الآيَةَ، مَسُوقَةٌ: **لِبَيَانِ أَخْذِ مِيْثَاقٍ سَابِقٍ**، مِنْ جَمِيعِ الخَلْقِ: مُؤْمِنِهِمْ، وَكَافِرِهِمْ، قَبْلَ هَذِهِ النَّشْأَةِ، بِمَا هُوَ أَهَمُّ: الأُمُورِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٣): (القَوْمُ إِذْ ذَاكَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٧): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾؛ فِي ذَلِكَ يَوْمَ: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَيْ: إِنَّ آبَاءَنَا هُمْ: اخْتَرَعُوا الإِشْرَاكَ، وَهُمْ: سَنُّوهُ مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا: ﴿وَكُنَّا﴾؛ نَحْنُ: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ لَا نَهْتَدِي إِلَىٰ سَبِيلِ التَّوْحِيدِ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾؛ أَيْ: أَتُؤَاخِذُنَا، فَتُهْلِكُنَا اليَوْمَ بِالعَذَابِ: ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ مِنْ آبَائِنَا المُضِلِّيْنَ). اهـ

قُلْتُ: وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ القُرْآنِ، إِنْكَارُ اللهِ تَعَالَىٰ، عَلَىٰ مَنِ الْتَزَمَ اتِّبَاعَ الغَيْرِ عَلَىٰ؛ أَيِّ: حَالٍ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَةُ:١٧٠].

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٠): (وَمَعْنَىٰ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ عَلَىٰ هَذَا التَّفْسِيرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ لِلذُّرِّيَّةِ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، فَهُوَ إِيْجَابٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: بَلَىٰ، **يَعْنِي**: قَالَتِ الذُّرِّيَّةُ: بَلَىٰ أَنْتَ رَبُّنَا، فَهُوَ جَوَابٌ مِنْهُمْ: لَهُ، وَإِقْرَارٌ مِنْهُمْ: لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَاعْتِرَافٌ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالعُبُودِيَّةِ: ﴿شَهِدْنَا﴾). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رحمه الله **فِي «لُبَابِ التَّأْوِيلِ»** (ج٢ ص٦١٢): (وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾؛ **يَعْنِي**: الذُّرِّيَةَ، ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ **يَعْنِي**: إِنَّمَا أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» عَلَيْهِمْ لِئَلَّا يَقُولُ المُشْرِكُونَ: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **يَعْنِي**: وَكُنَّا أَتْبَاعًا لَهُمْ، فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ فِي الشِّرْكِ، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾؛ **يَعْنِي**: أَفَتُعَذِّبُنَا، ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ **قَالَ المُفَسِّرُونَ**: هَذَا قَطْعٌ لِعُذْرِ الكُفَّارِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الذُّرِّيَّةِ أَنْ يَقُولَ يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُنَا، وَنَقَضُوا: «**العَهْدَ**»، وَ«**المِيْثَاقَ**»، وَكُنَّا نَحْنُ الذُّرِّيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَقَلَّدْنَاهُمْ، وَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ، وَكُنَّا فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، فَلَا ذَنْبَ لَنَا، فَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَحْتَجُّوا بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا **المِيْثَاقُ**، وَجَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ، وَذَكَّرُوهُمْ بِهِ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رحمه الله **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ»** (ج٩ ص١٠٥): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: إِنَّا فَعَلْنَا هَذَا مَنْعًا لِاعْتِذَارِكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، بِأَنْ تَقُوْلُوا إِذَا أَشْرَكْتُمْ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا التَّوْحِيدِ غَافِلِيْنَ، إِذْ لَمْ يُنَبِّهْنَا إِلَيْهِ مُنَبِّهٌ، **وَمَآلُ هَذَا: أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارُ بِالجَهْلِ، لِأَنَّهُمْ نُبِّهُوا بِنَصْبِ الأَدِلَّةِ**، وَجُعِلُوا مُسْتَعِدِّينَ لِتَحْقِيقِ الحَقِّ، وَإِبْعَادِ الشِّرْكِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: أَوْ تَقُوْلُوا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ: إِنَّ آبَاءَنَا اخْتَرَعُوا الإِشْرَاكَ، وَسَنُّوهُ مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا، وَكُنَّا جَاهِلِيْنَ بِبُطْلَانِ شِرْكِهِمْ، فَلَمْ يَسَعْنَا؛ إِلَّا الاقْتِدَاءَ بِهِمْ، وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، أَفَتُؤَاخِذُنَا فَتُهْلِكُنَا اليَوْمَ بِالعَذَابِ بِمَا فَعَلَهُ المُبْطِلُونَ مِنْ آبَائِنَا المُضَلِّينَ، فَتَجْعَلَ عَذَابَنَا كَعَذَابِهِمْ، مَعَ عُذْرِنَا بِتَحْسِينِ الظَّنِّ بِهِمْ؟.

وَالخُلَاصَةُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ **لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارَ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ،** إِذِ التَّقْلِيدُ عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا يُرْكَنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ، **كَمَا أَنَّ الاعْتِذَارَ بِالجَهْلِ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَيِّنَاتِ الفِطْرِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ؛ مِمَّا لَا يُقْبَلُ.**

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤]؛ أَيْ: وَمِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ المُسْتَتْبِعِ لِلمَنَافِعِ الجَلِيْلَةِ، نُفَصِّلُ لِبَنِي آدَمَ الآيَاتِ، وَالدَّلَائِلِ لِيَسْتَعْمِلُوا عُقُوْلَهُمْ فِي التَّبَصُّرِ فِيهَا، وَالتَّدَبُّرِ فِي أَمْرِهَا، **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بِهَا عَنْ جَهْلِهِمْ، وَتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ.**

وَفِي الآيَةِ: إِيْمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ بِعْثَةُ رَسُولٍ، لَا يُعْذَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا بِفِعْلِ الفَوَاحِشِ، وَالمُوْبِقَاتِ الَّتِي تَنْفِرُ مِنْهَا الفِطَرُ السَّلِيمَةِ، وَتُدْرِكُ ضَرَرَهَا العُقُولُ الحَصِيفَةُ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١١٧):** (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: أَوَجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ، قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا، وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالقَوْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ [الأَنْعَامِ:١٣٠]؛ الآيَةَ، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التَّوْبَةِ:١٧]؛ أَيْ: حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العَادِيَاتِ:٧]؛ كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالقَالِ،

وَتَارَةً يَكُونُ بِالحَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إِبْرَاهِيمَ:٣٤].

قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا، أَنْ جَعَلَ هَذَا الإِشْهَادَ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ...، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ الفِطْرَةُ الَّتِي فُطِروا عَلَيْهَا، مِنَ الإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ أَيْ: لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾؛ أَيْ: التَّوْحِيدِ، ﴿غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾؛ الآيَةَ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١١١): (يُخْبِرُ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ: بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

* **كَمَا أَنَّهُ تَعَالَىٰ**: فَطَرَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّومِ:٣٠]؛ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ: المِلَّةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»). اهـ

* فَيَتَعَيَّنُ حِينَئِذٍ، أَنْ يُرَادَ: «**بِالمِيثَاقِ**» مَا رَكَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ، مِنَ العُقُولِ، وَآتَاهُمْ مِنَ البَصَائِرِ، لِأَنَّهَا: هِيَ الحُجَّةُ البَالِغَةُ، وَالمَانِعَةُ، عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ الإِقْرَارَ، وَالتَّمَكُّنَ، مِنْ مَعْرِفَةِ

رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ، كَمَا جَعَلَ بَعْثَ الرَّسُولِ ﷺ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِيْمَانِ، بِمَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنَ الغُيُوبِ.(١)

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رحمه الله **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٣)**: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ: مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّاتِ بَنِي آدَمَ، **مِيْثَاقَ التَّوْحِيدِ للهِ تَعَالَىٰ**، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ زَنْجَلَةَ رحمه الله **فِي «حُجَّةِ القِرَاءَاتِ» (ص٣٠٢)**: (أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِحَّةِ التَّوْحِيدِ، إِذْ كَانُوا هُمْ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو المُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ رحمه الله **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٣١)**: (قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ **يَعْنِي**: إِنَّمَا أَخَذْتُ، مَا أَخَذْتُ مِنَ: «**العَهْدِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ**» عَلَيْكُمْ جَمِيعًا؛ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **يَعْنِي**: أَنَّ الجِنَايَةَ مِنَ الآبَاءِ، وَكُنَّا أَتْبَاعًا لَهُمْ؛ فَيَجْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً، وَعُذْراً، عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ!). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا النَّصُّ مَسُوقٌ لِإِلْزَامِ الخَلْقِ بِمُقْتَضَىٰ: «**المِيْثَاقِ العَامِّ**» عِنْدَمَا كَانُوا فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ، بَعْدَ إِلْزَامِهِمْ: «**بِالمِيْثَاقِ المَخْصُوصِ**» بِهِمْ، وَالاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِالحُجَجِ السَّمْعِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْعِهِمْ عَنِ التَّقْلِيدِ لِآبَائِهِمْ فِي الشِّرْكِ، وَالبِدَعِ.

* فَتَمَادَىٰ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ فِي الغَيِّ بَعْدَ أَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ، مِنَ: «**المِيْثَاقِ العَامِّ**» فِي عَالَمِ الغَيْبِ، وَمِنَ: «**المِيْثَاقِ الخَاصِّ**» فِي عَالَمِ الحَيَاةِ.

---

(١) انْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٩).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

قَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٤): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ **أَيْ:** أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَئِكَ الذُّرِّيَةِ المَأْخُوذِينَ مِنْ ظُهُوْرِ آبَائِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، لَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، **تَقْرِيراً:** لَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، **قَائِلاً لَهُمْ:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ **أَيْ:** مَالِكَ أَمْرِكُمْ، وَمُرَبِّيكُمْ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مَدْخَلٌ فِي شَأْنٍ مَنْ شُؤُونِكُمْ: ﴿قَالُوا﴾؛ فِي جَوَابِهِ سُبْحَانَهُ، ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ **أَيْ:** عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، **وَالمُرَادُ:** أَقْرَرْنَا بِذَلِكَ). اهـ

قُلْتُ: وَبَلَىٰ: حَرْفُ جَوَابٍ.

قَالَ الحَافِظُ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٣٤-رُوْحُ المَعَانِي): (إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ، أَصْلٌ: فِي الإِقْرَارِ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٢): (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِراً لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، كَمَا تَأْتِي الإِشَارَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ.

* أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي

فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

* **تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ**، لِئَلَّا يَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتُ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

* قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الأَخْذِ وَالإِشْهَادِ: أَنْ لَا يَدَّعُوا الغَفْلَةَ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ، فَالغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ، وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَانِ الحِكْمَتَانِ؛ إِلَّا عَلَىٰ مَا قَامَتْ بِهِ الحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالفِطْرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، لَقَالُوا ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَلَوْ أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ القُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الإِعْذَارِ وَالإِنْذَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ.

* أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥].

* فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠].

* أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةً لِلْعِلْمِ بِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، لَا يُوْلَدُ مَوْلُودٌ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الفِطْرَةِ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ.

* وَلَا شَكَّ أَنَّ الإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَالشِّرْكُ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَنَّ الآبَاءَ أَشْرَكُوا، وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَىٰ عَادَتِهِمْ). اهـ

قُلْتُ: لِئَلَّا تَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الأَمْرِ، وَإِحَاطَةِ العَذَابِ، بِمَنْ أَشْرَكَ؛ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾؛ **أَيْ**: وُحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ: ﴿غَافِلِينَ﴾، لَمْ نُنَبَّهْ عَلَيهِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَسَعْهُمْ هَذَا الاعْتِذَارُ، حِيْنَئِذٍ عَلَىٰ مَا قِيلَ، لِأَنَّهُمْ: نُبِّهُوا بِنَصْبِ الأَدِلَّةِ، وَجُعِلُوا مُتَهَيِّئِينَ: تَهَيُّأً تَامًّا، لِتَحْقِيقِ الحَقِّ، وَإِنْكَارِ ذَلِكَ: مُكَابَرَةٌ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُمْ، أَنْ يَقُوْلُوا ذَلِكَ.[1]

قَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٠): (فَكُلُّ مَنْ بَلَغَ، وَعَقِلَ، فَقَدْ أُخِذَ عَلَيهِ: «**المِيْثَاقُ**»، بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ: «**المِيْثَاقُ**»،

(١) انْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٧).

وَهُوَ العَقْلُ، وَالتَّكْلِيفُ، فَيَكُونُ مَعْنَىٰ؛ الآيَةِ: وَإِذْ يَأْخُذُ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَيُشْهِدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِمَا رَكَّبَ فِيْهِمْ مِنَ العَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ: الفَهْمُ، وَالتَّكْلِيفُ الَّذِي بِهِ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ الثَّوَابُ، وَالعِقَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رحمه الله في «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٥): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ **أَيْ**: سَنُّوا الإِشْرَاكَ، وَاخْتَرَعُوهُ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ **أَيْ**: مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **أَيْ**: فَنَشَأْنَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، احْتِجَاجاً بِالتَّقْلِيدِ، وَتَعْوِيلاً عَلَيهِ.

* فَقَدْ قَطَعْنَا العُذْرَ بِمَا بَيَّنَّا مِنَ الآيَاتِ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ **أَيْ**: أَتُؤَاخِذُنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُنَا مِنَ الشِّرْكِ، وَأَسَّسُوا مِنَ البَاطِلِ، أَوْ بِفِعْلِ آبَائِنَا الَّذِينَ أَبْطَلُوا تَأْثِيرَ العُقُولِ، وَأَقْوَالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟؛ وَالاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ؛ أَيْ: أَنْتَ حَكِيمٌ لَا تَأْخُذُ الأَبْنَاءَ، بِفِعْلِ الآبَاءِ، وَقَدْ سَلَكْنَا طَرِيقَهُمْ، وَالحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِمَا شَرَعُوا لَنَا مِنَ البَاطِلِ.

وَالمَعْنَىٰ: أَزَلْنَا الشُّبْهَتَيْنِ بِأَنَّ الإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، هُوَ فِي أَصْلِ فِطْرَتِكُمْ، فَلِمَ لَمْ تَرْجِعُوا إِلَيْهِ، عِنْدَ دَعْوَةِ العُقُولِ، وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟، وَالفِطْرَةُ: أَكْبَرُ دَلِيلٍ، فَهِيَ تَسُدُّ بَابَ الاعْتِذَارِ بِوَجْهٍ مَا، لَا سِيَّمَا وَالتَّقْلِيدُ، عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا مَسَاغَ لَهُ أَصْلاً). اهـ

وقَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رحمه الله في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥): (**وَالخُلَاصَةُ**: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارَ، بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، وَالأَجْدَادِ، إِذِ التَّقْلِيدُ عِنْدَ قِيَامِ

الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا يُرْكَنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ.

* كَمَا أَنَّ الاعْتِذَارَ بِالجَهْلِ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَيِّنَاتِ الفِطْرِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ، مِمَّا لَا يُقْبَلُ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رحمه الله في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥): (وَفِي الآيَةِ: إِيْمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ، بِعْثَةُ رَسُولٍ، لَا يُعْذَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا بِفِعْلِ الفَوَاحِشِ، وَالمُوْبِقَاتِ، الَّتِي تَنْفِرُ مِنْهَا: الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَتُدْرِكُ ضَرَرَهَا العُقُولُ الحَصِيفَةُ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ البَغْدَادِيُّ رحمه الله في «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٢):

(فَقَامَتِ الحُجَّةُ: عَلَيْهِمْ؛ لِإِمْدَادِهِمْ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَإِعْلَامِهِمْ بِجَرَيَانِ: أَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ.

* وَبِذَلِكَ قَامَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَيْضاً يَوْمَ القِيَامَةِ، لِإِخْبَارِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**» فِي الدُّنْيَا؛ فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً: لَلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُمْ الحُجَّةُ، وَلَمْ تَسْقُطْ الحُجَّةُ عَنْهُمْ بِنِسْيَانِهِمْ، وَعَدَمِ حِفْظِهِمْ بَعْدَ إِخْبَارِ الصَّادِقِ صَاحِبِ الشَّرْعِ، وَالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَاتِ). اهـ

قُلْتُ: فَقَدَ ثَبَّتَ اللهُ تَعَالَىٰ الحُجَّةَ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ فِي عَالَمِ الغَيْبِ **بِالمِيْثَاقِ وَالفِطْرَةِ فِي الإِجْمَالِ، وَهَذَا المِيْثَاقُ الأَوَّلُ** الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ، وَهُمْ فِي ظُهُورِ آبَائِهِمْ.(١)

* فَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ: «**العَهْدَ**»، وَ«**المِيْثَاقَ**» عَلَىٰ بَنِي آدَمَ جَمِيعاً، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، فَلَا يَكُونُ لَهُمُ العُذْرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، **فِي الإِشْرَاكِ بِاللهِ: جَهْلاً، أَوْ تَقْلِيداً.**

قُلْتُ: جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ: عُقُولاً، يَفْهَمُونَ بِهَا، وَأَلْسِنَةً، يَنْطِقُونَ بِهَا، فَهُمْ: يَعْلَمُونَ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَقَدْ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ: «**بِالمِيْثَاقِ**» يَوْمَ القِيَامَةِ.(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٩]؛ **يَعْنِي**: يَوْمَ أَخَذَ عَلَىٰ الخَلْقِ **المِيْثَاقَ**.(٣)

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ

---

(١) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ص٦١١)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤١).

(٢) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ (ج٢ ص٦١٠)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٤)، وَ«الإِتْقَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٤ ص٢٢٥)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٤)، وَ«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢ و٣٠٣).

(٣) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٦)، وَ«جَامِعِ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٣ ص٢٤٢ و٢٤٣)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٦ ص٦٥٣).

فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٨ و١٤٩].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ **قَالَ: فِي قَوْلِهِ تعالىٰ:** ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٨]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأَنْعَامُ:١٠٧]؛ **فَإِنَّهُمْ قَالُوا: عِبَادَتُنَا الآلِهَةَ تُقَرِّبُنَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهَا لا تُقَرِّبُهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، **يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: لَوْ شِئْتُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَجْمَعِينَ).**[1]

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ، **فِي حَدِيثِ: «الرُّؤْيَا»، وَهُوَ حَدِيثٌ: طَوِيلٌ، عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: (وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ: فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ). وَفِي رِوَايَةٍ: (وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ).**[2]

---

(١) **أَثَرٌ صَحِيحٌ.**

أَخْرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٥ ص١٤١٢)، وَالطَّبَرِيُّ فِي «جَامِعِ البَيَانِ» (ج٩ ص٦٥٠).

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٠٤٧)، و(١٣٨٦).

وَأَوْرَدَهُ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص١١٨)؛ ثم قَالَ: (وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ، أَوْلَادُ النَّاسِ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ، وَعُمُومُهُ جَمِيعُ النَّاسِ)[1]. اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّذْكِرَةِ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» (ج٣ ص١٠٤٤): (**وَمَنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُشْرِكِينَ**: فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيهِ القَلَمُ، فَلَيْسَ يَكُونُونَ مَعَ آبَائِهِمْ فِي النَّارِ؛ **لِأَنَّهُمْ**: مَاتُوا عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، **وَلَمْ يَنْقُضُوا المِيْثَاقَ**). اهـ

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٢): (أَخَذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ، بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَالْتَزَمُوهُ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ فِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٥): (وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُخَالِفِينَ الرُّسُلَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العَنْكَبُوتُ: ٨]؛ الآيَةَ.

* **فَمَنِ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ**، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الحَقِّ المَعْلُومِ إِلَيْهِ، فَهَذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَةُ: ١٧٠].

---

(١) **يَعْنِي**: أَوْلَادَ المُسْلِمِينَ، وَأَوْلَادَ المُشْرِكِينَ، فَهُمْ: فِي الجَنَّةِ، جَمِيعًا، لِأَنَّهُمْ مَاتُوا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ.

* وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الإِسْلَامِ، **يَتْبَعُ أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِن اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ**، وَإِنْ كَانَ خَطَأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، بَلْ هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ، لَا مُسْلِمَةِ الِاخْتِيَارِ، **وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ؟ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.**

* فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا المَحِلَّ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيَقُمْ للهِ، وَلْيَنْظُرْ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ المَرْءُ أَمْرُ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، **وَالتَّرَائِبُ**: عِظَامُ الصَّدْرِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الخَلَائِقِ). اهـ

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤].

قُلْتُ: فَقَدْ أَقَامَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ، الحُجَّةَ عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ فِي الغَيْبِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ عِنْدَمَا خَرَجُوا إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِمَّنْ بَلَغَ مِنْهُمْ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٤)**: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أَيْ: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ الَّذِي فَصَّلْنَا فِيهِ لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ، نُفَصِّلُ لِلآيَاتِ اللَّاحِقَةِ؛ فَالكُلُّ عَلَىٰ نَمَطٍ وَاحِدٍ فِي التَّفْصِيلِ، وَالتَّوْضِيحِ؛ لِأَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ، وَبَرَاهِينِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ عَنْ شِرْكِهِمْ، وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ، وَعِبَادِهِ، بِذَلِكَ التَّفْصِيلِ وَالتَّوْضِيحِ). اهـ

قُلْتُ: فَمَنْ وَقَعَ فِي: «**الشِّرْكِ الأَكْبَرِ**»، وَهُوَ جَاهِلٌ، قَدْ قَامَتْ عَلَيهِ الحُجَّةُ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**»مَعًا، عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَكَفَىٰ.

* وَأَمَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ **الكُتُبِ** مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، **وَإِرْسَالِ**: الرُّسُلِ إِلَيْهِ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيهِ الحُجَّةُ عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا[1]، بِأَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الكُتُبِ، وَالرُّسُلِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ العِلْمِ النَّافِعِ: **مِنْ أَحْكَامِ التَّوْحِيدِ، وَأَحْكَامِ الصَّلَاةِ، وَأَحْكَامِ الزَّكَاةِ، وَأَحْكَامِ الصِّيَامِ، وَأَحْكَامِ الحَجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ**[2]، **فِي الأُصُولِ وَالفُرُوعِ**، مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ العَبْدُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.[3]

قُلْتُ: لَوْ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَىٰ الخَلْقِ، إِلَّا هَذَا: «**العَهْدُ**»، وَ«**المِيْثَاقُ**»، وَلَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ، لَكَفَىٰ بِذَلِكَ حُجَّةً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِمَا تَضَمَّنَهُ: «**المِيْثَاقُ**» مِنْ إِقْرَارِ الخَلْقِ؛ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

* **فَمَا بَالُكَ**: بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، فَقَدْ أَزَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمُ الاحْتِجَاجَ، بِتَرْكِيبِ العُقُولِ، وَالفَهْمِ فِيهِمْ، وَتَذْكِيرِهِمْ، بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إِلَيْهِمْ، فَقَطَعَ بِذَلِكَ أَعْذَارَهُمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلُ:٣٦].

---

(١) **أَمَّا قِيَامُ الحُجَّةِ ابْتِدَاءً**، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيهِ بِالإِجْمَالِ؛ «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**» مَعًا، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

(٢) **أَمَّا قِيَامُ الحُجَّةِ بِالقُرْآنِ، وَدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ**، فَعَلَىٰ التَّفْصِيلِ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

(٣) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٤).

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٢٧)؛ عَنْ تَفْسِيرِ المِيْثَاقِ: بِالفِطْرَةِ، مُسْتَنِداً: إِلَىٰ السُّنَّةِ، وَدِلَالَةِ العَقْلِ، وَظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَالنَّظَائِرِ: (وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَتْ بِهِ الآيَةُ: قَوْلُهُ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ: فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ**»، فَالمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ، وَالإِشْهَادُ الَّذِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَالإِقْرَارُ الَّذِي أَقَرُّوا بِهِ هُوَ الفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَذْكُرُهُ، بَلْ بِمَا يُشْرَكُونَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَالإِقْرَارِ بِهِ، وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ آدَمَ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ ظَهْرِهِمْ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: «ذُرِّيَّتَهُ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، **وَهَذَا يَقْتَضِي إِقْرَارَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ إِقْرَارًا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الحُجَّةُ**، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ الإِقْرَارُ الَّذِي احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٨٤ - ٨٥]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرَبِّهِمْ، وَفَاطِرِهِمْ، وَيَدْعُوهُمْ: بِهَذَا الإِقْرَارِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَأَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي «الأَعْرَافِ» وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢] الآيَةَ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا

إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ و١٧٣]، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ، وَعِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَأَلَّا يَعْتَذِرُوا، إِمَّا بِالغَفْلَةِ عَنِ الحَقِّ، وَإِمَّا بِالتَّقْلِيدِ فِي البَاطِلِ، **فَإِنَّ الضَّلَالَ لَهُ سَبَبَانِ**: إِمَّا غَفْلَةٌ عَنِ الحَقِّ، وَإِمَّا تَقْلِيدُ أَهْلِ الضَّلَالِ، فَيُطَابِقُ الحَدِيثَ مَعَ الآيَةِ، وَيُبَيِّنُ مَعْنَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا بِالآخَرِ). اهـ

وَالمِيْثَاقُ لَا يَخْلُو مِنْ قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: المِيْثَاقُ العَامُّ، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ فِي الغَيْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

القِسْمُ الثَّانِي: المِيْثَاقُ الخَاصُّ، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٨١]؛ فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الكِتَابِ، وَالحُكْمِ؛ **مِيْثَاقًا أَخَذَهُ مِنْ أُمَمِهِمْ بَعْدَهُمْ**.

* **يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ**؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ؛ لِلأُمَمِ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ:٨١]، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ بُلُوغَ الأُمَمِ

كِتَابَهُ المُنَزَّلَ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ؛ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، كَأَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ فِي الغَيْبِ، وَجَعَلَ مَعْرِفَتَهُمْ بِهِ، إِقْرَاراً مِنْهُمْ.

* **وَشَبِيهٌ بِهِ**؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المَائِدَةُ:٧]؛ **فَهَذَا مِيْثَاقُهُ**: الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، بَعْدَ إِرْسَالِهِ سُبْحَانَهُ: رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إِلَيْهِمْ بِالإِيْمَانِ بِهِ، وَتَصْدِيقِهِ.

* **وَنَظِيرُهُ**، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرَّعْدُ:٢٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠ و٦١]؛ **فَهَذَا عَهْدُهُ إِلَيْهِمْ**: عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* **وَمِثْلُهُ**: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البَقَرَةُ:٤٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٨٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأَحْزَابُ:٧].

* **فَهَذَا مِيْثَاقٌ**: أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُمْ، بَعْدَ بَعْثِهِمْ، كَمَا أَخَذَ مِنْ أُمَمِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ.

وَهَذَا المِيْثَاقُ: الَّذِي لَعَنَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَقَضَهُ، وَعَاقَبَهُ، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المَائِدَةُ:١٣]، فَإِنَّمَا عَاقَبَهُمْ بِنَقْضِهِمْ: «**المِيْثَاقَ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* وَقَدْ صَرَّحَ سُبْحَانَهُ بِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَةُ:٦٣].

إِذَاً فَبَيْنَ يَدَيْكَ؛ أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلحَقِّ، نُصُوصٌ شَرْعِيَّةٌ، وَنُقُولٌ سَلَفِيَّةٌ؛ فَأَرْعِ لَهَا سَمْعَكَ، وَأَمْعِنْ فِيهَا بَصَرَكَ، جَعَلَ اللهُ التَّوْفِيقَ حَلِيفَكَ، وَالتَّسْدِيدَ رَفِيقَكَ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

كَتَبَهُ: أَبُو عَبْدِالرَّحْمَنِ الأَثَرِيُّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذِكْرُ الدَّلِيلِ

عَلَى أَنَّ أَوَّلَ حُجَجِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، الَّتِي يَحُجُّهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَالآخِرَةِ، هِيَ: حُجَّةُ المِيْثَاقِ عَلَى الإِجْمَالِ(١)، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيهِمْ، وَهُمْ: فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَقَدْ فَطَرَ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ عَلَى هَذَا المِيْثَاقِ، وَعَلَى فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ(٢)، وَالفِطْرَةُ: حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، حَيْثُ مَا مِنْ مَوْلُودٍ، إِلاَّ يُوْلَدُ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ، وَالإِيْمَانِ بِاللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ، وَقَطَعَ اللهُ تَعَالَى بِهَذَا المِيْثَاقِ أَعْذَارَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا عَنْ هَذَا المِيْثَاقِ، وَمِنْ أَنْ لاَ يَفُونَ بِهِ، أَوْ أَنْ يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ؛ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ، وَالضَّلاَلِ، وَأَنْ يَكُونُوا غَافِلِينَ عَنِ الإِسْلاَمِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَقَدْ أَكَّدَ اللهُ تَعَالَى، وَذَكَّرَ العِبَادَ رَحْمَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ، بِهَذَا المِيْثَاقِ؛ وَالفِطْرَةِ، بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ الكَرِيمَ(٣)، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، بِبُلُوغِهِ؛ تَأْكِيداً، وَتَذْكِيراً: لَهُمْ عَنْ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الدِّيْنِ الصَّحِيحِ، فَهُوَ دَاعٍ، وَنَذِيرٌ، أَيْضاً لِلْعِبَادِ عَلَى الإِجْمَالِ، وَعَلَى التَّفْصِيلِ، وَهُوَ البُرْهَانُ المُؤَكَّدُ، الَّذِي يَنْدَفِعُ بِهِ الجَهْلُ أَيْضاً، وَتُحْسَمُ بِهِ

---

(١) **فَحُجِّيَّةُ المِيْثَاقِ**: عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَحُجَّةُ المِيْثَاقِ، هِيَ: الحُجَّةُ الأُوْلَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ فِي الغَيْبِ.

(٢) **فَحُجِّيَّةُ الفِطْرَةِ**: فِي الجُمْلَةِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَطَرَ الخَلْقَ مِنْ صِغَرِهِمْ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ، وَحُجَّةُ الفِطْرَةِ، هِيَ: الحُجَّةُ الثَّانِيَةُ فِي خُرُوجِهِمْ فِي الدُّنْيَا.

(٣) **وَحُجِّيَّةُ القُرْآنِ**: عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ مَعاً فِي الحِيَاةِ الدُّنْيَا، وَحُجِّيَّةُ القُرْآنِ، هِيَ: الحُجَّةُ الثَّالِثَةُ فِي الدُّنْيَا.

الأَعْذَارُ، فَمَنْ بَلَغَهُ القُرْآنُ، فَقَدْ بَلَغَتْهُ الحُجَّةُ الَّتِي تُبْطِلُ الأَعْذَارَ، وَتُوْجِبُ عَلَى مُخَالَفَتِهَا، وَمُعَانِدِهَا عَذَابَ النَّارِ، وَكَذَا وُصُولُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالسَّمَاعِ بِالرِّسَالَةِ، وَبِدَعْوَتِهِ ﷺ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ، فَقَدْ بَلَغَتْهُ نِذَارَةُ الرَّسُولِ ﷺ[1]، الَّتِي تُبْطِلُ الأَعْذَارَ، وَكَأَنَّمَا رَأَى الرَّسُولَ ﷺ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُ اللهِ تَعَالَى، وَالإِسْلاَمُ، أَخَذَهُ، أَوْ تَرَكَهُ، وَبِالتَّالِي، فَقَدْ أُقِيْمَتْ عَلَى العِبَادِ حُجَجُ اللهِ تَعَالَى الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ نَارَ جَهَنَّمَ إِذَا خَالَفُوهَا، وَوَقَعُوا فِي الشِّرْكِ، أَوِ الكُفْرِ، أَوْ التَّقْلِيدِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٥٣ و١٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٥٥ و١٥٦ و١٥٧].

---

(١) **وَحُجِّيَةُ الرِّسَالَةِ**: عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ مَعًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَحُجَّةُ السُّنَّةِ، هِيَ: الحُجَّةُ الرَّابِعَةُ عَلَىٰ الخَلْقِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٢].

عَنِ الإِمَامِ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَحْمَةً﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٢]؛ **(القُرْآنُ).**(١)

وَقَالَ الإِمَامُ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٤٠): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٢]؛ يَعْنِي: بَيَّنَاهُ، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ وَهُوَ القُرْآنُ، ﴿هُدًى﴾؛ مِنَ الضَّلَالَةِ، ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ مِنَ العَذَابِ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ يَعْنِي: يُصَدِّقُونَ بِالقُرْآنِ بِأَنَّهُ مِنَ اللهِ). اهـ

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥١ و٥٢ و٥٣].

---

(١) **أَثَرٌ حَسَنٌ.**

أَخْرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٥ ص١٤٩٣).

وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ٨٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصَصُ: ٤٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العَنْكَبُوتُ: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجَاثِيَةُ: ٢٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ١٠٧].

قُلْتُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّداً ﷺ: رَحْمَةً لِجَمِيعِ العَالَمِينَ؛ يَعْنِي: لِلْجِنِّ وَالإِنْسِ، فَعَلَيْهِمُ الإِيْمَانَ بِهِ ﷺ، وَبِالعَمَلِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَىٰ.

* فَمَنْ آمَنَ بِهِ ﷺ: تَمَّتْ لَهُ الرَّحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

* وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، فَلَيْسَ لَهُ فِي الآخِرَةِ، إِلَّا النَّارَ.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ١٠٨].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزُّمَرُ: ٢١].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٥].

* **مَعْنَاهُ:** ذَكِّرْ بِالقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ، فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ مَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَىٰ، أَنْ يُؤْمِنَ مِنْهُمْ.(٢)

---

(١) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٦ ص٤٤٠ و٤٤١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِمُقَاتِلِ بنِ سُلَيْمَانَ (ج٣ ص٩٧)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِيَحْيَىٰ بنِ سَلَّامٍ (ج١ ص٣٥٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٥ ص٣٨٢)، وَ«مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلبَغَوِيِّ (ج٥ ص٣٥٩)، وَ«الكَشْفَ وَالبَيَانَ» لِلثَّعْلَبِيِّ (ج٦ ص٣١٤).

(٢) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِمُقَاتِلِ بنِ سُلَيْمَانَ (ج٤ ص١٣٣)، وَ«مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلبَغَوِيِّ (ج٧ ص٣٨٠)، وَ«المُحَرَّرَ الوَجِيزَ» لِابنِ عَطِيَّةَ (ج٨ ص٨١)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج١٣ ص٦٨٧).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦].

قَالَ الإِمَامُ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١٣٣): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٥٦]؛ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ). اهـ

* **وَالحُجَّةُ:** هِيَ الدَّلِيلُ، وَالبُرْهَانُ: الَّذِي يَنْدَفِعُ بِهِ الجَهْلُ، وَتُحْسَمُ بِهِ الأَعْذَارُ، وَهَذَا الحُجَّةُ تَمْنَعُ العَبْدَ أَنْ يَتَعَذَّرَ، وَإِنْ وُجِدَتْ هَذِهِ الأَعْذَارُ.

أَوَّلاً: حُجَّةُ المِيْثَاقِ:

فَمِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ: عَلَىٰ عِبَادِهِ، الَّتِي يَحُجُّهُمْ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حُجَّةُ: «**المِيْثَاقِ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ: فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: بَعْضاً عَلَىٰ بَعْضٍ، عَلَىٰ وُحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَقَطَعَ بِهِ أَعْذَارَهُمْ، وَحَذَّرَهُم مِنَ الغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا، عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، وَمِنْ أَنْ لَا يَفُونَ بِهِ، أَوْ أَنْ يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، وَالأَسْلَافِ عَلَىٰ الضَّلَالِ، وَالشِّرْكِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

* **وَالمَعْنَىٰ**: اذْكُرْ لَهُمُ: «**المِيْثَاقَ**» المَأْخُوذَ مِنْهُمْ: فِيمَا مَضَىٰ لِئَلَّا: يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ بِالغَفْلَةِ عَنْهُ، أَوْ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ.(١)

قُلْتُ: وَالمَفْعُولُ المَحْذُوفُ، هُوَ: «**المِيْثَاقُ**».(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ [البَقَرَةُ: ٨٣].

قُلْتُ: فَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ: «**المِيْثَاقَ**» بِالتَّوْحِيدِ لَهُ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

وَالَّذِي عَلَيهِ أَهْلُ العِلْمِ قَاطِبَةً، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخَذَ مِنَ العِبَادِ، بِأَسْرِهِمْ: «**مِيْثَاقًا قَالِيًا**»، قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا بِهَذَا البُنْيَةِ المَخْصُوصَةِ.(٣)

* **وَهَذِهِ الآيَةُ**: فِيهَا الاحْتِجَاجُ عَلَىٰ الخَلْقِ؛ بِتَذْكِيرِ: «**المِيْثَاقِ**» العَامِّ المُنْتَظِمِ قَاطِبَةً.

---

(١) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠)، وَ«فَتْحَ القَدِيرِ الجَامِعِ بَيْنَ، فَنِّيِّ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ، مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢ و١٥٣)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٣)، وَ«إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَىٰ مَزَايَا القُرْآنِ الكَرِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩ و٢٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص٢٣٠ و٢٣١)، وَ«جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٥٧ و٥٥٨)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلسَّمْعَانِيِّ (ج٢ ص٢٣١)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٦٥)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

(٢) وَانْظُرْ: «البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٣).

(٣) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٧)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

* **وَفِيهَا**: الإِجْمَالُ عَلَىٰ التَّنْبِيهِ عَلَىٰ أَنَّ: «**المِيْثَاقَ**» قَدْ أُخِذَ مِنْهُمْ: وَهُمْ في أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَلَمْ يُسْتَوْدَعُوا في أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ بَعْدُ.

* وَأَشْهَدَ اللهُ تَعَالَىٰ كُلَّ نَفْسٍ مِنْ أُوْلَئِكَ الذُّرِّيَّاتِ المَأْخُوذِيْنَ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ عَلَىٰ نَفْسِهَا، لَا عَلَىٰ غَيْرِهَا؛ **تَقْرِيراً**: لَهُمْ، بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ التَّامَّةِ، وَمَا تَسْتَتْبِعُهُ مِنَ العُبُودِيَّةِ عَلَىٰ الاخْتِصَاصِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِهَا.

* **قَالُوا**: بَلَىٰ شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا، وَإِلَهُنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ.

* لِئَلَّا تَقُولُوا أَيُّهَا المُقَلِّدَةُ لِلْآبَاءِ، يَوْمَ القِيَامَةِ، عِنْدَ ظُهُورِ الأَمْرِ: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾؛ عَنْ هَذَا، أَيْ: عَنْ وُحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَحْكَامِهَا: ﴿غَافِلِينَ﴾.

* فَإِنَّهُمْ حَيْثُ جُبِلُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، **فَصَارُوا**: مَحْجُوجِيْنَ، عَاجِزِينَ عَنِ الاعْتِذَارِ بِذَلِكَ، إِذْ لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَىٰ إِنْكَارِ مَا ذُكِرَ مِنْ خَلْقِهِمْ عَلَىٰ فِطْرَةِ الرُّبُوبِيَّةِ.

* **فَقَالُوا**: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ مِنْ آبَائِنَا المُضِلِّيْنَ، بَعْدَ مَا ظَهَرَ أَنَّهُمْ: مُجْرِمُونَ، لِأَنَّهُمْ رَبُّوهُمْ عَلَىٰ البَاطِلِ في الدِّيْنِ، فَكَانَ الأَمْرُ الأَخِيرُ، أَنَّ الآبَاءَ، وَالأَوْلَادَ، يَوْمَ القِيَامَةِ؛ **هُمْ**: أَعْدَاءٌ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَبَّهَهُمْ عَنْ ذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**» في عَالَمِ الغَيْبِ، وَفي دَارِ التَّكْلِيفِ مَرَّةً ثَانِيَةً، **وَهُمْ**: في قِوَىٰ العَقْلِ، وَالإِدْرَاكِ، وَالعِلْمِ.[1]

---

(١) وَانْظُرْ: «إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَىٰ مَزَايَا القُرْآنِ الكَرِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩ و٢٩٠ و٢٩١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص٢٣٠ و٢٣١)، وَ«مَحَاسِنَ التَّأْوِيلِ» لِلقَاسِمِيِّ (ج٧ ص٢٩٣)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١١)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٨٨ و٤٩٠)، =

* **فَقَوْلُهُمْ**: «**بَلَىٰ**»، إِقْرَارٌ مِنْهُمْ؛ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّهُمْ، **لِأَنَّ تَقْدِيرَهُ**: أَنْتَ رَبُّنَا، فَإِنَّ: «**بَلَىٰ**» بَعْدَ التَّقْرِيرِ: تَقْتَضِي الإِثْبَاتَ.

* **بِخِلَافِ**: «**نَعَمْ**»، فَإِنَّهَا إِذَا وَرَدَتْ بَعْدَ الاسْتِفْهَامِ: تَقْتَضِي الإِيْجَابَ، وَإِذَا وَرَدَتْ بَعْدَ التَّقْرِيرِ: تَقْتَضِي النَّفْيَ.(١)

* **وَأَمَّا قَوْلُهُمْ**: شَهِدْنَا؛ فَمَعْنَاهُ: شَهِدْنَا بِرُبُوبِيَّتِكَ، فَهُوَ تَحْقِيقٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَدَاءٌ لِشَهَادَتِهِمْ بِذَلِكَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.(٢)

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ **قَالَ، فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ **الآيَةُ، قَالَ: جَمَعَهُمْ فَجَعَلَهُمْ أَرْوَاحًا، ثُمَّ صَوَّرَهُمْ فَاسْتَنْطَقَهُمْ، فَتَكَلَّمُوا، ثُمَّ أَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ وَالمِيثَاقَ**: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ **قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ، وَأُشْهِدُ عَلَيْكُمْ أَبَاكُمْ آدَمَ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَمْ نَعْلَمْ بِهَذَا، اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرِي، وَلَا رَبَّ غَيْرِي، فَلا تُشْرِكُوا بِي شَيْئًا،**

=

وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لَهُ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١١)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

(١) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص ٢٣١).

(٢) انْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص ٢٣١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١٢).

إِنِّي سَأُرْسِلُ إِلَيْكُمْ رُسُلِي، يُذَكِّرُونَكُمْ عَهْدِي وَمِيثَاقِي، وَأُنْزِلُ عَلَيْكُمْ كُتُبِي، قَالُوا: شَهِدْنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا وَإِلَهُنَا، لا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ).

أَثَرٌ حَسَنٌ؛ بِهَذَا اللَّفْظِ فَقَطْ

أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ في «زَوَائِدِ المُسْنَدِ» (ج٣٥ ص١٥٥)، وَابْنُ مَنْدَه في «الرَّدِّ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ» (٣٠)، و(٣٣)، وَالطَّبَرِيُّ في «جَامِعِ البَيَانِ» (ج١٠ ص٥٥٧ و٥٥٨)، وَالبَيْهَقِيُّ في «الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (٧٨٥)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٧ ص٤٦٦ و٤٦٧)، وَالحَاكِمُ في «المُسْتَدْرَكِ» (ج٢ ص٣٥٤)، وَالآجُرِّيُّ في «الشَّرِيعَةِ» (ص٢٠٧)، وَابْنُ عَبْدِ البَرِّ في «التَّقَصِّي» (ص٣٠٧)، وَفي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٩٢)، وَاللَّالَكَائِيُّ في «الاعْتِقَادِ» (ج٣ ص٦١٨)، وَابْنُ عَسَاكِرَ في «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (ج٧ ص٣٩٦)، وَضِيَاءُ الدِّيْنِ المَقْدِسِيُّ في «الأَحَادِيثِ المُخْتَارَةِ» (ج٣ ص٣٦٥)، وَعَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٦ ص٦٥٥-الدُّرُّ المَنْثُورُ)، وَالدُّوْلَابِيُّ في «الكُنَىٰ وَالأَسْمَاءِ» (ج٢ ص٨٩)، وَابْنُ الجَوْزِيِّ في «الحَدَائِقِ» (ج١ ص٨٩) مِنْ طَرِيقِ أَبِي جَعْفَرٍ الرَّازِيِّ، وَسُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ، كِلَاهُمَا: عَنِ الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ عَنْ رَفِيعٍ أَبِي العَالِيَةِ عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ ﷺ بِهِ.

قُلْتُ: وَهَذَا سَنَدُهُ حَسَنٌ، وَهُوَ مَوْقُوفٌ، وَلَكِنَّهُ فِي حُكْمِ الرَّفْعِ، لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ: مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ.(١)

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٥٧): «وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ».

وَأَوْرَدَهُ الهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (ج٧ ص٢٥)؛ ثُمَّ قَالَ: «رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بنُ أَحْمَدَ، عَنْ شَيْخِهِ: مُحَمَّدِ بنِ يَعْقُوبَ (٢)، وَهُوَ: «مَسْتُورٌ»، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ رِجَالُ الصَّحِيحِ».

وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي «الدُّرِّ المَنْثُورِ» (ج٦ ص٦٥٥)، وَابْنُ كَثِيرٍ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٦٣).

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو المُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٣١): (وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ: مُقِرُّونَ، بِيَوْمِ **المِيْثَاقِ**). اهـ

* إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْرَجَ جَمِيعَ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِ الآبَاءِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِلِسَانِ المَقَالِ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢].

---

(١) **قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٥٩)**: (الآثَارُ فِي إِخْرَاجِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ... لاَ سَبِيلَ إِلَىٰ رَدِّهَا، وَإِنْكَارِهَا، وَيَكْفِي وُصُولِهَا إِلَىٰ التَّابِعِينَ، فَكَيْفَ بالصَّحَابَةِ؟ وَمَثْلُهَا: لاَ يُقَالُ بالرَّأْيِ والتَّخْمِينِ). اهـ

(٢) وَقَدْ تُوْبِعَ فِي إِسْنَادِهِ.

* ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ، بَعْدَ ذَلِكَ: الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مُذَكِّرَةً بِذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**» الَّذِي نَسِيَهُ الكُلُّ، وَلَمْ يُوْلَدْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ ذَاكِرٌ لَهُ، وَإِخْبَارُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِهِ، يَحْصُلُ بِهِ اليَقِينُ بِوُجُودِهِ.

* فَاللهُ تَعَالَىٰ أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا: بَلَىٰ، فَاسْتَجَابُوا للهِ تَعَالَىٰ، وَاعْتَرَفُوا، وَأَقَرُّوا، بِأَنَّهُ هُوَ الإِلَهُ المَعْبُودُ بِحَقٍّ.

* فَأَهْلُ الجَنَّةِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَأَهْلُ النَّارِ مُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

* فَشَهِدُوا عَلَىٰ وَجْهِ الخَبَرِ عَنِ الغَيْبِ، وَهَذَا عَلَىٰ وَجْهِ الخِطَابِ مِنَ الشُّهُودِ، لِلمَشْهُودِ عَلَيْهِمْ.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٩].

قُلْتُ: فَقَرَّرَهُمْ بِأَنَّهُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُمُ: العَبِيدُ، وَأَخَذَ عُهُودَهُمْ، وَمَوَاثِيْقَهُمْ.

---

(١) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٦٢ و٥٦٤ و٥٦٥)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ أَبِي حَاتِمٍ (ج٥ ص١٦١٤)، وَ«المُحَرَّرَ الوَجِيزَ» لِابنِ عَطِيَّةَ (ج٤ ص٨٦)، وَ«الكَشْفَ وَالبَيَانَ» لِلثَّعْلَبِيِّ (ج٨ ص٢٣٩)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٤ ص١٣٣)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٦٥ و٤٩٠)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لَهُ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«الإِبَانَةَ الكُبْرَىٰ» لِابنِ بَطَّةَ (ج٣ ص٣١٢)، وَ«مِرْقَاةَ المَفَاتِيحِ فِي شَرْحِ مِشْكَاةِ المَصَابِيحِ» لِلقَارِيِّ (ج١ ص١٦٠ و١٦١)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٣ ص٥٠٦)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٦ ص٦٥٥)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٥ و٨٦)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ، وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ مُبْتَدَأٌ: خَبَرُهُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، عَمَّا كَانَ مِنْهُ فِي أَخْذِ العَهْدِ عَلَيْهِمْ، وَإِذْ يَقْتَضِي جَوَابًا، يُجْعَلُ جَوَابُهُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، وَانْقَطَعَ هَذَا الخَبَرُ، بِتَمَامِ قِصَّتِهِ.

* ثُمَّ ابْتَدَأَ عَزَّ وَجَلَّ، خَبَراً آخَرَ، بِذِكْرِ مَا يَقُولُهُ: المُشْرِكُونَ، يَوْمَ القِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿شَهِدْنَا﴾؛ يَعْنِي: نَشْهَدُ.

* **بِمَعْنَىٰ**: يَشْهَدُ، يَقُولُ تَعَالَىٰ: نَشْهَدُ أَنَّكُمْ سَتَقُولُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الحِسَابِ، وَالمُنَاقَشَةِ، وَالمُؤَاخَذَةِ بِالكُفْرِ.

ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ خَبَراً آخَرَ، فَقَالَ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ بِمَعْنَىٰ: وَأَنْ تَقُولُوا؛ لِأَنَّ: ﴿أَوْ﴾؛ بِمَعْنَىٰ: وَاوِ النَّسَقِ، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإِنْسَانُ:٢٤]، فَتَأْوِيلُهُ: وَنَشْهَدُ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: أَنَّهُمْ أَشْرَكُوا، وَحَمَلُونَا عَلَىٰ مَذْهَبِهِمْ فِي الشِّرْكِ فِي صِبَانَا، فَجَرَيْنَا عَلَىٰ مَذَاهِبِهِمْ، وَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ؛ فَلَا ذَنْبَ لَنَا إِذْ كُنَّا مُقْتَدِينَ بِهِمْ، وَالذَّنْبُ فِي ذَلِكَ لَهُمْ، كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٣]؛ يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أَيْ: حَمْلِهِمْ إِيَّانَا عَلَىٰ الشِّرْكِ.

فَتَكُونُ القِصَّةُ الأُوْلَىٰ: خَبَراً عَنْ جَمِيعِ المَخْلُوقِينَ بِأَخْذِ: «المِيْثَاقِ» عَلَيْهِمْ، **وَالقِصَّةُ الثَّانِيَةُ**: خَبَراً عَمَّا يَقُولُ المُشْرِكُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الاعْتِذَارِ.(١)

---

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٩٦)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لَهُ (ج٢ ص٥٦٢).

قَالَ الإِمَامُ إِسْحَاقُ بنُ رَاهُوْيَه رَحِمَهُ اللهُ: (فَقَدْ كَانُوا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ مُقِرِّيْنَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَاللهُ تَعَالَىٰ لَا يُخَاطِبُ؛ إِلَّا مَنْ يَفْهَمْ عَنْهُ المُخَاطَبَةَ، وَلَا يُجِيبُ؛ إِلَّا مَنْ فَهِمَ السُّؤَالَ، فَإِجَابَتُهُمْ إِيَّاهُ بِقَوْلِهِمْ: دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ فَهِمُوا عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَقِلُوا عَنْهُ، اسْتِشْهَادُهُ إِيَّاهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ فَأَجَابُوهُ مِنْ بَعْدِ عَقْلٍ مِنْهُمْ؛ لِلمُخَاطَبَةِ، وَفَهْمٍ لَهَا بِأَنْ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ فَأَقَرُّوْا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ)[1]. اهـ

قُلْتُ: فَكُلُّ آدَمِيٍّ قَدْ أَقَرَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، هُوَ: رَبُّهُ، وَأَنَّ هَذَا الآدَمِيَّ، هُوَ عَبْدٌ للهِ تَعَالَىٰ.[2]

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «التَّمْهِيدِ»** (ج١٨ ص٩٠): (وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَىٰ الفِطْرَةِ المَذْكُورَةِ فِي المَوْلُودِينَ، مَا أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنَ: «**المِيثَاقِ**»، قَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا يَوْمَ اسْتَخْرَجَ ذَرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَخَاطَبَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَأَقَرُّوا جَمِيعًا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ مَخْلُوقِينَ، مَطْبُوعِينَ عَلَىٰ تِلْكَ المَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ الإِقْرَارِ.

* **قَالُوا**: وَلَيْسَتْ تِلْكَ المَعْرِفَةُ، وَلَا ذَلِكَ الإِقْرَارُ بِإِيمَانٍ؛ وَلَكِنَّهُ إِقْرَارٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ لِلرَّبِّ، فِطْرَةٌ أَلْزَمَهَا قُلُوبَهُمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ الِاعْتِرَافِ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالخُضُوعِ؛ تَصْدِيقًا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،

---

(١) نَقَلَهُ عَنْهُ ابنُ القَيِّمِ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٦٥).

(٢) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج٦ ص٥٦٥)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

فَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ، وَجَحَدَ بَعْدَ المَعْرِفَةِ، وَهُوَ بِهِ عَارِفٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ اللهُ تَعَالَىٰ لِيَدْعُوَ خَلْقَهُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِهِ، وَهُوَ لَمْ يُعَرِّفْهُمْ نَفْسَهُ، إِذْ كَانَ يَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ كَلَّفَهُمُ الإِيمَانَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ.

* **قَالُوا**: وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٣): (مَثَّلَ تَعَالَىٰ: خَلْقَهُمْ عَلَىٰ فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، شَاهِدِينَ: بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، شَهَادَةً لَا يُخَالِجُهَا رَيْبٌ.

* بِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ الاعْتِرَافِ بِهَا بِطَرِيقِ الأَمْرِ، وَمُسَارَعَتِهِمْ إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَلَعْثُمٍ أَصْلاً.

* **وَالقَصْدُ مِنَ الآيَةِ**: الاحْتِجَاجُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، مَعْرِفَةً فِطْرِيَّةً، لَازِمَةً لَهُمْ لِزُومِ الإِقْرَارِ مِنْهُمْ، وَالشَّهَادَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠] ، وَالفِطْرَةُ: هِيَ مَعْرِفَةُ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ). اهـ

* فَإِنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَأُخْرِجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ قَالُوا بَلَىٰ: طَائِعِينَ.

فَهَذَا الآيَةُ: تَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ التَّقْلِيدِ فِي الدِّيْنِ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَزَالَ العُذْرَ، وَأَزَاحَ العِلَّةَ، وَبَعْدَهَا لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ إِذَا وَقَعَ فِي الشِّرْكِ، وَالضَّلَالِ.(١)

قَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٧): (اسْتُدِلَّ: بِهَذِهِ الآيَةِ، وَالأَحَادِيثِ المُتَقَدِّمَةِ فِي مَعْنَاهُ، أَنَّ مَعْرِفَتَهُ تَعَالَىٰ: فِطْرِيَّةٌ، ضَرُورِيَّةٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٨٦ و٨٧]). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١١): (كَوْنُ النَّاسِ: تَكَلَّمُوا حِيْنَئِذٍ، وَأَقَرُّوا بِالإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا تَقُومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٩٠): (أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ

---

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٣١١)، وَ«البُرْهَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلزَّرْكَشِيِّ (ج٢ ص٧٦)، وَ«لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٢)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُم مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ، وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتِ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا الشِّرْكُ الَّذِي يُؤَاخَذُونَ بِهِ يَكُونُ مِنْ آبَائِهِمْ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ، لِثُبُوتِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**العَهْدِ**».(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٢): (وَهَذَا الإِشْهَادُ؛ مُقِرُّونَ بِأَخْذِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، وَهَذَا الأَخْذُ المَعْلُومُ المَشْهُودُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ؛ هُوَ: أَخْذُ المَنِيِّ مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَنُزُولُهُ فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا الأُمَّهَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ وَهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِدِينِ آبَائِهِمْ، لَا لِدِينِ الأُمَّهَاتِ، كَمَا

---

(١) وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«شِفَاءَ العَلِيلِ» لَهُ (ص١٩٥)، وَ«الرُّوحَ» لَهُ أَيْضًا (ج٢ ص٤٨٨)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٣)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلسَّمْعَانِيِّ (ج٢ ص٢٣١)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١٢)، وَ«لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٠ و٦١٢)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٢)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤)، وَ«نَوَادِرَ الأُصُولِ» لِلْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ (ج١ ص٣١٠)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٩)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٢]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٤]؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: اذْكُرْ حِينَ أُخِذُوا مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، فَخُلِقُوا حِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، مُقِرِّينَ بِالخَالِقِ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّهُمْ، فَهَذَا الإِقْرَارُ: حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ، فَأَخْذُهُمْ يَتَضَمَّنُ: خَلْقَهُمْ، وَالإِشْهَادُ يَتَضَمَّنُ: هُدَاهُ لَهُمْ إِلَىٰ هَذَا الإِقْرَارِ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ، فَهَذَا الإِشْهَادُ مِنْ لَوَازِمِ الإِنْسَانِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، شَاهِدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَاللهُ تَعَالَىٰ خَالِقُهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِبَنِي آدَمَ، لَا يَنْفِكُّ مِنْهُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ مِمَّا جُبِلُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ، لَا يُمْكِنُ أَحَدًا جَحْدُهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾؛ أَيْ: كَرَاهِيَةَ أَنْ تَقُولُوا، أَوْ؛ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَنْ هَذَا الإِقْرَارِ للهِ تَعَالَىٰ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَعَلَىٰ نُفُوسِنَا بِالعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ هَذَا، بَلْ كَانَ هَذَا مِنَ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمُ الَّتِي لَمْ يَخْلُ مِنْهَا بَشَرٌ قَطُّ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً، وَلَكِنْ قَدْ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ عُلُومِ العَدَدِ، وَالحِسَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ: فَإِنَّهَا إِذَا تَصَوَّرَتْ كَانَتْ عُلُومًا ضَرُورِيَّةً، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ غَافِلٌ عَنْهَا.

وَأَمَّا الِاعْتِرَافُ بِالخَالِقِ: فَإِنَّهُ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَازِمٌ لِلإِنْسَانِ، لَا يَغْفُلُ عَنْهُ أَحَدٌ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَهُ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَسِيَهُ.

* وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ التَّعْرِيفُ بِذَلِكَ: تَذْكِيرًا، فَإِنَّهُ تَذْكِيرٌ بِعُلُومٍ فِطْرِيَّةٍ ضَرُورِيَّةٍ، وَقَدْ يَنْسَاهَا العَبْدُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحَشْرُ: ١٩]، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يَقُولُ اللهُ؛ لِلكَافِرِ: فَاليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**»(١). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الرُّوْحِ»** (ج٢ ص٤٨٨): (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ: وَنَظِيرَتُهَا فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ، بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**» فِيهَا أَهْلَ الكِتَابِ، فَإِنَّهُ: «**مِيثَاقٌ**» أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الأَعْرَافِ فِي سُوْرَةٍ مَكِّيَّةٍ؛ ذَكَرَ فِيهَا: «**المِيثَاقَ**»، وَ«**الإِشْهَادَ العَامَّ**»: لِجَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرَّ بِرُبوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ «**مِيثَاقٌ**»: وَ«**إِشْهَادٌ**» تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ العُذْرُ، وَتَحِلُّ بِهِ العُقُوبَةُ، وَيُسْتَحَقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الإِهْلَاكُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، عَارِفِينَ بِهِ؛ وَذَلِكَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُ، وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ.

*** وَنَظْمُ الآيَةِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:**

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: آدَمَ، وَبَنُو آدَمَ غَيْرُ آدَمَ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٨٢٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج٤ ص٥٣٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ، أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: ذُرِّيَّتَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهَا.

الخَامِسُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ: بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

السَّادِسُ: تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ، وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتَ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

السَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ وَالإِشْهَادِ: **إِحْدَاهُمَا**: أَنْ لَا يَدَّعُوا الغَفْلَةَ، **وَالثَّانِيَةُ**: أَنْ لَا يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ؛ فَالغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ.

الثَّامِنُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أَيْ: لَو عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ، وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ، فَلَو أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِم فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم بِالرُّسُلِ؛ لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا

فَعَلَ المُبْطِلُونَ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ، وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الأَعْذَارِ، وَالإِنْذَارِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كَلَّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]؛ أَيْ: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ بَعْدَ هَذَا الإِقْرَارِ مِنْهُمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ؛ فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ:١٠].

* فَاللهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا ذَكَّرَهُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِهَذَا الإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُمْ قَطُّ بِإِقْرَارٍ سَابِقٍ عَلَىٰ إِيْجَادِهِمْ، وَلَا أَقَامَ بِهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةً.

العَاشِرُ: أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدِّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأَنْعَامُ:٥٥]؛ أَيْ: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيْمَانِ.

* وَهَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي فَصَّلَهَا هِيَ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَهِيَ آيَاتٌ أَفَقِيَّةٌ(١)، **وَنَفْسِيَّةٌ**، آيَاتٌ فِي نُفُوسِهِمْ، وَذَوَاتِهِمْ، وَخَلْقِهِمْ، وَآيَاتٌ فِي الأَقْطَارِ وَالنَّوَاحِي مِمَّا يُحْدِثُهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَعَلَىٰ المَعَادِ وَالقِيَامَةِ، **وَمِنْ أَبْيَنِهَا**: مَا أَشْهَدَ بِهِ كَلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ، مِنْ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَخَالِقُهُ، وَمُبْدِعُهُ، وَأَنَّهُ مَرْبُوبٌ مَصْنُوعٌ مَخْلُوقٌ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ حَدَثَ بِلَا مُحْدِثٍ، أَوْ يَكُونَ هُوَ المُحْدِثَ لِنَفْسِهِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوْجِدٍ أَوْجَدَهُ لَيْسَ هُوَ كَمْثِلِهِ.

وَهَذَا الإِقْرَارُ وَالشَّهَادَةُ: فِطْرَةٌ فُطِرُوا عَلَيْهَا لَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ.

وَهَذِهِ الآيَةُ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾(٢) [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، مُطَابِقَةٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»(٣)، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠-٣١]). اهـ

---

(١) **بِفَتْحِ أَوَّلِهِ، وَثَانِيهِ؛ قَالَ اللُّغَوِيُّ ابنُ السِّكِّيْتِ فِي «إِصْلَاحِ المَنْطِقِ»** (ص١٣٢): (رَجُلٌ أَفَقِيٌّ، إِذَا أَضَفْتَهُ إِلَىٰ الآفَاقِ. وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: أُفُقِيٌّ). اهـ

(٢) الآيَةُ وَرَدَتْ كَذَا فِي النُّسَخِ عَلَىٰ قِرَاءَةِ: أَبِي عَمْرٍو، وَبِهَا قَرَأَ: نَافِعُ، وَابنُ عَامِرٍ أَيْضًا.

وانْظُرْ: «حُجَّةِ القِرَاءَاتِ» لابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠١ و٣٠٢)، و«زَادَ المَسِيرِ» لابنِ الجَوْزِيِّ (ج٣ ص٢٨٤).

(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٨٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَبِلَفْظٍ آخَرَ عَنْهُ؛ عِنْدَ البُخَارِيِّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٨)، وَمُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ قِيْلَ: بَدَلٌ مِنْ: «**بَنِي آدَمَ**»؛ بَدَلُ البَعْضِ مِنَ الكُلِّ، بِتَكْرِيرِ الجَارِّ، أَوْ بِإِعَادَةِ الجَارِّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ﴾ [الأَعْرَافُ:٧٥]؛ **وَالمَعْنَىٰ:** أَخَذُ ذُرِّيَّاتِهِمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ، إِخْرَاجُهُمْ مِنْ أَصْلَابِهِمْ نَسْلاً، وَإِشْهَادُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، **فَيَكُونُ المَعْنَىٰ:** وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ.

* **وَقِيلَ:** بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَبَدَلُ الاشْتِمَالِ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ المُبْدَلِ مِنْهُ مُلَابَسَةٌ؛ بِحَيْثُ تُوْجِبُ النِّسْبَةَ إِلَىٰ المَتْبُوعِ، النِّسْبَةَ إِلَىٰ التَّابِعِ إِجْمَالاً.

نَحْوَ: «**أَعْجَبَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ**».

فَإِنَّهُ يُعْلَمُ ابْتِدَاءً، أَنَّ زَيْداً مُعْجَبٌ بِاعْتِبَارِ صِفَاتِهِ، لَا بِاعْتِبَارِ ذَاتِهِ، وَتَتَضَمَّنُ نِسْبَةُ: الإِعْجَابِ إِلَيْهِ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ إِجْمَالاً.

* **وَنِسْبَةُ الأَخْذِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَىٰ:** الإِخْرَاجِ هُنَا، إِلَىٰ بَنِي آدَمَ نِسْبَةٌ إِلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِجْمَالاً[1]، لِأَنَّهُ يُعْلَمُ أَنَّ بَنِي آدَمَ لَيْسُوا مَأْخُوذِينَ بِاعْتِبَارِ ذَوَاتِهِمْ، بَلْ بِاعْتِبَارِ أَجْسَادِهِمْ، وَأَعْضَائِهِمْ، وَتَتَضَمَّنُ نِسْبَةُ الأَخْذِ إِلَيْهِمْ نِسْبَتُهُ إِلَىٰ أَعْضَائِهِمْ إِجْمَالاً.[2]

---

(١) وَهَذَا فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَىٰ أَنَّ: «**المِيْثَاقَ**» قَدْ أُخِذَ مِنْهُمْ، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَلَمْ يُسْتَوْدَعُوا فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ.

(٢) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٤)، وَ«التِّبْيَانَ فِي إِعْرَابِ القُرْآنِ» لِلعُكْبُرِيِّ (ج١ ص٦٠٢)، وَ«مُشْكِلَ إِعْرَابِ القُرْآنِ» لِمَكِّيٍّ (ج١ ص٣٠٦)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٨٩)، وَ«إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩)، وَ«فَتْحَ القَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٣٩)، وَ«الجَامِعَ لِأَحْكَامِ القُرْآنِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٧ ص٣١٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ المُرَادُ: أَوْلَادُهُمْ عَلَىٰ العُمُومِ.

قُلْتُ: فَنَصْبُ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمَا نُبِّهُوا عَلَيهِ، قَائِمٌ مَعَهُمْ، فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي الإِعْرَاضِ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَالإِقْبَالِ عَلَىٰ الشِّرْكِ بِالتَّقْلِيدِ، وَالاقْتِدَاءِ بِالآبَاءِ، كَمَا لَا عُذْرَ لِآبَائِهِمْ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

* **وَالمَعْنَىٰ**: أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ هَذَا الإِشْهَادِ أَنْ لَا يَقُولَ: الكُفَّارُ إِنَّمَا أَشْرَكْنَا، لِأَنَّ آبَاءَنَا أَشْرَكُوا، فَقَلَّدْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الشِّرْكِ.

قُلْتُ: **وَالحَاصِلُ**؛ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمْ: «**المِيْثَاقَ**»، امْتَنَعَ عَلَيْهِمُ التَّمَسُّكُ بِهَذَا القَدْرِ مِنَ الأَعْذَارِ البَاطِلَةِ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٣)**: (وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّاتِ بَنِي آدَمَ: **مِيْثَاقَ التَّوْحِيدِ للهِ تَعَالَىٰ**، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ). اهـ

* حَتَّىٰ يَجِبُ كَوْنَ ذَلِكَ الإِشْهَادَ، وَالشَّهَادَةَ، مَحْفُوظًا لَهُمْ فِي إِلْزَامِهِمْ، بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**».

وَالمَعْنَىٰ: فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا مِنَ الأَمْرِ بِذِكْرِ: «**المِيْثَاقِ**»، وَبَيَانِهِ كَرَاهَةً، أَنْ تَقُوْلُوا، أَوْ لِئَلَّا تَقُوْلُوا: أَيُّهَا الكَفَرَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «**إِنَّا كُنَّا غَافِلِينَ**»، عَنْ ذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**»، لَمْ نُنَبَّهْ عَلَيهِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، وَإِلَّا لَعَمِلْنَا بِمُوْجِبِهِ، هَذَا عَلَىٰ قِرَاءَةِ الجُمْهُورِ.[1]

---

(١) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠).

قَالَ الإِمَامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «البُرْهَانِ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٧٦)؛ عَنِ الآيَاتِ**: (إِقَامَةُ الحُجَّةِ بِهَا عَلَيْهِمْ(١)؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، وَلُغَتِهِمْ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٨٨)**: (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَنَظِيرَتُهَا، فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ: خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ، بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**»؛ فِيهَا: أَهْلَ الكِتَابِ، فَإِنَّهُ: «**مِيثَاقٌ**» أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ.

* وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الأَعْرَافِ فِي سُوْرَةٍ مَكِّيَّةٍ؛ ذَكَرَ فِيهَا: «**المِيثَاقَ**»، وَ«**الإِشْهَادَ العَامَّ**»: لِجَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرَّ بِرُبوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ: «**مِيثَاقٌ**»، وَ«**إِشْهَادٌ**» تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ العُذْرُ، وَتَحِلُّ بِهِ العُقُوبَةُ، وَيُسْتَحَقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الإِهْلَاكُ.

* فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، عَارِفِينَ بِهِ؛ وَذَلِكَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُ، وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ). اهـ

قُلْتُ: فَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَوْضَحَ الدَّلَائِلَ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقَ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِيْمَا أَخْبَرُوا بِهِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضـًا لِلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُ الحُجَّةُ، وَنِسْيَانُهُ، وَعَدَمُ حِفْظِهِ، لَا يُسْقِطُ الاحْتِجَاجَ بَعْدَ إِخْبَارِ المُخْبِرِ الصَّادِقِ.

---

(١) **يَعْنِي**: العَرَبَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٣)**: (وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الآيَةَ، مَسُوقَةٌ: **لِبَيَانِ أَخْذِ مِيْثَاقٍ سَابِقٍ**، مِنْ جَمِيعِ الخَلْقِ: مُؤْمِنِهِمْ، وَكَافِرِهِمْ، قَبْلَ هَذِهِ النَّشْأَةِ، بِمَا هُوَ أَهَمُّ: الأُمُورِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٣)**: (القَوْمُ إِذْ ذَاكَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالرُّبُوبِيَّةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٧)**: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾؛ فِي ذَلِكَ يَوْمَ: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ أَيْ: إِنَّ آبَاءَنَا هُمْ: اخْتَرَعُوا الإِشْرَاكَ، وَهُمْ: سَنُّوْهُ مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا: ﴿وَكُنَّا﴾؛ نَحْنُ: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ لَا نَهْتَدِي إِلَىٰ سَبِيلِ التَّوْحِيدِ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾؛ أَيْ: أَتُؤَاخِذُنَا، فَتُهْلِكُنَا اليَوْمَ بِالعَذَابِ: ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ مِنْ آبَائِنَا المُضِلِّيْنَ). اهـ

قُلْتُ: وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنَ القُرْآنِ، إِنْكَارُ اللهِ تَعَالَىٰ، عَلَىٰ مَنِ الْتَزَمَ اتِّبَاعَ الغَيْرِ عَلَىٰ؛ أَيِّ: حَالٍ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَةُ: ١٧٠].

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٠)**: (وَمَعْنَىٰ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ عَلَىٰ هَذَا التَّفْسِيرِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ؛ لِلذُّرِّيَّةِ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، فَهُوَ إِيْجَابٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: بَلَىٰ، **يَعْنِي**: قَالَتِ الذُّرِّيَّةُ: بَلَىٰ أَنْتَ رَبُّنَا، فَهُوَ جَوَابٌ مِنْهُمْ: لَهُ، وَإِقْرَارٌ مِنْهُمْ: لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَاعْتِرَافٌ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالعُبُودِيَّةِ: ﴿شَهِدْنَا﴾). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٢)**: (وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾؛ **يَعْنِي**: الذُّرِّيَّةَ، ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾؛ **يَعْنِي**: إِنَّمَا أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**»

عَلَيْهِمْ لِئَلَّا يَقُولُ المُشْرِكُونَ: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **يَعْنِي**: وَكُنَّا أَتْبَاعًا لَهُمْ، فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ فِي الشِّرْكِ، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾؛ **يَعْنِي**: أَفَتُعَذِّبُنَا، ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ **قَالَ المُفَسِّرُونَ**: هَذَا قَطْعٌ لِعُذْرِ الكُفَّارِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الذُّرِّيَّةِ أَنْ يَقُولَ يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُنَا، وَنَقَضُوا: «**العَهْدَ**»، وَ«**المِيْثَاقَ**»، وَكُنَّا نَحْنُ الذُّرِّيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَقَلَّدْنَاهُمْ، وَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ، وَكُنَّا فِي غَفْلَةٍ عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، فَلَا ذَنْبَ لَنَا، فَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَحْتَجُّوا بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا **المِيْثَاقُ**، وَجَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ، وَذَكَّرُوهُمْ بِهِ، وَثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥)**: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: إِنَّا فَعَلْنَا هَذَا مَنْعًا لِاعْتِذَارِكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، بِأَنْ تَقُولُوا إِذَا أَشْرَكْتُمْ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا التَّوْحِيدِ غَافِلِيْنَ، إِذْ لَمْ يُنَبِّهْنَا إِلَيْهِ مُنَبِّهٌ، **وَمَآلُ هَذَا: أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارُ بِالجَهْلِ، لِأَنَّهُمْ نُبِّهُوا بِنَصْبِ الأَدِلَّةِ**، وَجُعِلُوا مُسْتَعِدِّينَ لِتَحْقِيقِ الحَقِّ، وَإِبْعَادِ الشِّرْكِ عَنْ قُلُوبِهِمْ.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: أَوْ تَقُولُوا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ: إِنَّ آبَاءَنَا اخْتَرَعُوا الإِشْرَاكَ، وَسَنُّوهُ مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا، وَكُنَّا جَاهِلِيْنَ بِبُطْلَانِ شِرْكِهِمْ، فَلَمْ يَسَعْنَا؛ إِلَّا الاقْتِدَاءَ بِهِمْ، وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، أَفَتُؤَاخِذُنَا فَتُهْلِكُنَا اليَوْمَ بِالعَذَابِ بِمَا فَعَلَهُ المُبْطِلُونَ مِنْ آبَائِنَا المُضَلِّينَ، فَتَجْعَلَ عَذَابَنَا كَعَذَابِهِمْ، مَعَ عُذْرِنَا بِتَحْسِينِ الظَّنِّ بِهِمْ؟.

وَالخُلَاصَةُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ **لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارَ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ**، إِذِ التَّقْلِيدُ عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا يُرْكَنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي

لِعَاقِلٍ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ، **كَمَا أَنَّ الاعْتِذَارَ بِالجَهْلِ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَيِّنَاتِ الفِطْرِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ؛ مِمَّا لَا يُقْبَلُ.**

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤]؛ أَيْ: وَمِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلَ المُسْتَتْبِعِ لِلمَنَافِعِ الجَلِيْلَةِ، نُفَصِّلُ لِبَنِي آدَمَ الآيَاتِ، وَالدَّلَائِلِ لِيَسْتَعْمِلُوا عُقُوْلَهُمْ فِي التَّبَصُّرِ فِيهَا، وَالتَّدَبُّرِ فِي أَمْرِهَا، **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بِهَا عَنْ جَهْلِهِمْ، وَتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ.**

وَفِي الآيَةِ: إِيْمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ بِعْثَةُ رَسُولٍ، لَا يُعْذَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا بِفِعْلِ الفَوَاحِشِ، وَالمُوْبِقَاتِ الَّتِي تَنْفِرُ مِنْهَا الفِطَرُ السَّلِيمَةِ، وَتُدْرِكُ ضَرَرَهَا العُقُولُ الحَصِيفَةُ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١١٧):** (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: أَوْجَدَهُمْ شَاهِدِينَ بِذَلِكَ، قَائِلِينَ لَهُ حَالًا وَقَالًا، وَالشَّهَادَةُ تَارَةً تَكُونُ بِالقَوْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ [الأَنْعَامِ:١٣٠]؛ الآيَةَ، وَتَارَةً تَكُونُ حَالًا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التَّوْبَةِ:١٧]؛ أَيْ: حَالُهُمْ شَاهِدٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، لَا أَنَّهُمْ قَائِلُونَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العَادِيَاتِ:٧]؛ كَمَا أَنَّ السُّؤَالَ تَارَةً يَكُونُ بِالقَالِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِالحَالِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إِبْرَاهِيمَ:٣٤].

قَالُوا: وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا هَذَا، أَنْ جَعَلَ هَذَا الإِشْهَادَ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ...، وَهَذَا جُعِلَ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَيْهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ الفِطْرَةُ الَّتِي فُطِروا عَلَيْهَا، مِنَ الإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ أَيْ: لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾؛ أَيْ: التَّوْحِيدِ، ﴿غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾؛ الآيَةَ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١١١): (يُخْبِرُ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ: بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

* **كَمَا أَنَّهُ تَعَالَىٰ**: فَطَرَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوم:٣٠]؛ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ: المِلَّةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»). اهـ

* فَيَتَعَيَّنُ حِينَئِذٍ، أَنْ يُرَادَ: «**بِالمِيثَاقِ**» مَا رَكَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِمْ، مِنَ العُقُولِ، وَآتَاهُمْ مِنَ البَصَائِرِ، لِأَنَّهَا: هِيَ الحُجَّةُ البَالِغَةُ، وَالمَانِعَةُ، عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ الإِقْرَارَ، وَالتَّمَكُّنَ، مِنْ مَعْرِفَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ، كَمَا جَعَلَ بَعْثَ الرَّسُولِ ﷺ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِيْمَانِ، بِمَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنَ الغُيُوبِ.[1]

---

(١) انْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٩).

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٣)**: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ: مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّاتِ بَنِي آدَمَ، **مِيْثَاقَ التَّوْحِيدِ للهِ تَعَالَىٰ**، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ زَنْجَلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «حُجَّةِ القِرَاءَاتِ» (ص٣٠٢)**: (أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِحَّةِ التَّوْحِيدِ، إِذْ كَانُوا هُمْ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو المُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٣١)**: (قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ **يَعْنِي**: إِنَّمَا أَخَذْتُ، مَا أَخَذْتُ مِنَ: «**العَهْدِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ**» عَلَيْكُمْ جَمِيعًا؛ لِئَلَّا تَقُوْلُوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **يَعْنِي**: أَنَّ الجِنَايَةَ مِنَ الآبَاءِ، وَكُنَّا أَتْبَاعًا لَهُمْ؛ فَيَجْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً، وَعُذْراً، عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ!). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا النَّصُّ مَسُوقٌ لِإِلْزَامِ الخَلْقِ بِمُقْتَضَىٰ: «**المِيْثَاقِ العَامِّ**» عِنْدَمَا كَانُوا فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ، بَعْدَ إِلْزَامِهِمْ: «**بِالمِيْثَاقِ المَخْصُوصِ**» بِهِمْ، وَالاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِالحُجَجِ السَّمْعِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْعِهِمْ عَنِ التَّقْلِيدِ لِآبَائِهِمْ فِي الشِّرْكِ، وَالبِدَعِ.

* فَتَمَادَىٰ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ فِي الغَيِّ بَعْدَ أَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ، مِنَ: «**المِيْثَاقِ العَامِّ**» فِي عَالَمِ الغَيْبِ، وَمِنَ: «**المِيْثَاقِ الخَاصِّ**» فِي عَالَمِ الحَيَاةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

قَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٤): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ **أَيْ**: أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَئِكَ الذُّرِّيَةِ المَأْخُوذِينَ مِنْ ظُهُوْرِ آبَائِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، لَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، **تَقْرِيراً**: لَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، **قَائِلاً لَهُمْ**: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ **أَيْ**: مَالِكَ أَمْرِكُمْ، وَمُرَبِّيكُمْ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مَدْخَلٌ فِي شَأْنٍ مَنْ شُؤُونِكُمْ: ﴿قَالُوا﴾؛ فِي جَوَابِهِ سُبْحَانَهُ، ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ **أَيْ**: عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، **وَالمُرَادُ**: أَقْرَرْنَا بِذَلِكَ). اهـ

قُلْتُ: وَبَلَىٰ: حَرْفُ جَوَابٍ.

قَالَ الحَافِظُ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٣٤-رُوْحُ المَعَانِي): (إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ، أَصْلٌ: فِي الإِقْرَارِ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٢): **(قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِراً لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، كَمَا تَأْتِي الإِشَارَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ.

* أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

* **تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ**، لِئَلَّا يَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتُ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

* قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الأَخْذِ وَالإِشْهَادِ: أَنْ لَا يَدَّعُوا الغَفْلَةَ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ، فَالغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ، وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَانِ الحِكْمَتَانِ؛ إِلَّا عَلَىٰ مَا قَامَتْ بِهِ الحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالفِطْرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، لَقَالُوا ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَلَوْ أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ القُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الإِعْذَارِ وَالإِنْذَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ.

* أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥].

* فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ:١٠].

* أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةً لِلْعِلْمِ بِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، لَا يُوْلَدُ مَوْلُودٌ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الفِطْرَةِ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ.

* وَلَا شَكَّ أَنَّ الإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَالشِّرْكُ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَنَّ الآبَاءَ أَشْرَكُوا، وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَىٰ عَادَتِهِمْ). اهـ

قُلْتُ: لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الأَمْرِ، وَإِحَاطَةِ العَذَابِ، بِمَنْ أَشْرَكَ؛ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾؛ **أَيْ**: وُحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ: ﴿غَافِلِينَ﴾، لَمْ نُنَبَّهْ عَلَيهِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَسَعْهُمْ هَذَا الاعْتِذَارُ، حِينَئِذٍ عَلَىٰ مَا قِيلَ، لِأَنَّهُمْ: نُبِّهُوا بِنَصْبِ الأَدِلَّةِ، وَجُعِلُوا مُتَهَيِّئِينَ: تَهَيُّأً تَامًّا، لِتَحْقِيقِ الحَقِّ، وَإِنْكَارِ ذَلِكَ: مُكَابَرَةٌ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُمْ، أَنْ يَقُوْلُوا ذَلِكَ.(١)

قَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٠)**: (فَكُلُّ مَنْ بَلَغَ، وَعَقِلَ، فَقَدْ أُخِذَ عَلَيهِ: «**المِيْثَاقُ**»، بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ: «**المِيْثَاقُ**»، وَهُوَ العَقْلُ، وَالتَّكْلِيفُ، فَيَكُونُ مَعْنَىٰ؛ الآيَةِ: وَإِذْ يَأْخُذُ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَيُشْهِدُهُمْ

---

(١) انْظُرْ: «رُوحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٧).

عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِمَا رَكَّبَ فِيْهِمْ مِنَ العَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ: الفَهْمُ، وَالتَّكْلِيفُ الَّذِي بِهِ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ الثَّوَابُ، وَالعِقَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٥): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ **أَيْ**: سَنُّوا الإِشْرَاكَ، وَاخْتَرَعُوهُ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ **أَيْ**: مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **أَيْ**: فَنَشَأْنَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، احْتِجَاجاً بِالتَّقْلِيدِ، وَتَعْوِيلاً عَلَيهِ.

* فَقَدْ قَطَعْنَا العُذْرَ بِمَا بَيَّنَّا مِنَ الآيَاتِ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ **أَيْ**: أَتُؤَاخِذُنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُنَا مِنَ الشِّرْكِ، وَأَسَّسُوا مِنَ البَاطِلِ، أَوْ بِفِعْلِ آبَائِنَا الَّذِينَ أَبْطَلُوا تَأْثِيرَ العُقُولِ، وَأَقْوَالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟؛ وَالاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ؛ أَيْ: أَنْتَ حَكِيمٌ لَا تَأْخُذُ الأَبْنَاءَ، بِفِعْلِ الآبَاءِ، وَقَدْ سَلَكْنَا طَرِيقَهُمْ، وَالحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِمَا شَرَعُوا لَنَا مِنَ البَاطِلِ.

وَالمَعْنَىٰ: أَزَلْنَا الشُّبْهَتَيْنِ بِأَنَّ الإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، هُوَ فِي أَصْلِ فِطْرَتِكُمْ، فَلِمَ لَمْ تَرْجِعُوا إِلَيْهِ، عِنْدَ دَعْوَةِ العُقُولِ، وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟، وَالفِطْرَةُ: أَكْبَرُ دَلِيلٍ، فَهِيَ تَسُدُّ بَابَ الاعْتِذَارِ بِوَجْهٍ مَا، لَا سِيَّمَا وَالتَّقْلِيدُ، عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا مَسَاغَ لَهُ أَصْلاً). اهـ

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَبِي: حُصَيْنٍ: (كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟، قَالَ أَبِي: سَبْعَةً، سِتَّةً فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ!، قَالَ: فَأَيُّهُمْ تُعُدُّ لِرَغْبَتِكَ، وَرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ!).[1]

قَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٨): (فَاللهُ تَعَالَىٰ: فَطَرَ الخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ فِطْرَةَ تَوْحِيدٍ، حَتَّىٰ مَنْ خُلِقَ مَجْنُونًا، مُطْبِقًا، مُصْطَلِمًا، لَا يَفْهَمُ شَيْئًا، مَا يَحْلِفُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَهْلَجُ لِسَانُهُ بِأَكْثَرِ مِنِ اسْمِهِ المُقَدَّسِ، فِطْرَةٌ بَالِغَةٌ). اهـ

قُلْتُ: إِنَّ الإِقْرَارَ، وَالاعْتِرَافَ بِالخَالِقِ سُبْحَانَهُ: فِطْرِيٌّ، ضَرُورِيٌّ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ، وَمَعْرِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ تَحْصُلُ بِالفِطْرَةِ، الضُّرُورِيَّةِ، الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي نُفُوسِ الخَلْقِ مِنْ صِغَرِهِمْ، فَهُمْ: يُوْلَدُونَ عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ.[2]

---

(١) **حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلأُصُولِ فِي الفِطْرَةِ عَلَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ.**

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج٦ ص٩٤)، وَفِي «العِلَلِ الكَبِيرِ» (ج٢ ص٩١٧)، وَالبُخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ الكَبِيرِ» (ج٣ ص١)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (ص٤٢٣ و٤٢٤)، وَابنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّةِ» (٢٣٥٥)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٣٥٥١)، وَالمِزِّيُّ فِي «تَهْذِيبِ الكَمَالِ» (ج١٢ ص٣٦٧ و٣٦٨)، وَالبَزَّارُ فِي «المُسْنَدِ» (٣٥٧٩).

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ».

وَانْظُرْ: «تُحْفَةَ الأَشْرَافِ» لِلمِزِّيِّ (ج٨ ص١٧٥)، و«تَهْذِيبَ الكَمَالِ» لَهُ (ج١٢ ص٣٦٧).

(٢) **وَالفِطْرَةُ**: هِيَ ضَرُورَةٌ مِنْ نَاحِيَةِ العَقْلِ، وَاسْتِدْلَالٍ مِنْ نَاحِيَةِ الحِسِّ.

* فَإِنَّ العَقْلَ السَّلِيمَ مِنَ الآفَةِ، البَرِيءَ مِنَ العَاهَةِ، يَحُثُّ عَلَىٰ الاعْتِرَافِ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

=

قَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥): (وَالخُلَاصَةُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارَ، بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، وَالأَجْدَادِ، إِذِ التَّقْلِيدُ عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا يُرْكَنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ.

* كَمَا أَنَّ الاعْتِذَارَ بِالجَهْلِ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَيِّنَاتِ الفِطْرِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ، مِمَّا لَا يُقْبَلُ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥): (وَفِي الآيَةِ: إِيْمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ، بِعْثَةُ رَسُولٍ، لَا يُعْذَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا بِفِعْلِ الفَوَاحِشِ، وَالمُوْبِقَاتِ، الَّتِي تَنْفِرُ مِنْهَا: الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَتُدْرِكُ ضَرَرَهَا العُقُولُ الحَصِيفَةُ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ البَغْدَادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٢): (**فَقَامَتِ الحُجَّةُ:** عَلَيْهِمْ؛ لِإِمْدَادِهِمْ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَإِعْلَامِهِمْ بِجَرَيَانِ: أَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ.

* وَبِذَلِكَ قَامَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَيْضاً يَوْمَ القِيَامَةِ، لِإِخْبَارِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**» فِي الدُّنْيَا؛ فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً: لَلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُمُ الحُجَّةُ، وَلَمْ تَسْقُطْ الحُجَّةُ عَنْهُمْ بِنِسْيَانِهِمْ، وَعَدَمِ حِفْظِهِمْ بَعْدَ إِخْبَارِ الصَّادِقِ صَاحِبِ الشَّرْعِ، وَالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَاتِ). اهـ

=

* **فَاللهُ تَعَالَىٰ:** مَعْرُوفٌ عِنْدَ العَقْلِ بِالاضْطِرَارِ، لَا رَيْبَ عِنْدَهُ فِي وُجُودِهِ، وَمُسْتَدَلٌّ عَلَيهِ عِنْدَ الحِسِّ.

وَانْظُرْ: «مَحَاسِنَ التَّأْوِيلِ» لِلقَاسِمِيِّ (ج٧ ص٢٩٩).

قُلْتُ: فَقَدَ ثَبَّتَ اللهُ تَعَالَىٰ الحُجَّةَ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ فِي عَالَمِ الغَيْبِ **بِالمِيْثَاقِ وَالفِطْرَةِ فِي الإِجْمَالِ، وَهَذَا المِيْثَاقُ الأَوَّلُ** الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ، وَهُمْ فِي ظُهُورِ آبَائِهِمْ.(١)

* فَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ: «**العَهْدَ**»، وَ«**المِيْثَاقَ**» عَلَىٰ بَنِي آدَمَ جَمِيعاً، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، فَلَا يَكُونُ لَهُمُ العُذْرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، **فِي الإِشْرَاكِ بِاللهِ: جَهْلاً، أَوْ تَقْلِيداً**.

قُلْتُ: جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ: عُقُولاً، يَفْهَمُونَ بِهَا، وَأَلْسِنَةً، يَنْطِقُونَ بِهَا، فَهُمْ: يَعْلَمُونَ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَقَدْ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ: «**بِالمِيْثَاقِ**» يَوْمَ القِيَامَةِ.(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٩]؛ **يَعْنِي**: يَوْمَ أَخَذَ عَلَىٰ الخَلْقِ **المِيْثَاقَ**.(٣)

---

(١) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ص٦١١)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤١).

(٢) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ (ج٢ ص٦١٠)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٤)، وَ«الإِتْقَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٤ ص٢٢٥)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٤)، وَ«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢ و٣٠٣).

(٣) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٦)، وَ«جَامِعِ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٣ ص٢٤٢ و٢٤٣)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٦ ص٦٥٣).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٨ و١٤٩].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **قَالَ: فِي قَوْلِهِ تعالىٰ:** ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٨]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، **ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأَنْعَامُ:١٠٧]؛ **فَإِنَّهُمْ قَالُوا: عِبَادَتُنَا الآلِهَةَ تُقَرِّبُنَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، فَأَخْبَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهَا لا تُقَرِّبُهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ:** ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا﴾، **يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: لَوْ شِئْتُ لَجَمَعْتُهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَجْمَعِينَ).**[1]

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، **فِي حَدِيثِ: «الرُّؤْيَا»، وَهُوَ حَدِيثٌ: طَوِيلٌ، عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: (وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ: فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ**: وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ). وَفِي رِوَايَةٍ: (وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ).**[2]

---

(١) **أَثَرٌ صَحِيحٌ.**

أَخْرَجَهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٥ ص١٤١٢)، وَالطَّبَرِيُّ فِي «جَامِعِ البَيَانِ» (ج٩ ص٦٥٠).

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٠٤٧)، و(١٣٨٦).

وَأَوْرَدَهُ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص١١٨)؛ ثم قَالَ: (وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ، أَوْلَادُ النَّاسِ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ، وَعُمُومُهُ جَمِيعُ النَّاسِ)[1]. اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّذْكِرَةِ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» (ج٣ ص١٠٤٤): (**وَمَنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُشْرِكِينَ**: فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيهِ القَلَمُ، فَلَيْسَ يَكُونُونَ مَعَ آبَائِهِمْ فِي النَّارِ؛ **لِأَنَّهُمْ**: مَاتُوا عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، **وَلَمْ يَنْقُضُوا المِيْثَاقَ**). اهـ

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٢): (أَخَذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ، بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَالْتَزَمُوهُ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ فِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٥): (وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُخَالِفِينَ الرُّسُلَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العَنْكَبُوتُ: ٨]؛ الآيَةَ.

* **فَمَنِ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ**، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الحَقِّ المَعْلُومِ إِلَيْهِ، فَهَذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَةُ: ١٧٠].

---

(١) **يَعْنِي**: أَوْلَادَ المُسْلِمِينَ، وَأَوْلَادَ المُشْرِكِينَ، فَهُمْ: فِي الجَنَّةِ، جَمِيعًا، لِأَنَّهُمْ مَاتُوا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ.

* وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الإِسْلَامِ، **يَتْبَعُ أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِن اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ**، وَإِنْ كَانَ خَطَأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، بَلْ هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ، لَا مُسْلِمَةِ الِاخْتِيَارِ، **وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ؟ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.**

* فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا المَحِلَّ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيَقُمْ للهِ، وَلْيَنْظُرْ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ المَرْءُ أَمْرُ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، **وَالتَّرَائِبُ**: عِظَامُ الصَّدْرِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الخَلَائِقِ). اهـ

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤].

قُلْتُ: فَقَدْ أَقَامَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ، الحُجَّةَ عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ فِي الغَيْبِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ عِنْدَمَا خَرَجُوا إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِمَّنْ بَلَغَ مِنْهُمْ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٤)**: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أَيْ: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ الَّذِي فَصَّلْنَا فِيهِ لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ، نُفَصِّلُ لِلآيَاتِ اللَّاحِقَةِ؛ فَالكُلُّ عَلَىٰ نَمَطٍ وَاحِدٍ فِي التَّفْصِيلِ، وَالتَّوْضِيحِ؛ لِأَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ، وَبَرَاهِينِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ عَنْ شِرْكِهِمْ، وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ، وَعِبَادِهِ، بِذَلِكَ التَّفْصِيلِ وَالتَّوْضِيحِ). اهـ

قُلْتُ: فَمَنْ وَقَعَ فِي: «**الشِّرْكِ الأَكْبَرِ**»، وَهُوَ جَاهِلٌ، قَدْ قَامَتْ عَلَيهِ الحُجَّةُ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**»مَعًا، عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَكَفَىٰ.

* وَأَمَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ **الكُتُبِ** مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، **وَإِرْسَالِ**: الرُّسُلِ إِلَيْهِ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيهِ الحُجَّةُ عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا[1]، بِأَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الكُتُبِ، وَالرُّسُلِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ العِلْمِ النَّافِعِ: **مِنْ أَحْكَامِ التَّوْحِيدِ، وَأَحْكَامِ الصَّلَاةِ، وَأَحْكَامِ الزَّكَاةِ، وَأَحْكَامِ الصِّيَامِ، وَأَحْكَامِ الحَجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ**[2]، **فِي الأُصُولِ وَالفُرُوعِ**، مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ العَبْدُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.[3]

قُلْتُ: لَوْ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَىٰ الخَلْقِ، إِلَّا هَذَا: «**العَهْدُ**»، وَ«**المِيْثَاقُ**»، وَلَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ، لَكَفَىٰ بِذَلِكَ حُجَّةً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِمَا تَضَمَّنَهُ: «**المِيْثَاقُ**» مِنْ إِقْرَارِ الخَلْقِ؛ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

* **فَمَا بَالُكَ**: بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، فَقَدْ أَزَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمُ الاحْتِجَاجَ، بِتَرْكِيبِ العُقُولِ، وَالفَهْمِ فِيهِمْ، وَتَذْكِيرِهِمْ، بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إِلَيْهِمْ، فَقَطَعَ بِذَلِكَ أَعْذَارَهُمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلُ:٣٦].

---

(١) **أَمَّا قِيَامُ الحُجَّةِ ابْتِدَاءً**، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيهِ بِالإِجْمَالِ؛ «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**» مَعًا، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

(٢) **أَمَّا قِيَامُ الحُجَّةِ بِالقُرْآنِ، وَدَعْوَةِ الرَّسُولِ** ﷺ، فَعَلَىٰ التَّفْصِيلِ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

(٣) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٤).

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «نَوَادِرِ الأُصُولِ» (ج١ ص٣١٠): (**وَهَذَا بَعْدَ الإِدْرَاكِ**: حِيْنَ عَقِلُوا أَمْرَ الدُّنْيَا، وَتَأَكَّدَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، بِمَا نَصَبَ مِنَ الآيَاتِ الظَّاهِرَةِ، مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ، وَالبَرِّ وَالبَحْرِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَلَمَّا عَمِلَتْ أَهْوَاؤُهُمْ فِيهِمْ، أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَدَعَتْهُمْ إِلَىٰ اليَهُوْدِيَّةِ، وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَذَهَبَتْ بِأَهْوَائِهِمْ، يَمِينـًا وَشِمَالاً). اهـ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: (**كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**).[1]

* **فَأَخْذُ المِيْثَاقِ** مِنَ النَّاسِ في الغَيْبِ، وَإِقْرَارُهُمْ جَمِيعـًا، بِالرُّبُوبِيَّةِ للهِ تَعَالَىٰ، مَعَ فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ وَالإِسْلَامِ، الَّتِي فَطَرَ اللهُ تَعَالَىٰ النَّاسَ عَلَيهَا في وِلَادَتِهِمْ.

* **كَفَىٰ بِذَلِكَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ في الإِجْمَالِ**، وَأَنَّهُ يَجُوزُ الاحْتِجَاجُ بِهَا عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ قَدْ أَقَرُّوا جَمِيعـًا بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**» للهِ تَعَالَىٰ، وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَبِتَوْحِيدِهِ، وَأَضِفْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَلْزَمَهُمُ الفِطْرَةَ، فِطْرَةَ الإِسْلَامِ مِنْ صِغَرِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيُنَزِّلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ، لِيَقُومَ عَلَيْهِمُ بِالحُجَّةِ البَالِغَةِ، في الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ.[2]

* فَلَا يُوْلَدُ؛ لِأَيٍّ: مَوْلِدٍ، إِلَّا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ حَقِيقَةً عِنْدَ وِلَادَتِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ اللهُ تَعَالَىٰ لِيَدْعُو خَلْقَهُ إِلَىٰ الإِيْمَانِ بِهِ، وَهُوَ لَمْ يُعَرِّفْهُمْ نَفْسَهُ العَظِيمَةَ ابْتِدَاءً في الغَيْبِ،

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ في «صَحِيحِهِ» (١٣٥٩)، و(١٣٨٥)، و(٤٧٧٥)، وَمُسْلِمٌ في «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨).

(٢) وَانْظُرْ: «فَتْحَ القَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢ و١٥٣)، و«رُوْحَ المَعَانِي» لِلآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠)، و«جَامِعِ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٢٣١)، و«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٠)، و«تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧).

وَفِي صِغَرِهِمْ، إِذْ كَانَ يَكُونُ حِيْنَئِذٍ قَدْ كَلَّفَهُمُ الإِيْمَانَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، وَكَلَّفَهُمْ بِشَيْءٍ لَا يُدْرِكُونَهُ فِي الحَيَاةِ، وَهَذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّهُ عَلِيمٌ، وَحَكِيمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدِيرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

* وَاللهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَذْكُرْ؛ لِأَيِّ: آيَةٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، إِلَّا فِيهَا مِنَ الحُجَّةِ البَالِغَةِ، وَالحِكْمَةِ العَالِيَةِ، وَالعِلْمِيَّةِ النَّافِعَةِ لِلْخَلْقِ، فَلَا يَذْكُرُهَا سُبْحَانَهُ بِعَبَثٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ[1]، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حِكْمَةٍ، عَرَفَهَا مَنْ عَرَفَ، وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رحمه الله فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٨٨): (وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، لِيَعْرِفَ مِنْهُمُ: العَارِفُ، وَيَعْتَرِفَ: فَيُؤْمِنُ، وَلِيُنْكِرَ مِنْهُمُ: المُنْكِرُ مَا يَعْرِفُ، فَيَكْفُرُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ سَبَقَ بِهِ لَهُمْ: قَضَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَقَدَّمَ فِيهِ عِلْمُهُ؛ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي حِينِ تَصِحُّ مِنْهُمُ: المَعْرِفَةُ، وَالإِيمَانُ، وَالكُفْرُ، وَالجُحُودُ، وَذَلِكَ عِنْدَ التَّمْيِيزِ، وَالإِدْرَاكِ). اهـ

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رحمه الله فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٨٩): (**وَمَعْنَىٰ الآيَةِ وَالحَدِيثِ**: أَنَّهُ أَخْرَجَ ذَرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، كَيْفَ شَاءَ، وَأَلْهَمَهُمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، فَقَالُوا: ﴿بَلَىٰ﴾، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، ثُمَّ تَابَعَهُمْ بِحُجَّةِ العَقْلِ، عِنْدَ التَّمْيِيزِ، وَبِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: بَعْدَ ذَلِكَ؛ اسْتِظْهَارًا: بِمَا فِي عُقُولِهِمْ، مِنَ

(١) لِذَلِكَ؛ يَكْفِي لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ، بِالمِيْثَاقِ، وَالفِطْرَةِ، عَلَىٰ الإِجْمَالِ، فَلَا يَأْتِي أَيُّ جَاهِلٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا لَا أَدْرِي، أَنَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الغَفْلَةِ عَنْ ذَلِكَ.

المُنَازَعَةِ إِلَىٰ خَالِقٍ، مُدَبِّرٍ، حَكِيمٍ، يُدَبِّرُهُمْ بِمَا لَا يَتَهَيَّأُ لَهُمْ، وَلَا يُمْكِنُهُمْ: جَحْدُهُ، **وَهَذَا إِجْمَاعُ أَهْلِ السُّنَّةِ**؛ وَالحَمْدُ للهِ). اهـ

* وَهَذَا الإِقْرَارُ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ.(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «شِفَاءِ العَلِيلِ» (ص١٩٥)**: (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكَمِ أَخْذِ المِيْثَاقِ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَحْتَجُّوا يَوْمَ القِيَامَةِ: بِغَفْلَتِهِمْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ، وَلَا بِتَقْلِيدِ الأَسْلَافِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ فَالضَّمِيرُ فِي: «بِهِ»: القُرْآنُ، وَ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾؛ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: حَذَارِ أَنْ تُسْلِمَ نَفْسٌ إِلَىٰ الهَلَكَةِ، وَالعَذَابِ، وَتَرْتَهِنُ بِسُوءِ عَمَلِهَا). اهـ

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢].

---

(١) **فَأَمَّا نُطْقُهُمْ**: فَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَحَادِيثِ، الَّتِي فِيهَا أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، أَوْ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ، ثُمَّ رُدُّوا فِي صُلْبِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَلْفَاظِ، فَلَا تَقُومُ بِهَا الحُجَّةُ، وَلَا تَصِحُّ أَسَانِيدُهَا كُلُّهَا.

وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٥٩).

* **قَالَ ابنُ القَيِّمِ** رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الرُّوحِ» (ج٢ ص٤٧٣)**: (وَهَذَا الإِسْنَادُ، يُرْوَىٰ بِهِ أَشْيَاءُ مُنْكَرَةٌ جِدًّا، مَرْفُوعَةً، وَمَوْقُوفَةً). اهـ

وَالمُرَادُ: فِي هَذِهِ الآيَةِ، إِنَّمَا يُرَادُ بِهَا شَهَادَةُ العَبْدِ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ **بِمَعْنَىٰ**: أَدَاءِ الشَّهَادَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

* **وَقَوْلُهُمْ**: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ هُوَ إِقْرَارُهُمْ: بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ أَخْبَرَ بِأَمْرٍ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَدْ شَهِدَ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ **مَعْنَاهُ**: أَنْتَ رَبُّنَا، وَهَذَا إِقْرَارٌ مِنْهُمْ: بِرُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وَجَعْلِهِمْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ يَقْتَضِي أَنَّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَعَلَهُمْ: شَاهِدِيْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ.(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله **فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٢)**: (وَهَذَا الإِشْهَادُ مُقِرُّونَ بِأَخْذِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، وَهَذَا الأَخْذُ المَعْلُومُ المَشْهُودُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ؛ هُوَ: أَخْذُ المَنِيِّ مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَنُزُولُهُ فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا الأُمَّهَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]؛ وَهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِدِينِ آبَائِهِمْ، لَا لِدِينِ الأُمَّهَاتِ، كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٢]؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٤]؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: اذْكُرْ حِينَ أُخِذُوا مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، فَخُلِقُوا حِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، مُقِرِّينَ بِالْخَالِقِ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، **فَهَذَا الإِقْرَارُ**: حُجَّةٌ للهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ، فَأَخْذُهُمْ

(١) وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٦١).

يَتَضَمَّنُ خَلْقَهُمْ، وَالإِشْهَادُ يَتَضَمَّنُ هُدَاهُ لَهُمْ إِلَىٰ هَذَا الإِقْرَارِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ، فَهَذَا الإِشْهَادُ مِنْ لَوَازِمِ الإِنْسَانِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ جَعَلَهُ اللهُ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، شَاهِدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَاللهَ خَالِقُهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِبَنِي آدَمَ، لَا يَنْفَكُّ مِنْهُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ مِمَّا جُبِلُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ، لَا يُمْكِنُ أَحَدًا جَحْدُهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ أَيْ: كَرَاهِيَةَ أَنْ تَقُولُوا، أَوْ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ **أَيْ**: عَنْ هَذَا الإِقْرَارِ للهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَعَلَىٰ نُفُوسِنَا بِالعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ هَذَا، بَلْ كَانَ هَذَا مِنَ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمُ الَّتِي لَمْ يَخْلُ مِنْهَا بَشَرٌ قَطُّ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً، وَلَكِنْ قَدْ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ عُلُومِ العَدَدِ وَالحِسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ: فَإِنَّهَا إِذَا تَصَوَّرَتْ، كَانَتْ عُلُومًا ضَرُورِيَّةً، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ غَافِلٌ عَنْهَا.

* وَأَمَّا الِاعْتِرَافُ بِالخَالِقِ فَإِنَّهُ: عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَازِمٌ لِلإِنْسَانِ، لَا يَغْفُلُ عَنْهُ أَحَدٌ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَهُ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَسِيَهُ.

وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ التَّعْرِيفُ بِذَلِكَ: تَذْكِيرًا، فَإِنَّهُ تَذْكِيرٌ بِعُلُومٍ فِطْرِيَّةٍ ضَرُورِيَّةٍ، وَقَدْ يَنْسَاهَا العَبْدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحَشْرُ: ١٩]؛ وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يَقُولُ اللهُ لِلكَافِرِ: فَاليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**»(١). اهـ

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٨٢٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٣): (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]؛ فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ لَهُمْ حُجَّتَيْنِ يَدْفَعُهُمَا هَذَا الإِشْهَادُ:

إِحْدَاهُمَا: أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا: عِلْمٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ لَا بُدَّ لِكُلِّ بَشَرٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُجَّةَ اللهِ فِي إِبْطَالِ التَّعْطِيلِ، وَأَنَّ القَوْلَ بِإِثْبَاتِ الصَّانِعِ: عِلْمٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَىٰ نَفْيِ التَّعْطِيلِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾، وَهُمْ آبَاؤُنَا المُشْرِكُونَ؛ أَيْ: أَفَتُعَاقِبُنَا بِذُنُوبِ غَيْرِنَا؟ فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَارِفِينَ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَوَجَدُوا آبَاءَهُمْ مُشْرِكِينَ، وَهُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَمُقْتَضَىٰ الطَّبِيعَةِ العَادِيَّةِ أَنْ يَحْتَذِيَ الرَّجُلُ حَذْوَ أَبِيهِ حَتَّىٰ فِي الصِّنَاعَاتِ، وَالمَسَاكِنِ، وَالمَلَابِسِ، وَالمَطَاعِمِ إِذْ كَانَ هُوَ الَّذِي رَبَّاهُ، **وَلِهَذَا كَانَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**، فَإِذَا كَانَ هَذَا مُقْتَضَىٰ العَادَةِ وَالطَّبِيعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، **قَالُوا**: نَحْنُ مَعْذُورُونَ، وَآبَاؤُنَا هُمُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَنَحْنُ كُنَّا ذُرِّيَّةً لَهُمْ بَعْدَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مَا يُبَيِّنُ خَطَأَهُمْ: **فَإِذَا كَانَ فِي فِطَرِهِمْ مَا شَهِدُوا بِهِ مِنْ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُمْ، كَانَ مَعَهُمْ مَا يُبَيِّنُ بُطْلَانَ هَذَا الشِّرْكِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي شَهِدُوا بِهِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ**.

فَإِذَا احْتَجُّوا بِالعَادَةِ الطَّبِيعِيَّةِ: مِنِ اتِّبَاعِ الآبَاءِ، كَانَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ: هِيَ الفِطْرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الفِعْلِيَّةُ السَّابِقَةُ؛ لِهَذِهِ العَادَةِ الطَّارِئَةِ، وَكَانَتِ الفِطْرَةُ المُوجِبَةُ لِلإِسْلَامِ: سَابِقَةً لِلتَّرْبِيَةِ الَّتِي يَحْتَجُّونَ بِهَا؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ نَفْسَ العَقْلِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُونَ التَّوْحِيدَ:

حُجَّةٌ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، **لَا يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولٍ، فَإِنَّهُ جَعَلَ مَا تَقَدَّمَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ بِدُونِ هَذَا**، وَهَذَا لَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٥]؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَلَكِنَّ الفِطْرَةَ: دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ يُعْلَمُ بِهِ إِثْبَاتُ الصَّانِعِ، لَمْ يَكُنْ فِي مُجَرَّدِ الرِّسَالَةِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ: فَهَذِهِ الشَّهَادَةُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِذَلِكَ أَمْرٌ لَازِمٌ لِكُلِّ بَنِي آدَمَ، بِهِ تَقُومُ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَصْدِيقِ رُسُلِهِ، فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا غَافِلًا، وَلَا أَنَّ الذَّنْبَ كَانَ لِأَبِي المُشْرِكِ دُونِي، لِأَنَّهُ عَارِفٌ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا فِي التَّعْطِيلِ، وَالإِشْرَاكِ، بَلْ قَامَ بِهِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَذَابَ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٤)**: (ثُمَّ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ - لِكَمَالِ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ - لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ فَاعِلًا لِمَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ: فَلِلَّهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ حُجَّتَانِ قَدْ أَعَدَّهُمَا عَلَيْهِ لَا يُعَذِّبُهُ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِهِمَا:

إِحْدَاهُمَا: مَا فَطَرَهُ عَلَيْهِ، وَخَلَقَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِقْرَارِ بِأَنَّهُ رَبُّهُ، وَمَلِيكُهُ، وَفَاطِرُهُ، وَحَقُّهُ عَلَيْهِ لَازِمٌ.

وَالثَّانِيَةُ: إِرْسَالُ رُسُلِهِ إِلَيْهِ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ، وَتَقْرِيرِهِ وَتَكْمِيلِهِ، فَيَقُومُ عَلَيْهِ شَاهِدُ الفِطْرَةِ، وَالشِّرْعَةِ، وَيُقِرُّ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَانَ كَافِرًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٣٠]؛ فَلَمْ يُنَفِّذْ عَلَيْهِمُ الحُكْمَ، إِلَّا بَعْدَ إِقْرَارٍ، وَشَاهِدِيْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَهَذَا غَايَةُ العَدْلِ). اهـ

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤]؛ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَىٰ البَاطِلِ.(١)

* **فَيَرْجِعُوا:** إِلَىٰ الحَقِّ وَالإِيْمَانِ، وَيُعْرِضُوا عَنِ البَاطِلِ، وَالكُفْرِ، وَالشِّرْكِ.(٢)

* **فَلَعَلَّهُمْ:** يَرْجِعُونَ عَنْ جَهْلِهِمْ، وَتَقْلِيدِهِمْ لِآبَائِهِمْ، وَأَجْدَادِهِمْ، إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَالإِيْمَانِ.

* **وَلَعَلَّهُمْ:** يَرْجِعُونَ أَيْضاً إِلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، فَيَذْكُرُونَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَاهُ.(٣)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأَحْزَابُ:٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ:٣٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٦].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٠٢].

وَهَذِهِ الآيَةُ: تَدُلُّ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا أَخَذَهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، فَقَدْ أَخَذَهُمْ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّتِهِ؛ لِأَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، ذُرِّيَّةٌ، لِذُرِّيَّتِهِ، بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.(١)

---

(١) فَلَمْ يَقْبَلِ اللهُ تَعَالَىٰ عُذْرَ الأَبْنَاءِ فِي الشِّرْكِ، مَعَ عُذْرِهِمْ بِتَحْسِينِ الظَّنِّ بِآبَائِهِمْ الضَّالِينَ.

(٢) يَعْنِي: عَنِ الشِّرْكِ، إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.

(٣) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٢)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٥).

قَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦٠٨)**: (وَأَمَّا تَفْسِيرُ الآيَةِ: فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾؛ **يَعْنِي**: وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ، إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ، **يَعْنِي**: مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ ظَهْرَ آدَمَ، وَإِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَخْرَجَ جَمِيعَ الذُّرِّيَّةِ مِنْ ظَهْرِهِ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ بَعْضُهُمْ: مِنْ ظَهْرِ بَعْضٍ عَلَىٰ نَحْوِ مَا يَتَوَالَدُ الأَبْنَاءُ مِنَ الآبَاءِ.

* **فَلِذَلِكَ؛ قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ فَاسْتَغْنَىٰ عَنْ ذِكْرِ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، لِمَا عَلِمَ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ: بَنُو آدَمَ، وَأُخْرِجُوا مِنْ ظَهْرِهِ، فَتَرَكَ ذِكْرَ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ: اسْتِغْنَاءً). اهـ

قُلْتُ: فَذَكَرَ اللهُ تَعَالَىٰ الأَخْذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، فِي الغَيْبِ، لَا مِنْ نَفْسِ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ.

* **لَكِنَّ الرَّسُولَ** ﷺ؛ ذَكَرَ أَيْضاً، أَنَّ الأَخْذَ مِنْ نَفْسِ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ.

وَهَذَا لَا يُنَاقِضُ الآيَةَ، فَإِنَّ أَخْذَ: «**المِيثَاقِ**»، أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، كَمَا أَخَذَهُ أَيْضاً عَلَيْهِمْ: مِنْ نَفْسِ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ.

* فَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَهَذِهِ الشَّهَادَةُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، الَّتِي تَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِذَلِكَ، أَمْرٌ لَازِمٌ لِكُلِّ بَنِي آدَمَ، بِهِ تَقُومُ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَصْدِيقِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَلَا يُمْكِنُ أَحَداً، **أَنْ يَقُولَ**: يَوْمَ القِيَامَةِ، إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا غَافِلاً.

=

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٧)، وَ«التَّفْسِيرَ البَسِيطَ» لِلوَاحِدِيِّ (ج٩ ص٤٤٩).

قُلْتُ: وَقَدِ اسْتَدَلَّ اللهُ تَعَالَىٰ أَيْضًا عَلَيْهِمْ بِالدَّلَائِلِ المَنْصُوبَةِ فِي الآفَاقِ، وَالأَنْفُسِ المُؤَدِّيَةِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ فِي النَّاسِ.

* فَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بِمَا رَكَّبَ فِيهِمْ مِنَ العَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الفَهْمُ، وَيَجِبُ بِهِ الثَّوَابُ وَالعِقَابُ.

فَأَخَذَ اللهُ عَلَيهِمُ: «**المِيْثَاقَ**»، وَ«**العَهْدَ**» فِي التَّوْحِيدِ، بِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ العَقْلِ، وَأَرَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ، وَالدِّلَالَاتِ، عَلَىٰ أَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ.

* فَكُلُّ مَنْ بَلَغَ هَذَا المَبْلَغَ، فَقَدْ أُخِذَ عَلَيهِ: «**المِيْثَاقُ**»، وَ«**العَهْدُ**»، وَقَدْ أَقَرَّ، وَأَذْعَنَ، وَأَسْلَمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعْدُ:١٥].

قُلْتُ: فَأُخِذَ مِنَ الخَلْقِ: «**المِيْثَاقُ**»، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣].

* فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ آدَمَ، إِلَّا وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ ربَّهُ، هُوَ اللهُ تَعَالَىٰ.(١)

* وَالخَلْقُ قَدْ أَقَرُّوا للهِ تَعَالَىٰ بِالإِيْمَانِ، وَالمَعْرِفَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آلُ عِمْرَانَ:٨٣].

---

(١) **وَالمُشْرِكُ يَقُولُ**: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ!».

قُلْتُ: وَيَجُوزُ فِي العَرَبِيَّةِ أَنْ يَقَعَ، مَا هُوَ مُنْتَظَرٌ، مِمَّا لَمْ يَقَعْ بَعْدُ، أَوْ وَقَعَ فِي الغَيْبِ، مِثْلُ: مَا أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ لِسَبْقِ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ بِوُقُوعِ هَذِهِ الشَّهَادَةِ مِنَ الخَلْقِ.

* كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي مَوَاضِعَ مِنَ القُرْآنِ مِثْلَ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الأَعْرَافُ:٥٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأَعْرَافُ: ٤٤]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأَعْرَافُ: ٤٨].

* **وَهَذَا مِثْلُ**: قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَىٰ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأَحْزَابُ: ٧٢].

الأَمَانَةُ؛ هَاهُنَا: عَهْدٌ، وَمِيْثَاقٌ، فَامْتِنَاعُ السَّمَوَاتِ، وَالأَرْضِ، وَالجِبَالِ، مِنْ حَمْلِ الأَمَانَةِ لِخُلُوِّهَا مِنَ العَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الفَهْمُ، وَالإِفْهَامُ، وَحَمْلُ الإِنْسَانِ إِيَّاهَا لِمَكَانِ العَقْلِ فِيهِ.(١)

* **وَمَعْنَىٰ**: قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ فَقَدْ دَلَّ الخَلْقَ، بِخَالِقِهِمْ: عَلَىٰ تَوْحِيدِهِ، لِأَنَّ كُلَّ بَالِغٍ، يَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّ لَهُ رَبًّا وَاحِداً.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ فَقَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الإِشْهَادِ عَلَيْهِمْ، وَالإِقْرَارِ مِنْهُمْ.(١)

---

(١) وَانْظُرْ: «التَّفْسِيرَ البَسِيطَ» لِلوَاحِدِيِّ (ج٩ ص٤٥٨)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٨٣).

وَهَذَا مِثْلُ: قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ:١١].

قُلْتُ: وَقَدْ يُخَاطَبُ الجَمَادُ، لِأَنَّهُ يَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهُ، مِثْلَ: الجَبَلِ، حَتَّىٰ خُوطِبَ: جَبَلُ أُحُدٍ.(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سَبَأٌ:١٠].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ؛ **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ: **صَعِدَ أُحُدًا، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقَالَ** ﷺ: **(اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ: نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ)**.(٣)

قُلْتُ: فَالقَوْلُ فِيمَا تَقَدَّمَ قَبْلُ هَذَا يَغْنِي عَنِ الجِدَالِ فِي إِقَامَتِ الحُجَّةِ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**» عَلَىٰ الجُهَّالِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي: «**الشِّرْكِ الأَكْبَرِ**»، **لِأَنَّهُمْ** أَقَرُّوا فِي الغَيْبِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، هُوَ رَبُّهُمْ المَعْبُودُ بِحَقٍّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، **وَكَذَلِكَ**: إِقْرَارُهُمْ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِالفِطْرَةِ(٤) أَلْزَمَهَا قُلُوبَهُمْ مِنْذُ الصِّغَرِ، فَكَفَوْنَا التَّعْبَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ، بِهَذِهِ

=

(١) وَانْظُرْ: «الجَامِعَ لِأَحْكَامِ القُرْآنِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٧ ص٣١٤)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١٠ و٣١١)، وَ«تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٢ ص٢٦٤).

(٢) وَانْظُرْ: «الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٦)، وَ«التَّفْسِيرَ البَسِيطَ» لِلوَاحِدِيِّ (ج٩ ص٤٤٨).

(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٣٦٧٥).

(٤) **وَالفِطْرَةُ**: مَا يَقْلِبُ اللهُ تَعَالَىٰ، قُلُوبَ الخَلْقِ إِلَيْهِ، مِمَّا يُرِيدُ، وَيَشَاءُ، مِنَ التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ.

* **فَإِذَا أَرَادَ العَبْدُ**: الإِيْمَانَ بِالتَّوْحِيدِ، فَيَكُونُ مُؤْمِنًا، حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ الإِيْمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

* وَقَدْ يُشْرِكُ، وَيُرِيدُ الكُفْرَ، ثُمَّ لَا يَزَالُ عَلَىٰ كُفْرِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ، بِسَبَبِ جَهْلِهِ بِالتَّوْحِيدِ.

المَقَالَةِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فِي عَالَمِ الغَيْبِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ: تَقْدِيرُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِطْرَتُهُ لَهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ.

قُلْتُ: وَأَمَّا أَهْلُ البِدَعِ(١)، **فَمُنْكِرُونَ**، لِكُلِّ مَا قَالَهُ العُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤]، **قَالُوا**: مَا أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ آدَمَ، وَلَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مِيْثَاقًا قَطُّ، قَبْلَ خَلْقِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا خَلَقَهُمْ قَطُّ، إِلَّا فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، **يَعْنِي**: يُنْكِرُونَ(٢) إِقَامَةَ الحُجَّةِ عَلَىٰ الخَلْقِ بِالمِيْثَاقِ، وَهُمْ فِي ظُهُورِ آبَائِهِمْ فِي عَالَمِ الغَيْبِ.(٣)

* **وَالمُعْتَزِلَةُ**: يُنْكِرُونَ أَخْذَ المِيْثَاقِ القَالِيِّ، **وَيَقُولُونَ**: إِنَّهَا مِنْ جُمْلَةِ الآحَادِ، فَلَا يَلْزَمُنَا أَنْ نَتْرُكَ لَهَا ظَاهِرَ الكِتَابِ، وَطَعَنُوا فِي صِحَّتِهَا؛ بِمُقَدِّمَاتٍ عَقْلِيَّةٍ مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ قَوَاعِدَ فَلْسَفِيَّةٍ عَلَىٰ مَا هُوَ دَأْبُهُمْ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ المَطَالِبِ.(٤)

---

(١) وَهُمُ: «**المُعْتَزِلَةُ**»، فَقَدْ أَنْكَرُوا: «**حُجَّةَ المِيْثَاقِ**»، فَمَنْ أَنْكَرَ: «**حُجَّةَ المِيْثَاقِ**» عَلَىٰ الخَلْقِ، فَقَدْ وَافَقَ المُعْتَزِلَةَ.

(٢) فَمَنْ أَنْكَرَ قِيَامَ الحُجَّةِ بِالمِيْثَاقِ، فَقَدْ وَافَقَ أَهْلَ البِدَعِ، وَنَطَقَ بِمَقَالَتِهِمْ فِي مُخَالَفَةِ: الكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَالإِجْمَاعِ، فَأَنَّىٰ يُفْلِحُ فِي حَيَاتِهِ، وَهُوَ يُوَافِقُ المُبْتَدِعَةَ.

(٣) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١١).

(٤) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٣).

* **وَكَذَلِكَ قَالَ أَهْلُ البِدَعِ**: كَيْفَ يُخَاطِبُ اللهُ تَعَالَىٰ، مَنْ لَا يَعْقِلُ، وَكَيْفَ يُجِيبُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ، وَكَيْفَ يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمِيْثَاقٍ لَا يَذْكُرُونَهُ، وَهُمْ لَا يُؤَاخَذُونَ بِمَا نَسُوْا.

* **وَقَالُوا**: إِنَّمَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَىٰ، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤]؛ إِخْرَاجُهُ إِيَّاهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَخَلْقُهُ لَهُمْ، وَإِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، بِأَنْ فَطَرَهُمْ، وَبَنَاهُمْ: فِطْرَةً إِذَا بَلَغُوا، وَعَقَلُوا، عَلِمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: هُوَ رَبُّهُمْ، وَخَالِقُهُمْ.(١)

قُلْتُ: فَمَنْ قَالَ بِهَذَا القَوْلِ، فَقَدْ وَافَقَ أَهْلَ البِدَعِ، **يَعْنِي**: فِي عَدَمِ حُجِّيَّةِ المِيْثَاقِ عَلَىٰ الخَلْقِ؛ ابْتِدَاءً فِي عَالَمِ الغَيْبِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **(كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)**.(٢)

---

(١) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٥).

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٩)، و(١٣٨٥)، و(٤٧٧٥)، و(٦٥٩٩)، و(٦٦٠٠)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (٢٢٧٤)، و(٢٢٧٥)، وَأَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (٧١٨١)، و(٧٤٤٥)، وَمَالِكٌ فِي «المُوَطَّأِ» (ج١ ص٢٤١)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (٤٧١٤)، وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (١٢٨)، و(١٣٣).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»، قَالَ الحَافِظُ ابن حَجَرٍ رحمه الله في «فَتْحِ البَارِي» (ج٣ ص٢٤٨): (قَدِ اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي المُرَادِ بِالفِطْرَةِ فِي هَذَا الحَدِيثِ عَلَىٰ أَقْوَالٍ كَثِيرَةٍ...، **وَأَشْهَرُ الأَقْوَالِ أَنَّ المُرَادَ بِالفِطْرَةِ: الإِسْلَامُ، قَالَ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي** [«التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٧٢ و٧٣)]، وَهُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ، وَأَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ:٣٠]؛ **الإِسْلَامُ**، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي هَذَا الحَدِيثِ: اقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ وَذَكَرُوا عَنْ عِكْرِمَةَ، وَمُجَاهِدٍ، وَالحَسَنِ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَالضَّحَّاكِ، وَقَتَادَةَ؛ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ **قَالُوا** فِطْرَةَ اللهِ: دِيْنُ الإِسْلَامِ، وَبِحَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ؛ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٢٨٦٥)، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ**» الحَدِيثَ، وَقَدْ رَوَاهُ غَيْرُهُ؛ فَزَادَ فِيهِ: «**حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ**»، وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ خَلَقَهُمْ عَلَىٰ الحَنِيفِيَّةِ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ اجْتَالَتْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَرَجَّحَهُ بَعْضُ المُتَأَخِّرِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ﴾؛ لِأَنَّهَا إِضَافَةُ مَدْحٍ، وَقَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ بِلُزُومِهَا، فَعُلِمَ أَنَّهَا الإِسْلَامُ). اهـ كَلَامُ ابنِ حَجَرٍ.

*** وَقَدْ سُئِلَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله: عَنْ هَذَا الحَدِيثِ؛ كَمَا فِي «الفَتَاوَىٰ» (ج٤ ص٢٤٥)؛ فَأَجَابَ رحمه الله**: (الحَمْد للهِ أَمَّا قَوْلُهُ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»؛ فَالصَّوَابُ: أَنَّهَا فِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، **وَهِيَ فِطْرَةُ: الإِسْلَامِ**، وَهِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ **وَهِيَ**: السَّلَامَةُ مِنَ الاعْتِقَادَاتِ البَاطِلَةِ، وَالقَبُولِ

لِلعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ، **فَإِنَّ حَقِيقَةَ الإِسْلَامِ**: أَنْ يَسْتَسْلِمَ للهِ، لَا لِغَيْرِهِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ). اهـ

* فَاللهُ خَلَقَ الطِّفْلَ سَلِيمًا مِنَ الكُفْرِ، مُؤْمِنًا، مُسْلِمًا، عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، حِيْنَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا: بَلَىٰ.(١)

وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ؛ **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: (سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ، وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ)**.(٢)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ بَطَّالٍ رحمه الله **فِي «شَرْحِ صَحِيحِ البُخَارِيِّ» (ج١٠ ص٧٥)**: (قَوْلُهُ ﷺ: «**وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ، وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ**»؛ يَعْنِي: العَهْدَ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، **فِي أَصْلِ: خَلْقِهِمْ**، حِيْنَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ فَأَقَرُّوا لَهُ فِي أَصْلِ خَلْقِهِمْ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَذْعَنُوا لَهُ بِالوُحْدَانِيَّةِ). اهـ

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: (يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ،**

---

(١) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٧٧).

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٦٣٠٦).

فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ، أَلَّا تُشْرِكَ بِي؛ فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي).(١)

قُلْتُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، كَمَا أَخَذَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمُ: «**المِيْثَاقَ**» فِي ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ، ثُمَّ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ، وَأَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ.

* إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» مِنَ الذُّرِّيَّةِ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ، وَمِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، أَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٩].

وَعَنِ الإِمَامِ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ رَحِمَهُ اللهُ؛ أَنَّهُ كَانَ يُفَسِّرُ؛ حَدِيثَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»، قَالَ: (هَذَا عِنْدَنَا حَيْثُ أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمُ: العَهْدَ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ **[الأَعْرَافُ: ١٧٢]).**(٢)

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٣٣٣٤)، و(٦٥٥٧)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٨٠٥)، وَأَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (ج١٩ ص٣٠٢)، وَالثَّعْلَبِيُّ فِي «الكَشْفِ وَالبَيَانِ» (ج٨ ص٢٣٩).

(٢) **أَثَرٌ صَحِيحٌ.**

=

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَرُ: ٤٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأَنْعَامُ: ٢٨].

قَالَ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللهُ في «شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (ج٨ ص١١٣): (حَدِيثُ أَخْذِ: «**العَهْدِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ**» فِي صُلْبِ آدَمَ؛ تَكَلَّمَ فِيهِ النَّاسُ كَثِيراً، وَقَالُوا: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ إِنَّ هَذَا مَا رَكَزَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الفِطَرِ وَالعُقُولِ مِنَ الوُحْدَانِيَّةِ، وَالإِيْمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْرِهِمْ، فَالجَمْعُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ: بَنُو آدَمَ أَنْفُسُهُمْ، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخَذَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَذَلِكَ بِمَا رَكَزَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الفِطْرَةِ، وَالمَسْأَلَةُ مَبْسُوطَةٌ فِي شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ.

وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ: الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَوَدُّونَ أَنْ يَفْتَدُوا بِمِلْءِ الأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَكِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ ذَلِكَ.

=

أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ فِي «جَامِعِ البَيَانِ» (ج١٠ ص٥٥٩)، وَابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٩٣)، وابنُ بَطَّةَ فِي «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (ج١ ص٧٢٠).

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

* وَهَذَا الحَدِيثُ فِيهِ مُنَاقَشَةٌ، وَفِيهِ تَنْدِيمٌ لِهَذَا الكَافِرِ، فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ مِنْ هَذَا العَذَابِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَهَذَا وَاقِعٌ فَالكُلُّ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القِيَامَةِ بِمَا يَسْتَطِيعُ.

* **وَقَوْلُهُ ﷺ: «فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ»**؛ أَيْ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَرُسُلِهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتَأْتِيَ بِشَرَائِعِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ أُمُورٌ سَهْلَةٌ، فَحَتَّىٰ الزَّكَاةَ الَّتِي هِيَ حَقُّ المَالِ لَا تَجِبُ فِي كُلِّ مَالٍ، وَإِذَا وَجَبَتْ فِي مَالٍ فَهُوَ جُزْءٌ يَسِيرٌ، وَالغَالِبُ أَيْضًا: أَنَّهَا لَا تَجِبُ إِلَّا فِي الأَمْوَالِ النَّامِيَةِ، وَقَدْ تَجِبُ فِي الأَمْوَالِ غَيْرِ النَّامِيَةِ كَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ القَسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «إِرْشَادِ السَّارِي» (ج٧ ص٢٧٥): (قَالَ تَعَالَىٰ: «**فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ**»، حِيْنَ أَخَذْتُ المِيْثَاقَ، «**أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ**»، إِذْ أَخْرَجْتُكَ إِلَىٰ الدُّنْيَا، «**إِلَّا الشِّرْكَ**»). اهـ

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا؛ لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ -أَحْسِبُهُ قَالَ: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ-، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ). وَفِي رِوَايَةٍ: (فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ).[1]

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٣٣٣٤)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٨٠٥).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (يُقَالُ لِلكَافِرِ يَوْمَ القِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا، أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟، فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ). وَفِي رِوَايَةٍ: (فَيُقَالُ لَهُ: كَذَبْتَ، قَدْ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ).(١)

قَالَ الحَافِظُ ابن حَجَرٍ رحمه الله في «فَتْحِ البَارِي» (ج١١ ص٤٠٣ و٤٠٤): (قَوْلُهُ ﷺ: «قَدْ كُنْتَ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ»، فِي رِوَايَةِ أَبِي عِمْرَانَ فَيَقُولُ: «أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»، وَفِي رِوَايَةِ ثَابِتٍ: «قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَىٰ النَّارِ»، قَالَ عِيَاضٌ رحمه الله: يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيتهمْ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ الآيَةَ، فَهَذَا: «المِيثَاقُ» الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، فَمَنْ وَفَّىٰ بِهِ بَعْدَ وُجُودِهِ فِي الدُّنْيَا: فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ لَمْ يُوَفِّ بِهِ: فَهُوَ الكَافِرُ، **فَمُرَادُ الحَدِيثِ**: أَرَدْتُ مِنْكَ حِينَ أَخَذْتُ: «المِيثَاقَ»، فَأَبَيْتَ إِذْ أَخْرَجْتُكَ إِلَىٰ الدُّنْيَا إِلَّا الشِّرْكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِالإِرَادَةِ هُنَا: الطَّلَبَ؛ **وَالمَعْنَىٰ**: أَمَرْتُكَ، فَلَمْ تَفْعَلْ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ. **وَاعْتَرَضَ بَعْضُ المُعْتَزِلَةِ**: بِأَنَّهُ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَأْمُرَ بِمَا لَا يُرِيدُ؟ **وَالجَوَابُ**: أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ، وَلَا مُسْتَحِيلٍ). اهـ

وَقَالَ القَاضِي عِيَاضٌ رحمه الله **فِي «إِكْمَالِ المُعْلِمِ»** (ج٨ ص٣٣٧): (وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا»، إِلَىٰ قَوْلِهِ: «قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَلَّا تُشْرِكَ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»؛ هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَىٰ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٨٠٥).

مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَهَذَا: «**المِيْثَاقُ**» الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، فَمَنْ وَفَّىٰ بِهِ بَعْدَ وُجُودِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ لَمْ يَفِ بِهِ فَهُوَ الكَافِرُ، وَمُرَادُ الحَدِيثِ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَلَّا تُشْرِكَ بِي حِيْنَ أَخَذْتُ عَلَيْكَ ذَلِكَ: «**المِيْثَاقَ**»، فَأَبَيْتَ إِذْ أَخْرَجْتُكَ إِلَىٰ الدُّنْيَا إِلَّا الشَّرِيكَ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ الأُبِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «إِكْمَالِ إِكْمَالِ المُعْلِمِ» (ج٩ ص٢٥٢)**: (فِي الحَدِيثِ: «**أَرَدْتُ مِنْكَ أَنْ لَا تُشْرِكَ، فَأَبَيْتَ: إِلَّا الشِّرْكَ**»؛ فَإِنَّ ذَلِكَ بَيَّنَهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ فَالمُرَادُ الإِيْمَانُ: الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمْ هُوَ: إِيْمَانُهُمْ ذَلِكَ اليَوْمَ، وَقَدْ حَصَلَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: أَنْتَ رَبُّنَا، وَلَكِنَّهُمْ: لَمْ يَعْبُدُوا لَمَّا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا). اهـ

قُلْتُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ، وَأَصْلَابِ أَوْلَادِهِ، وَأَخَذَ عَلَيهِمْ: «**المِيْثَاقَ**»، أَنَّهُ خَالِقُهُمْ، وَأَنَّهُمْ: مَخْلُوقُونَ، فَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ، وَقَبِلُوا، وَعَرَفُوا مَا عُرِضَ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُمْ: لَهُمْ: عُقُولٌ، يَفْهَمُونَ بِهَا مَا سَمِعُوهُ، وَنَطَقُوا بِهِ.[1]

وَبَوَّبَ عَلَيهِ الحَافِظُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ص٥٥٢)؛ بَابُ: خَلْقِ آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ.

---

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٦)، و«التَّفْسِيرَ البَسِيطَ» لِلوَاحِدِيِّ (ج٩ ص٤٤٨)، وَ«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: عَنِ «**المِيْثَاقِ**» المَأْخُوذِ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا قَالُوا: ذَلِكَ، كَانَتْ أَنْفُسُهُمْ شَاهِدَةً عَلَيْهِمْ، وَكَانَتِ المَلَائِكَةُ شُهُوداً عَلَيْهِمْ أَيْضاً، بِأَخْذِ المِيْثَاقِ.(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٧٤): **(وَهَا هُنَا مَقَامَاتٌ:**

أَحَدُهَا: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، اسْتَخْرَجَ صُوَرَهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ، فَمَيَّزَ: شَقِيَّهُمْ وَسَعِيدَهُمْ، وَمُعَافَاهُمْ، مِنْ مُبْتَلَاهُمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَقَامَ عَلَيْهِم الحُجَّةَ حِينَئِذٍ، وَأَشْهَدَهُمْ: بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِمْ مَلَائِكَتَهُ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا تَفْسِيرَ، قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]). اهـ

* وَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَثْبَتَ الحُجَّةَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْفُوسٍ، مِمَّنْ بَلَغَ، وَمِمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ: «**بِالمِيْثَاقِ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، وَزَادَ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ مَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ، الحُجَّةَ بِالآيَاتِ، وَالدَّلَائِلِ، وَالبَرَاهِينِ، الَّتِي نَصَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي العَالَمِ، وَبِالرُّسُلِ المُنَفَّذَةِ إِلَيْهِمْ: مُبَشِّرِينَ، وَمُنْذِرِينَ، وَبِالمَوَاعِظِ، وَبِالمَثُلَاتِ، المَنْقُولَةِ إِلَيْهِمْ أَخْبَارُهَا؛ غَيْرَ أَنَّهُ عَزَّ

---

(١) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلْخَازِنِ (ج٢ ص٦١٠)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٤)، وَ«الإِتْقَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٤ ص٢٢٥)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٤)، وَ«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢ و٣٠٣).

وَجَلَّ لَا يُطَالِبُ أَحَداً مِنْهُمْ مِنَ الطَّاعَةِ؛ إِلَّا بِقَدَرِ مَا لَزِمَهُ مِنَ الحُجَّةِ، وَرَكَّبَ فِيْهِمْ مِنَ القُدْرَةِ، وَآتَاهُمْ مِنَ الآلَةِ.(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٩٢): (فَاللهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا ذَكَّرَهُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِهَذَا الإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُمْ قَطُّ بِإِقْرَارٍ سَابِقٍ عَلَىٰ إِيْجَادِهِمْ، وَلَا أَقَامَ بِهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةً.

* أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدِّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوْبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأَنْعَامُ:٥٥]؛ **أَيْ**: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ، وَالتَّبْيِيْنِ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيْمَانِ.

* وَهَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي فَصَّلَهَا هِيَ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهِيَ آيَاتٌ أَفَقِيَّةٌ وَنَفْسِيَّةٌ، آيَاتٌ فِي نُفُوسِهِمْ، وَذَوَاتِهِمْ، وَخَلْقِهِمْ، وَآيَاتٌ فِي الأَقْطَارِ، وَالنَّوَاحِي؛ مِمَّا يُحْدِثُهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، وَعَلَىٰ المَعَادِ وَالقِيَامَةِ، وَمِنْ أَبْيَنِهَا مَا أَشْهَدَ بِهِ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَخَالِقُهُ، وَمُبْدِعُهُ). اهـ

---

(١) وَانْظُرْ: «التَّفْسِيرَ البَسِيطَ» لِلوَاحِدِيِّ (ج٩ ص٤٤٩)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلْخَازِنِ (ج٢ ص٢٦٨)، و«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٩).

* فَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الأَخْذَ لِلْعَهْدِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ.

وَقَالَ الإِمَامُ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَةِ» (ص٣٠): (وَالمِيْثَاقُ: الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، مِنْ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَذُرِّيَّتِهِ: حَقٌّ). اهـ

قَوْلُهُ: «وَالمِيْثَاقُ: الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، مِنْ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَذُرِّيَّتِهِ: حَقٌّ»

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[1] وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا[2] يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، يُخْبِرُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي أَخْذِ الذُّرِّيَّةِ مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَتَمْيِيزِهِمْ إِلَىٰ أَصْحَابِ اليَمِينِ، وَإِلَىٰ أَصْحَابِ الشِّمَالِ، وَفِي بَعْضِهَا الإِشْهَادُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ.[3]

قُلْتُ: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ، بَعْدَ هَذَا الإِقْرَارِ مِنْهُمْ، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّهُمْ، وَخَالِقُهُمْ.[4]

---

(١) فِي الأُصُولِ: (**ذُرِّيَّاتِهِمْ**)؛ عَلَىٰ الجَمْعِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ: أَبِي عَمْرٍو، وَنَافِعٍ، وَابنِ عَامِرٍ، وَقَرَأَ: ابنُ كَثِيرٍ، وَعَاصِمٌ، وَحَمْزَةُ، وَالكِسَائِيُّ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ.

انْظُرْ: «حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠١ و٣٠٢)، وَ«زَادَ المَسِيرِ» لِابنِ الجَوْزِيِّ (ج٣ ص٢٨٤).

(٢) فِي الأُصُولِ: «**يَقُوْلُوا**» بِاليَاءِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ: أَبِي عَمْرٍو، وَقَرَأَ البَاقُونَ: ﴿أَنْ تَقُوْلُوا﴾.

(٣) وَانْظُرْ: «شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣٠٢ و٣٠٣).

(٤) وَانْظُرْ: «حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ:٢٥].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٣): (سُبْحَانَهُ: أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ، بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ:٢٥]؛ فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا: رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]) .اهـ

وَعَنِ الإِمَامِ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: (يُصَلَّىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَوْلُودٍ مُتَوَفًّىٰ، وَإِنْ كَانَ لِغَيَّةٍ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ: وُلِدَ عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، إِذَا اسْتَهَلَّ صَارِخًا صُلِّيَ عَلَيْهِ، وَلَا يُصَلَّىٰ عَلَىٰ مَنْ لَا يَسْتَهِلُّ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سِقْطٌ).[1]

وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: (أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي، يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا، حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٣ ص٢٦٠).

فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا).(١)

قُلْتُ: وَهَذَا الحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا فَسَّرَ بِهِ الأَئِمَّةُ: «**الفِطْرَةَ**»، أَنَّهَا دِيْنُ الإِسْلَامِ.(٢)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الرُّوْمُ:٣٠].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأَحْزَابُ:٧].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٠٢].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المَائِدَةُ: ٧].

قُلْتُ: فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ بِالإِيْمَانِ بِهِ، وَالإِقْرَارِ، وَالمَعْرِفَةِ بِاللهِ، وَأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِ، وَلِئَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا(٣)، فَآمَنُوا، وَصَدَّقُوا، وَعَرَفُوا، وَأَقَرُّوا.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٨٦٥)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ القُرْآنِ» (ص١٠٤)، وَأَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (ج٤ ص١٦٢ و٢٦٦)، وَالطَّيَالِسِيُّ فِي «المُسْنَدِ» (١٠٧٩).

(٢) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٧٣)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٣ ص٧١)، و(ج٧ ص٤٠٠)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٣١).

(٣) فَأَخَذَ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ: **المِيْثَاقَ**، أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٣ ص٢٢٢)، وَ«جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٦٤ و٥٦٥)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٢٧ و٥٢٨)، وَ«الكَلَامَ فِي مَسْأَلَةِ السَّمَاعِ» لَهُ (ص٣٨٣ و٣٨٥).

* فَهَذِهِ الأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ، وَأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، المُسْتَقِيمَةِ، طَاهِرِينَ مِنَ المَعَاصِي، مُنِيبِينَ: لِقَبُولِ الهِدَايَةِ.

* وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ، وَحَرَفَتْهُمْ، وَأَزَالَتْهُمْ عَنْ هَذِهِ الهِدَايَةِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَقَتَهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

* وَصَحَّ أَنَّ جَمِيعَ المَوَالِيدِ، يُوْلَدُونَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَهُوَ: «**المِيْثَاقُ الأَوَّلُ**»، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]، فَهُمْ: يُوْلَدُونَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَعَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ: آبَاؤُهُمْ، يَحْرِفُوهُمْ عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**» إِلَىٰ الضَّلَالَةِ.

وَعَنِ الإِمَامِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ الحَنْظَلِيِّ رحمه الله **قَالَ: فِي قَوْلِهِ: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ»؛ أَرَادَ بِهِ عَلَىٰ المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢].(١)

قُلْتُ: فَذَهَبَ الإِمَامُ إِسْحَاقُ بنُ رَاهُوْيَه رحمه الله، إِلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**»، أَرَادَ بِهِ عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**».

---

(١) **أَثَرٌ صَحِيحٌ**.

أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي «القَضَاءِ وَالقَدَرِ» (ج٣ ص٨٥٦).

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٣١): (فَصْلٌ: وَيَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا فَسَّرَ بِهِ الأَئِمَّةُ «**الفِطْرَةَ**» أَنَّهَا: «**الدِّينُ**»؛ مَا رَوَاهُ: مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ[1]: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»؛ وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُمْ خُلِقُوا عَلَىٰ الحَنِيفِيَّةِ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ اقْتَطَعَتْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْهَا، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْهَا.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* وَهَذَا يَتَنَاوَلُ إِخْرَاجَ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ مِنْ نُورِ الفِطْرَةِ إِلَىٰ ظُلْمَةِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَمِنَ النُّورِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ إِلَىٰ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالضَّلَالِ).اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٢٧)؛ عَنْ تَفْسِيرِ المِيْثَاقِ: بِالفِطْرَةِ، مُسْتَنِداً: إِلَىٰ السُّنَّةِ، وَدِلَالَةِ العَقْلِ، وَظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَالنَّظَائِرِ: (وَأَحْسَنُ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (ج٤ ص١٦٢ و٢٦٦)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٧١٦)، وَأَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي «المُسْنَدِ» (١٠٧٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ القُرْآنِ» (ص١٠٤).

مَا فُسِّرَتْ بِهِ الآيَةُ: قَوْلُهُ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ: فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ**»، فَالمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ، وَالإِشْهَادُ الَّذِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَالإِقْرَارُ الَّذِي أَقَرُّوا بِهِ هُوَ الفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَذْكُرُهُ، بَلْ بِمَا يُشْرَكُونَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَالإِقْرَارِ بِهِ، وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ آدَمَ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ ظَهْرِهِمْ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: «ذُرِّيَّتَهُ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، **وَهَذَا يَقْتَضِي إِقْرَارَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ إِقْرَارًا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الحُجَّةُ**، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ الإِقْرَارُ الَّذِي احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٨٤ - ٨٥]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرَبِّهِمْ، وَفَاطِرِهِمْ، وَيَدْعُوهُمْ: بِهَذَا الإِقْرَارِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَأَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي «الأَعْرَافِ» وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢] الآيَةَ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ و١٧٣]، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ،

وَعِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَأَلَّا يَعْتَذِرُوا، إِمَّا بِالغَفْلَةِ عَنِ الحَقِّ، وَإِمَّا بِالتَّقْلِيدِ فِي البَاطِلِ، **فَإِنَّ الضَّلَالَ لَهُ سَبَبَانِ**: إِمَّا غَفْلَةٌ عَنِ الحَقِّ، وَإِمَّا تَقْلِيدُ أَهْلِ الضَّلَالِ، فَيُطَابِقُ الحَدِيثَ مَعَ الآيَةِ، وَيُبَيِّنُ مَعْنَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا بِالآخَرِ). اهـ

وَالمِيْثَاقُ لَا يَخْلُو مِنْ قِسْمَيْنِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: المِيْثَاقُ العَامُّ، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ جَمِيعِ العِبَادِ فِي الغَيْبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

القِسْمُ الثَّانِي: المِيْثَاقُ الخَاصُّ، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ٨١]؛ فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَا أُنْزِلَ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ مِنَ الكِتَابِ، وَالحُكْمِ؛ **مِيْثَاقًا أَخَذَهُ مِنْ أُمَمِهِمْ بَعْدَهُمْ**.

* **يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ**؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ؛ لِلأُمَمِ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آلُ عِمْرَانَ:٨١]، فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ بُلُوغَ الأُمَمِ كِتَابَهُ المُنَزَّلَ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ؛ حُجَّةً عَلَيْهِمْ، كَأَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ فِي الغَيْبِ، وَجَعَلَ مَعْرِفَتَهُمْ بِهِ، إِقْرَاراً مِنْهُمْ.

* **وَشَبِيهٌ بِهِ**؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المَائِدَةُ:٧]؛ **فَهَذَا مِيْثَاقُهُ**: الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، بَعْدَ إِرْسَالِهِ سُبْحَانَهُ: رُسُلَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إِلَيْهِمْ بِالإِيْمَانِ بِهِ، وَتَصْدِيقِهِ.

* **وَنَظِيرُهُ**، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرَّعْدُ:٢٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠ و٦١]؛ **فَهَذَا عَهْدُهُ إِلَيْهِمْ**: عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* **وَمِثْلُهُ**: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البَقَرَةُ:٤٠]، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آلُ عِمْرَانَ: ١٨٧]، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأَحْزَابُ:٧].

* **فَهَذَا مِيْثَاقٌ**: أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْهُمْ، بَعْدَ بَعْثِهِمْ، كَمَا أَخَذَ مِنْ أُمَمِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ.

وَهَذَا المِيْثَاقُ: الَّذِي لَعَنَ سُبْحَانَهُ مَنْ نَقَضَهُ، وَعَاقَبَهُ، بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المَائِدَةُ:١٣]، فَإِنَّمَا عَاقَبَهُمْ بِنَقْضِهِمْ: «**المِيْثَاقَ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* وَقَدْ صَرَّحَ سُبْحَانَهُ بِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَةُ:٦٣].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَأْوِيلِ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» (ص٢٦١): (وَأَرَادَ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ، يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»، أَخْذَ: «**المِيْثَاقِ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَلَسْتَ: وَاجِداً، أَحَداً؛ إِلَّا وَهُوَ مُقِرٌّ بِأَنَّ لَهُ صَانِعاً، وَمُدَبِّراً.

* فَكُلُّ مَوْلُودٍ فِي العَالَمِ عَلَىٰ ذَلِكَ: «**العَهْدِ**»، وَ«**الإِقْرَارِ**»، وَهِيَ الحَنِيفِيَّةُ الَّتِي وَقَعَتْ فِي أَوَّلِ الخَلْقِ، وَجَرَتْ فِي فِطَرِ العُقُولِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي جَمِيعاً حُنَفَاءَ؛ فَاجْتَالَتْهُمُ: الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ**»(١)؛ ثُمَّ يُهَوِّدُ: اليَهُودُ أَبْنَاءَهُمْ، وَيُمَجِّسُ: المَجُوسُ أَبْنَاءَهُمْ؛ أَيْ: يُعَلِّمُونَهُمْ ذَلِكَ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابن بَطَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (ج١ ص٧١٨)، فِي كِتَابِ: «الرَّدِّ عَلَىٰ القَدَرِيَّةِ»: (فَأَمَّا هَذَا الحَدِيثُ؛ فَإِنَّ بَيَانَ وَجْهِهِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَ العُلَمَاءِ وَالعُقَلَاءِ: بَيَانٌ لَا يَخْتَلُّ عَلَىٰ مَنْ وَهَبَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُ فَهْمَهُ، وَفَتَحَ أَبْصَارَ قَلْبِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢١٦٥)، وَأَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (ج٤ ص١٦٢)، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «المُصَنَّفِ» (٢٠٨٨)، وَالحَرْبِيُّ فِي «غَرِيبِ الحَدِيثِ» (ج١ ص١١١)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «القَضَاءِ وَالقَدَرِ» (٥٤٩)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (ج٧ ص٩٨٧)، وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (٦٥٣)، وَابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٧٣) مِنْ حَدِيثِ عِيَاضٍ المُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢].

* ثُمَّ جَاءَتِ الأَحَادِيثُ بِتَفْسِيرِ ذَلِكَ: أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ[1]، فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ «**العَهْدَ**»، وَ«**المِيثَاقَ**» بِأَنَّهُ رَبَّهُمْ، فَأَقَرُّوا لَهُ بِذَلِكَ أَجْمَعُونَ، ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ[2]، ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠].

* فَكَانَتِ البِدَايَةُ الَّتِي ابْتَدَأَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الخَلْقَ بِهَا وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ بِدَايَةَ خَلْقِهِمُ: الإِقْرَارُ لَهُ بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَهِيَ: الفِطْرَةُ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابن بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (ج١ ص٧١٨)؛ فِي كِتَابِ: «الرَّدِّ عَلَىٰ القَدَرِيَّةِ»**: (فَقَوْلُهُ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ، يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»؛ يَعْنِي: عَلَىٰ تِلْكَ البِدَايَةِ الَّتِي ابْتَدَأَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقَهُ بِهَا، وَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَيْهَا مِنَ الإِقْرَارِ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ السَّخَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «المُغِيثِ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» (ص٣١٤)**: (وَأَرَادَ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»؛ أَخْذَ المِيْثَاقَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ، فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَلَسْتَ: وَاجِداً، أَحَداً؛ إِلَّا وَهُوَ مُقِرٌّ بِأَنَّ لَهُ صَانِعاً، وَمُدَبِّراً.

---

(١) هَذَا الحَدِيثُ لَمْ يَثْبُتْ، لَكِنْ ثَبَتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَاطَبَهُمْ، وَهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَقَدْ سَبَقَ.

(٢) ثُمَّ رَدَّهُمْ فِي صُلْبِ آدَمَ، هَذَا أَيْضاً: لَمْ يَثْبُتْ فِي السُّنَّةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥].

* فَكُلُّ مَوْلُودٍ فِي العَالَمِ عَلَىٰ ذَلِكَ: «**العَهْدِ**»، وَ«**الإِقْرَارِ**»، وَهِيَ الحَنِيفِيَّةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِأَوَّلِ الخَلْقِ، وَجَرَتْ فِي فِطَرِ العُقُولِ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي جَمِيعًا حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ**».(١)

* ثُمَّ هَوَّدَتِ: اليَهُودُ أَبْنَاءَهُمْ، وَمَجَّسَتِ: المَجُوسُ أَبْنَاءَهُمْ؛ أَيْ: يُعَلِّمَانِهِمْ ذَلِكَ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابن بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (ج١ ص٧٢٠)؛ فِي كِتَابِ: «الرَّدِّ عَلَىٰ القَدَرِيَّةِ»: (وَإِنَّمَا قَوْلُهُ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ، يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»؛ إِنَّمَا أَرَادَ: أَنَّهُمْ يُولَدُونَ عَلَىٰ تِلْكَ البِدَايَةِ، الَّتِي كَانَتْ فِي صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِنَ الإِقْرَارِ للهِ بِالمَعْرِفَةِ، ثُمَّ أَعْرَبَتْ عَنْهُمْ أَلْسِنَتُهُمْ، وَنُسِبُوا إِلَىٰ آبَائِهِمْ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابن بَطَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (ج١ ص٧٢٠)؛ فِي كِتَابِ: «الرَّدِّ عَلَىٰ القَدَرِيَّةِ»: (وَسَائِرُ المِلَلِ: فَمُقِرُّونَ بِتِلْكَ الفِطْرَةِ، الَّتِي كَانَتْ فِي البِدَايَةِ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ تَلْقَىٰ أَحَدًا، مِنْ أَهْلِ المِلَلِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا؛ إِلَّا وَهُوَ مُقِرٌّ بِأَنَّ اللهَ: رَبُّهُ، وَخَالِقُهُ، وَرَازِقُهُ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَافِرٌ، حِينَ خَالَفَ شَرِيعَةَ الإِسْلَامِ). اهـ

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢١٦٥).

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «تَأْوِيلِ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» (ص٢٦١): (وَالفِطْرَةُ هُنَا: الابْتِدَاءُ وَالإِنْشَاءُ؛ وَمِنْهُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فَاطِرُ: ١]؛ أَيْ: مُبْتَدِئَهَا.

* وَكَذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ يُرِيدُ: جِبِلَّتَهُ الَّتِي جَبَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ السَّخَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «المُغِيثِ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» (ص٣١٣): (ثُمَّ اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ: أَنَّ مَعْنَىٰ؛ الفِطْرَةَ هَا هُنَا: الابْتِدَاءُ، وَالإِنْشَاءُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤]؛ أَيْ: مُبْتَدِئَهَا.

* وَكَذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ يُرِيدُ: بِجِبِلَّتِهِ الَّتِي جَبَلَ النَّاسَ عَلَيْهَا). اهـ

قُلْتُ: فَلَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ، إِلَّا عَلَىٰ هَذِهِ الفِطْرَةِ، حَتَّىٰ يُعَبِّرُ عَنْهُ لِسَانُهُ، أَيْ: عَلَىٰ المِلَّةِ، حَتَّىٰ يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ.(١)

قُلْتُ: فَقَدْ قَامَتْ عَلَىٰ العِبَادِ الحُجَّةُ عَلَىٰ وَجْهِ الإِجْمَالِ، لِمُخَالَفَتِهِمْ: لِحُجَّةِ الفِطْرَةِ، مِنْ دُوْنِ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِمْ حُجَّةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ بِالكُتُبِ، إِلَّا مِنْ بَابِ التَّذْكِيرِ،

---

(١) وَانْظُرْ: «مُشْكِلَ الآثَارِ» لِلطَّحَاوِيِّ (ج٤ ص١٥ و١٧)، وَ«القَضَاءَ وَالقَدَرَ» لِلبَيْهَقِيِّ (ج٣ ص٨٦٦)، وَ«الاسْتِذْكَارِ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج٨ ص٣٧٢)، وَ«التَّحْرِيرَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ص٦٠٤ و٦٠٥)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٣٥٩).

وَالتَّعْلِيمِ، عَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ، لِتَأْكِيدِ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، عَلَىٰ وَجْهِ الإِجْمَالِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ التَّفْصِيلِ.(١)

قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ: (سَمِعْتُ إِسْحَاقَ بنَ رَاهَوَيْه؛ يَذْهَبُ إِلَىٰ هَذَا المَعْنَىٰ، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ:٣٠]؛ **قَالَ إِسْحَاقُ**: يَقُولُ: لَا تَبْدِيلَ لِخِلْقَتِهِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا وَلَدُ آدَمَ كُلُّهُمْ، **يَعْنِي**: مِنَ الكُفْرِ، وَالإِيمَانِ، وَالمَعْرِفَةِ، وَالإِنْكَارِ.(٢)

* **وَاحْتَجَّ إِسْحَاقُ أَيْضًا**؛ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢] الآيَةَ؛ **قَالَ إِسْحَاقُ**: أَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ أَنَّهَا الأَرْوَاحُ قَبْلَ الأَجْسَادِ؛ اسْتَنْطَقَهُمْ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ **فَقَالَ**: انْظُرُوا أَلَّا تَقُولُوا : ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢، ١٧٣])(٣). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رحمه الله **فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ» (ج١ ص٩٢)**: (لَيْسَ بَيْنَ التَّفْسِيرَيْنِ مُنَافَاةٌ، وَلَا مُضَادَّةٌ، وَلَا مُعَارَضَةٌ؛ فَإِنَّ هَذِهِ المَوَاثِيقَ كُلَّهَا ثَابِتَةٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

---

(١) **وَالفِطْرَةُ**: فِي الحَقِيقَةِ أَيْضًا، أَتَتْ تَصْدِيقًا لِمَا جَاءَ فِي: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، مِنْ إِقْرَارِ العِبَادِ: بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فِي أُلُوهِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ.

(٢) **فِي حَالِ بُلُوغِهِ**: لِلسِّنِّ المُعْتَبَرِ شَرْعًا، فِي التَّكْلِيفِ، فَتَنَبَّه.

(٣) نَقَلَهُ: عَنْهُ الإِمَامُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٨٤).

الأَوَّلُ المِيثَاقُ: الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَهُوَ الَّذِي قَالَهُ جُمْهُورُ المُفَسِّرِينَ رَحِمَهُمُ اللهُ، فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَهُوَ نَصُّ الأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَغَيْرِهِمَا.

المِيثَاقُ الثَّانِي: مِيثَاقُ الفِطْرَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَطَرَهُمْ شَاهِدِينَ بِمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ؛ فِي **المِيثَاقِ الْأَوَّلِ**: كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّومِ: ٣٠]؛ الآيَةَ: وَهُوَ الثَّابِتُ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ، وَالأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ ﷺ، وَغَيْرِهَا، مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»، وَغَيْرِهِمَا.

المِيثَاقُ الثَّالِثُ: هُوَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَأُنْزِلَتْ بِهِ الكُتُبُ **تَجْدِيدًا لِلْمِيثَاقِ الأَوَّلِ، وَتَذْكِيرًا بِهِ**: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٦٥]؛ **فَمَنْ أَدْرَكَ هَذَا المِيثَاقَ**، وَهُوَ بَاقٍ عَلَىٰ فِطْرَتِهِ الَّتِي هِيَ شَاهِدَةٌ بِمَا ثَبَتَ فِي: «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**»، فَإِنَّهُ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، وَلَا يَتَوَقَّفُ؛ **لِأَنَّهُ جَاءَ مُوَافِقًا؛ لِمَا فِي فِطْرَتِهِ، وَمَا جَبَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَيَزْدَادُ بِذَلِكَ يَقِينُهُ، وَيَقْوَىٰ إِيمَانُهُ، فَلَا يَتَلَعْثَمُ، وَلَا يَتَرَدَّدُ**، وَمَنْ أَدْرَكَهُ وَقَدْ تَغَيَّرَتْ فِطْرَتُهُ عَمَّا جَبَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِمَا ثَبَتَ فِي: «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**»؛ بِأَنْ كَانَ قَدِ اجْتَالَتْهُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِ، وَهَوَّدَهُ أَبَوَاهُ، أَوْ نَصَّرَاهُ، أَوْ مَجَّسَاهُ؛ فَهَذَا إِنْ تَدَارَكَهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِرَحْمَتِهِ: فَرَجَعَ إِلَىٰ فِطْرَتِهِ، وَصَدَّقَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الكُتُبُ؛ نَفَعَهُ: «**المِيثَاقُ الأَوَّلُ**»، وَ« **المِيثَاقُ الثَّانِي**»، وَإِنْ كَذَّبَ بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**»، كَانَ

مُكَذِّبًا: «**بِالأَوَّلِ**»، فَلَمْ يَنْفَعْهُ إِقْرَارُهُ بِهِ يَوْمَ أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿بَلَىٰ﴾؛ جَوَابًا: لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ **وَقَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللهِ**، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَحَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ، وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ). اهـ

وَقَالَ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الوَاسِطِيَّةِ» (ج١ ص٥٨): (**وَأَمَّا دِلَالَةُ الفِطْرَةِ**: فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَمْ تَنْحَرِفْ فِطَرُهُمْ، يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، حَتَّىٰ البَهَائِمَ العُجْمِ: تُؤْمِنُ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ.

فَالفِطَرُ: مَجْبُولَةٌ عَلَىٰ مَعْرِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَوْحِيدِهِ.

* **وَقَدْ أَشَارَ اللهُ تَعَالَىٰ**: إِلَىٰ ذَلِكَ؛ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ - ١٧٣]؛ **فَهَذِهِ الآيَةُ**: تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ مَجْبُولٌ بِفِطْرَتِهِ عَلَىٰ شَهَادَتِهِ بِوُجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، **وَسَوَاءٌ أَقُلْنَا**: إِنَّ اللهَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ وَاسْتَشْهَدَهُمْ، **أَوْ قُلْنَا**: إِنَّ هَذَا هُوَ مَا رَكَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي فِطَرِهِمْ مِنَ الإِقْرَارِ بِهِ، فَإِنَّ الآيَةَ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الإِنْسَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ بِفِطْرَتِهِ). اهـ

قُلْتُ: بِهَذَا فَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذَا الإِشْهَادَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ.

فَهَذَا المِيْثَاقُ: جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ حُجَّةً مُسْتَقِلَّةً عَلَىٰ الخَلْقِ كُلِّهِمْ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ الفِطْرَةَ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا مِنَ الإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ.

* **وَلِهَذَا**؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾؛ أَيْ: لِئَلَّا تَقُولُوا: يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ **أَيْ**: عَنِ التَّوْحِيدِ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣].(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرَّعْدُ:٢٥].

قُلْتُ: فَمَنْ لَمْ يُدْرِكِ: «**المِيْثَاقَ الثَّالِثَ**»، وَهُوَ بُلُوغُهُ القُرْآنُ بِالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ، بَعْدَ بُلُوغِهِ في السِّنِّ المُعْتَبَرِ شَرْعـًا في التَّكْلِيفِ، وَ«**المِيْثَاقَ الرَّابِعَ**»، وَهُوَ بُلُوغُهُ دَعْوَةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

* بِأَنْ مَاتَ صَغِيراً، قَبْلَ التَّكْلِيفِ، فَهُوَ: مَاتَ عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ الثَّانِي**»، عَلَىٰ الفِطْرَةِ.

* فَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُسْلِمِينَ، فَهُمْ مَعَ آبَائِهِمْ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُشْرِكِينَ، فَقَدْ أَدْرَكَهُمْ: «**المِيْثَاقُ الأَوَّلُ**»، وَ«**المِيْثَاقُ الثَّانِي**»، فَهُمْ: مَاتُوا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، رَحْمَةً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ.

قَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَعَارِجِ القَبُولِ، بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ إِلَىٰ عِلْمِ الأُصُولِ» (ج١ ص٩٦): (فَذَاكَ: أَيِ؛ المُكَذِّبُ بِالكِتَابِ، وَبِمَا أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ رُسُلَهُ الآبِي مِنْهُ المُعْرِضُ عَنْهُ المُصِرُّ، عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ مَاتَ عَلَيْهِ هُوَ: «**نَاقِضٌ كِلَا العَهْدَيْنِ**»؛ **المِيثَاقِ**: الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَفَطَرَهُ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، مِنْ تَجْدِيدِ: «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**» ،وَإِقَامَةِ الحُجَّةِ:

---

(١) وَانْظُرْ: «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٢ ص٣٧٥).

«**مُسْتَوْجِبٌ**»؛ بِفِعْلِهِ ذَلِكَ: «**لِلْخِزْيِ فِي الدَّارَيْنِ**»؛ أَيْ: فِي الدُّنْيَا، وَالآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القَصَصُ: ٤٢]). اهـ

* **فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ**: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ يَعْنِي: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَنْ يَقُولُوا؛ أَيْ: لِئَلَّا يَقُولُوا، أَوْ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَقُولُوا.

* **وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ، فَتَقْدِيرُ الكَلَامِ**: أُخَاطِبُكُمْ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ: لِئَلَّا تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَنْ هَذَا «**المِيثَاقِ**»، وَالإِقْرَارِ.

* **فَإِنْ قِيلَ**: كَيْفَ يُلْزَمُ الحُجَّةَ وَاحِداً، لَا يَذْكُرُ: «**المِيْثَاقَ**»؟، قِيْلَ: قَدْ أَوْضَحَ اللهُ تَعَالَىٰ، الدَّلَائِلَ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقِ رُسُلِهِ، فِيمَا أَخْبَرُوا.

* **فَمَنْ أَنْكَرَهُ**: كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً: لِلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُ الحُجَّةُ، وَبِنِسْيَانِهِمْ، وَعَدَمِ حِفْظِهِمْ: لَا يَسْقُطُ الاحْتِجَاجُ بَعْدَ إِخْبَارِ المُخْبِرِ، صَاحِبِ المُعْجِزَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ **يَقُولُ تَعَالَىٰ**: إِنَّمَا أَخَذَ: «**المِيْثَاقَ**» عَلَيْكُمْ لِئَلَّا تَقُولُوا: أَيُّهَا المُشْرِكُونَ، إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَنَقَضُوا العَهْدَ، وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ؛ **أَيْ**: كُنَّا أَتْبَاعاً لَهُمْ فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ، فَتَجْعَلُوا هَذَا عُذْراً لِأَنْفُسِهِمْ، وَتَقُولُوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٣]؛ افْتُعَذِّبُنَا بِجِنَايَةِ: آبَائِنَا المُبْطِلِينَ؛ فَلَا يُمَكِّنَهُمْ: أَنْ يُمْكِنَهُمْ، أَنْ يَحْتَجُّوا بِمِثْلِ هَذَا الكَلَامِ، بَعْدَ تَذْكِيرِ اللهِ تَعَالَىٰ: بِأَخْذِ «**المِيثَاقِ**» عَلَىٰ التَّوْحِيدِ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ

الْآياتِ﴾؛ أَيْ: نُبَيِّنُ الآيَاتِ؛ لِيَتَدَبَّرَهَا العِبَادُ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٣]، مِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ.(١)

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٧٥): (وَذَهَبَ طَائِفَةٌ: مِنَ السَّلَفِ، وَالخَلَفِ؛ أَنَّ المُرَادَ: بِهَذَا الإِشْهَادِ، إِنَّمَا هُوَ: فَطْرُهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «عَلَىٰ هَذِهِ المِلَّةِ».). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ» (ج١ ص٢٨):

وَبَعْدَ هَـذَا رُسْـلَهُ قَـدْ أَرْسَـلَا
لَهُمْ وَبِالْحَـقِّ الْكِتَـابَ أَنْـزَلَا
لِكَيْ بِذَا الْعَهْـدِ يُذَكِّرُوهُـمْ
وَيُنْـذِرُوهُـمْ وَيُبَشِّـرُوهُـمْ
كَيْ لَا يَكُـونَ حُجَّـةٌ لِلنَّاسِ بَلْ
لِلَّهِ أَعْـلَىٰ حُجَّـةٍ عَـزَّ وَجَـلْ
فَمَنْ يُصَدِّقْهُـمْ بِلَا شِقَـاقِ
فَقَـدْ وَفَىٰ بِـذَلِكَ الْمِيثَـاقِ

(١) انْظُرْ: «مَعَالِمَ التَّنْزِيلِ» لِلبَغَوِيِّ (ج٢ ص٥٦٨)؛ وَ«مَعَارِجَ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ إِلَىٰ عِلْمِ الأُصُولِ» لِلْحَكَمِيِّ (ج١ ص٩٠ و٩١).

وَذَاكَ نَـــــاجٍ مِنْ عَــذَابِ النَّــارِ
وَذَلِكَ الْـــــوَارِثُ عُقْبَىٰ الـــــــدَّارِ

وَمَنْ بِهِــــمْ وَبِالْكِتَــابِ كَذَّبَــا
وَلَازَمَ الْإِعْــــــرَاضَ عَنْـــهُ وَالْإِبَــا

فَذَاكَ نَاقِـــــضٌ كِلَا الْعَهْــدَيْنِ
مُسْتَــــوْجِبٌ لِلْخِـــزْيِ فِي الـــدَّارَيْنِ

* **(وَبَعْدَ هَذَا)**؛ أَيِ: «**المِيثَاقِ**» الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ فِي ظَهْرِ أَبِيهِمْ؛ ثُمَّ فَطَرَهُمْ وَجَبَلَهُمْ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِهِ، وَخَلَقَهُمْ شَاهِدِينَ بِهِ: **(رُسْلَهُ)**؛ بِإِسْكَانِ السِّينِ: لِلوَزْنِ، مَفْعُولُ: أَرْسَلَ مُقَدَّمٌ، **(قَدْ أَرْسَلَا)**؛ بِأَلْفِ الإِطْلَاقِ: **(لَهُمْ)**؛ أَيْ: إِلَيْهِمْ: **(وَبِالحَقِّ)**؛ مُتَعَلِّقٌ بِأَنْزَلَ؛ أَيْ: بِدِينِ الحَقِّ: **(الكِتَابَ)**؛ جِنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ الرُّسُلِ: **(أَنْزَلَا)**؛ بِأَلْفِ الإِطْلَاقِ، وَالأَمْرُ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ الرُّسُلَ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ بِهِ الكُتُبَ هُوَ: **(لِكَيْ بِذَا العَهْدِ)**: المِيثَاقِ الأَوَّلِ: **(يُذَكِّرُوهُمْ)**؛ تَجْدِيدًا لَهُ، وَإِقَامَةً لِحُجَّةِ اللهِ البَالِغَةِ عَلَيْهِمْ: **(وَيُنْذِرُوهُمْ)**؛ عِقَابَ اللهِ إِنْ هُمْ عَصَوْهُ وَنَقَضُوا عَهْدَهُ: **(وَيُبَشِّرُوهُمْ)**؛ بِمَغْفِرَتِهِ، وَرِضْوَانِهِ إِنْ هُمْ: وَفَّوْا بِعَهْدِهِ، وَلَمْ يَنْقُضُوا مِيثَاقَهُ، وَأَطَاعُوهُ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ، **وَالحِكْمَةُ**: فِي ذَلِكَ لِـ**(كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ)**؛ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **(لِلنَّاسِ بَلْ لِلَّهِ)** عَلَىٰ جَمِيعِ عِبَادِهِ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ حَافِظُ الحَكَمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «مَعَارِجِ القُبُولِ بِشَرْحِ سُلَّمِ الوُصُولِ»** **(ج١ ص٢٨)**: (مُقَدِّمَةٌ: تُعَرِّفُ العَبْدَ بِمَا خُلِقَ لَهُ وَبِأَوَّلِ مَا فَرَضَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، وَبِمَا أَخَذَ اللهُ عَلَيهِ بِهِ: «**المِيثَاقَ**» فِي ظَهْرِ أَبِيهِ آدَمَ، وَبِمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ:

اعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا
لَمْ يَتْرُكِ الْخَلْقَ سُدًى وَهَمَلَا
بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ
وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفْرِدُوهُ
أَخْرَجَ فِيمَا قَدْ مَضَىٰ مِنْ ظَهْرِ
آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ كَالذَّرِّ
وَأَخَذَ الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ
لَا رَبَّ مَعْبُودٌ بِحُقٍّ غَيْرُهُ
وَبَعْدَ هَذَا رُسْلَهُ قَدْ أَرْسَلَا
لَهُمْ وَبِالْحَقِّ الْكِتَابَ أَنْزَلَا
لِكَيْ بِذَا الْعَهْدِ يُذَكِّرُوهُمْ
وَيُنْذِرُوهُمْ وَيُبَشِّرُوهُمْ[1]
كَيْ لَا يَكُونَ حُجَّةٌ لِلنَّاسِ بَلْ
لِلَّهِ أَعْلَىٰ حُجَّةٍ عَزَّ وَجَلْ
فَمَنْ يُصَدِّقْهُمْ بِلَا شِقَاقِ
فَقَدْ وَفَىٰ بِذَلِكَ الْمِيثَاقِ
وَذَاكَ نَاجٍ مِنْ عَذَابِ النَّارِ

(١) في **النسخة الخطية**: وَيُنْذِرُوهُمْ، وَيُحَذِّرُوهُمْ.

وَذَلِكَ الْـــــوَارِثُ عُقْبَىٰ الـــــدَّارِ

وَمَنْ بِهِـــــمْ وَبِالْكِتَـــابِ كَذَّبَـــا

وَلَازَمَ الْإِعْـــــرَاضَ عَنْـهُ وَالْإِبَـــا

فَـــذَاكَ نَاقِضٌ كِـــلَا الْعَهْـدَيْنِ

مُسْتَوْجِـــبٌ لِلْخِـــزْيِ فِي الـــدَّارَيْنِ

قُلْتُ: فَبَيَّنَ الشَّيْخُ الحَكَمِيُّ رحمه الله؛ عَنْ أَصْلِ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**» الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ، فِي ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، ثُمَّ فَطَرَهُمْ، وَجَبَلَهُمْ عَلَىٰ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ هَذَا: «**المِيْثَاقَ**»، حُجَّةً فِي نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ يَكْفِي فِي إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَعَذَابِهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ.

* **ثُمَّ بَيَّنَ الشَّيْخُ الحَكَمِيُّ** رحمه الله: أَنَّ بُلُوغَ الكُتُبِ وَحُجَّتَهَا عَلَىٰ الخَلْقِ، وَحُجَّةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ عَلَيهِمْ إِلَّا لِلتَّذْكِيرِ فَقَطْ[1]، بِـ«**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، وَتَجْدِيداً لَهُ، وَزِيَادَةَ عَذَابٍ، مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُعْرِضِ بِحَسَبِهِ عَنِ التَّوْحِيدِ.

* **وَالسَّلَفُ وَالخَلَفُ**: قَالُوا: أَنَّ المُرَادَ بِهَذَا الاشْهَادِ، إِنَّمَا هُوَ فَطَرَهُمْ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، لَمَّا اسْتَخْرَجُوا مِنْ صُلْبِ آدِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.[2]

---

(١) **قُلْتُ**: وَالعَذَابُ فِي الخَلْقِ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، هُوَ دَرَجَاتٌ، بِحَسَبِ نَقْضِ المَوَاثِيقِ.

(٢) وَانْظُرْ: «تُفْسِيرَ القُرْآنِ» لابنِ كَثِيرٍ (ج٢ ص٢٦٤)، و«زَادَ المَسِيرَ» لابنِ الجَوْزِيِّ (ج٣ ص٢٨٦)، و«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» لابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٤٨٢ و٤٨٣).

* **فَيَرَىٰ أَهْلُ العِلْمِ**: أَنَّ العَهْدَ هَذَا يَكْفِي؛ لِمُؤَاخَذَةِ الخَلْقِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْهِمْ؛ بِمُقْتَضَىٰ هَذَا العَهْدِ، وَأَنَّ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمْ السَّلاَمُ، إِنَّمَا هِيَ: تُذَكِّرُهُمْ بِذَلِكَ العَهْدِ، وَتُجَدِّدُهُ، الَّذِي نَسَوْهُ.

* وَعَلَىٰ هَذَا يَكُونُ هَذَا «**المِيثَاقِ الأَوَّلِ**»، حُجَّةٌ يُؤَاخَذُ عَلَيْهِ العَبْدَ، وَيُكْتَفَىٰ بِهِ عَنْ مَجِيءِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، لِعِقَابَ مَنْ لَمْ يَأْتِهِ: رَسُولٌ، وَلاَ نَذِيرٌ، إِنْ وُجِدَ، وَلاَ يُوجَدُ.

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله **فِي «الفَتَاوَىٰ» (ج٤ ص٢٤٦)؛ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ**: (اذْكُرْ حِينَ أُخِذُوا مِنْ أَصْلاَبِ الْآبَاءِ فَخُلِقُوا حِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الْفِطْرَةِ مُقِرِّينَ بِالْخَالِقِ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ). اهـ

قُلْتُ: فَقَدْ بَيَّن رحمك الله، أَنَّ هَذَا العَهْدَ، إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهِ: «الفِطْرَةُ»، الَّتِي فَطَرَهُمْ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهَا، وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ فِي الغَيْبِ.

ثَانِيًا: حُجَّةُ الفِطْرَةِ:

فَمِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ: عَلَىٰ عِبَادِهِ، الَّتِي يَحُجُّهُمْ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حُجَّةُ: «**الفِطْرَةِ**» الَّتِي أَخَذَهَا عَلَيْهِمْ، وَهُمْ: فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: بَعْضًا عَلَىٰ بَعْضٍ، عَلَىٰ وُحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَقَطَعَ بِهَا أَعْذَارَهُمْ، وَحَذَّرَهُم مِنَ الغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا، عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، وَمِنْ أَنْ لَا يَفُونَ بِهِ، أَوْ أَنْ يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ، بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، وَالأَسْلاَفِ عَلَىٰ الضَّلاَلِ، وَالشِّرْكِ.

قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

* **تَعْرِيفُ الفِطْرَةِ لِغَةً:**

* فَطَرَ اللهُ تَعَالَىٰ الخَلْقَ؛ أَيْ: خَلَقَهُمْ، وابْتَدَأَ صَنْعَةَ الأَشْيَاءِ.

* وَهُوَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضِ.

* والفِطْرَةُ: الَّتِي طُبِعَتْ عَلَيْهَا الخَلِيقَةُ مِنَ الدِّينِ، فَطَرَهُمْ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ: بِرُبُوبِيَّتِهِ.

* وَانْفَطَرَ الثَّوْبُ، وَتَفَطَّرَ؛ أَيْ: انْشَقَّ، وَتَفَطَّرَتِ الجِبَالُ، وَالأَرْضُ: انْصَدَعَتْ.(١)

* وَعَلَىٰ هَذَا، فَلَفْظُ: «فَطَرَ»، يَدُورُ مَعْنَاهُ: عَلَىٰ الشَّقِّ، وَالابْتِدَاءِ، والخَلْقِ.

قَالَ الجَوْهَرِيُّ اللُّغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الصِّحَاحِ» (ج٢ ص٧٨١): (والفِطْرَةُ بالكَسْرِ: الخِلْقَةُ. وَقَدْ فَطَرَهُ يَفْطُرُهُ بالضَّمِّ فَطْراً، أَيْ: خَلَقَهُ. والفَطْرُ أَيْضاً: الشَّقُّ. يُقَالُ: فَطَرْتُهُ فَانْفَطَرَ، وَتَفَطَّرَ الشَّيْءُ: تَشَقَّقَ، وَالفَطْرُ: الابْتِدَاءُ والاخْتِرَاعُ). اهـ

* **تَعْرِيفُ الفِطْرَةِ شَرْعاً:**

الفِطْرَةُ: هِيَ الإِسْلاَمُ.

* وَلَيْسَ مَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ العَبْدَ لَمَّا يُولَدُ يَعْرِفُ الإِسْلاَمَ بِتَفَاصِيلِهِ؛ بَلْ الفِطْرَةُ: هِيَ القُوَّةُ العَلْمِيَّةُ، الَّتِي تَقْتَضِي بِذَاتِهَا الإِسْلاَمَ، مَالَمْ يَمْنَعْهَا مَانِعٌ.

* وَهِيَ السَّلاَمَةُ مِنَ الاعْتِقَادَاتِ البَاطِلَةِ، والقَبُولُ للعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ.

---

(١) وانْظُرْ: «العَيْنَ» للخَلِيلِ (ج٧ ص٤١٨)، و«لِسَانَ العَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ (ج٥ ص٥٥ و٥٨)، و«المِصْبَاحَ المُنِيرِ» للفَيُّومِيِّ (ج٢ ص٤٧٦ و٤٧٧)، و«جَامِعَ البَيَانِ» للطَّبَرِيِّ (ج١١ ص٢٨٣)، و«تَهْذِيبَ اللُّغَةِ» للأَزْهَرِيِّ (ج٣ ص٢٨٠٢)، و«القَامُوسَ المُحِيطَ» للفَيْرُوزَ آبَادِيِّ (ص٤٨١).

وَالقَوْلُ: بِأَنَّ الفِطْرَةَ؛ هِيَ الإِسْلاَمُ، هُوَ قَوْلُ عَامَّةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ.(١)

* **والعِلاَقَةُ: بَيْنَ المَعْنَىٰ؛ اللُّغَوِيُّ، وَبَيْنَ المَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ:**

- **مَعْنَىٰ الفِطْرَةَ فِي اللُّغَةِ:** يَدُلُّ عَلَىٰ الخَلْقِ، وَابْتِدَاءِ الشَّيْءِ.

- **وَالمَعْنَىٰ الشَّرْعِيِّ:** يَدُلُّ عَلَىٰ خَلْقِ النَّاسِ عَلَىٰ وَضْعٍ، مُعَيِّنٍ: وَهُوَ الإِسْلاَمُ، والقَبُولُ للعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ.

* فالفِطْرَةُ، هِيَ حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، حَيْثُ مَا مِنْ مَوْلُودٍ؛ إِلاَّ وَهُوَ يُولَدُ عَلَىٰ فِطْرَةٍ: الإِسْلاَمِ، وَالإِيمَانِ باللهِ تَعَالَىٰ.(٢)

قَالَ الحَافِظُ ابنُ الأَثِيرِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «النِّهَايَةِ فِي غَرِيبِ الحَدِيثِ» (ج٤ ص٣٨٦):

(فَطَرَ: فِيهِ «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»؛ **الفَطْرُ**: الابْتِدَاءُ والاخْتِرَاعُ، **والفِطْرَةُ**: الْحَالَةُ مِنْهُ، كالجِلْسَةِ والرِّكْبَةِ، **وَالْمَعْنَىٰ** أَنَّهُ يُولَدُ عَلَىٰ نَوْعٍ مِنَ الْجِبِلَّةِ، وَالطَّبْعِ الْمُتَهَيِّئِ لِقَبُولِ الدِّينِ، فَلَوْ تُرِكَ عَلَيْهَا لاسْتَمَرَّ عَلَىٰ لُزُومِهَا، وَلَمْ يُفَارِقْهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا، وَإِنَّمَا يَعْدِلُ عَنْهُ

---

(١) وَانْظُرْ: «الفَتَاوَىٰ» لابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٤ ص٢٤٥ و٢٤٧)، و«دَرْءَ تَعَارِضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» لَهُ (ج٨ ص٣٦٧ و٣٧١ و٣٧٣)، و«التَّمْهِيدَ» لابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٧٢)، و«فَتْحَ البَارِي» لابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٤٨)، و«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٣٥)، و«شَفَاءَ العَلِيلَ» لَهُ (ص٢٨٥)، و«الجَامِعَ لأَحْكَامِ القُرْآنِ» للقُرْطُبِيِّ (ج١٤ ص٢٦)، و«جَامِعَ البَيَانِ» للطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص١٩٣)، و«تَهْذِيبَ اللُّغَةِ» للأَزْهَرِيِّ (ج٣ ص٢٨٠٥)، و«النِّهَايَةَ فِي غَرِيبِ الحَدِيثِ» لابنِ الأَثِيرِ (ج٤ ص٣٨٦).

(٢) **قُلْتُ**: رُغْمُ أَنَّ الحُجَّةَ تَقُومُ عَلَىٰ العِبَادِ، بِحُجَّةِ: «**المِيثَاقِ**»، و«**الفِطْرَةِ**» الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، والآيَاتِ العِظَامِ، الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ فِي هَذَا الكَوْنِ وَالآفَاقِ، مِنْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ بَاهِرَاتٍ، الدَّالَّةُ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إِلاَّ أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ: الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ، لِتَذْكِيرِهِمْ، ونِذَارَتِهِمْ، وتَعْلِيمِهِمْ، وذَلِكَ لِتَأْكِيدِ قِيَامِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الجُمْلَةِ، وَفِي التَّفْصِيلِ.

مَنْ يَعْدِلُ لآفَةٍ مِنْ آفَاتِ البَشَرِ والتَّقْلِيدِ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَوْلَادِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فِي اتِّبَاعِهِمْ لِآبَائِهِمْ، والمَيْلِ إِلَىٰ أَدْيانِهِمْ عَنْ مُقْتَضَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ حَزْمٍ فِي «الإِحْكَامِ» (ج٥ ص١٠٥): (فَصَحَّ بِهَذَا كُلِّهِ ضَرُورَةُ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مَوْلُودُونَ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ). اهـ

قُلْتُ: والفِطْرَةُ دَلِيلٌ مِنْ أَدِلَّةِ: «**التَّوْحِيدِ**»، الَّتِي غَرَسَهَا اللهُ تَعَالَىٰ، فِي بَنِي آدَمَ، وَخَلَقَهُمْ عَلَيْهَا، فَهِيَ تُوجِّهُ العَبْدُ، إِلَىٰ إِفْرَادِ الرَبِّ عَزَّ وَجَلَّ: بالرُّبُوبِيَّةِ، والأُلُوهِيَّةِ، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ الفِطْرَةَ، قَدْ تَتَغَيَّرَ بِمَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهَا مِنَ التَّنْشِئَةِ عَلَىٰ الشِّرْكِ، والضَّلاَلِ، وَمَا يُحِيطُ بِهَا مِنَ: «الشُّهَبَاتِ»، و«الشَّهَوَاتِ».

و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

* **وَالمَعْنَىٰ**: اذْكُرْ لَهُمُ: «**المِيْثَاقَ**» المَأْخُوذَ مِنْهُمْ: فِيمَا مَضَىٰ لِئَلَّا: يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ بِالغَفْلَةِ عَنْهُ، أَوْ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ.[1]

---

(١) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠)، وَ«فَتْحَ القَدِيرِ الجَامِعِ بَيْنَ، فَنِّيِّ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ، مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢ و١٥٣)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٣)، وَ«إِرْشَادَ العَقْلِ السَّلِيمِ إِلَىٰ مَزَايَا القُرْآنِ الكَرِيمِ» لِأَبِي السُّعُودِ (ج٣ ص٢٨٩ و٢٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ جُزَيٍّ (ص٢٣٠ و٢٣١)، وَ«جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٥٧ و٥٥٨)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلسَّمْعَانِيِّ (ج٢ ص٢٣١)، وَ«الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٦٥)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٠)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

قُلْتُ: وَالمَفْعُولُ المَحْذُوفُ، هُوَ: «**المِيْثَاقُ**».(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٥٤].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ [البَقَرَةُ: ٨٣].

قُلْتُ: فَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ: «**المِيْثَاقَ**» بِالتَّوْحِيدِ لَهُ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

وَالَّذِي عَلَيهِ أَهْلُ العِلْمِ قَاطِبَةً، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخَذَ مِنَ العِبَادِ، بِأَسْرِهِمْ: «**مِيْثَاقًا قَالِيًا**»، قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا بِهَذَا البُنْيَةِ المَخْصُوصَةِ.(٢)

قُلْتُ: فَكُلُّ آدَمِيٍّ قَدْ أَقَرَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، هُوَ: رَبُّهُ، وَأَنَّ هَذَا الآدَمِيَّ، هُوَ عَبْدٌ للهِ تَعَالَىٰ.(٣)

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٩٠): (وَقَالَ آخَرُونَ:** مَعْنَىٰ الفِطْرَةِ المَذْكُورَةِ فِي المَوْلُودِينَ، مَا أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ مِنَ: «**المِيثَاقِ**»، قَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا يَوْمَ اسْتَخْرَجَ ذَرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَخَاطَبَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَأَقَرُّوا جَمِيعًا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ مَخْلُوقِينَ، مَطْبُوعِينَ عَلَىٰ تِلْكَ المَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ الإِقْرَارِ.

---

(١) وَانْظُرْ: «البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٣).

(٢) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٧)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢).

(٣) وَانْظُرْ: «جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج٦ ص٥٦٥)، و«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢)، و«المُغِيثَ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لِلسَّنْجَارِيِّ (ص٣١٤)، و«تَأْوِيلَ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لابنِ قُتَيْبَةَ (ص٢٦١)، و«مُشْكِلَ الآثَارِ» لِلطَّحَاوِيِّ (ج٤ ص١١)، و«الحُجَّةَ فِي بَيَانِ المَحَجَّةِ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ج٢ ص٣٤ و٤٢)، و«الجَامِعَ لأَحْكَامِ القُرْآنِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج١٤ ص٢٤ و٣٠)، و«لِسَانَ العَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ (ج٥ ص٥٦ و٥٨)، و«فَتْحَ القَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٤ ص٢٢٤).

* **قَالُوا**: وَلَيْسَتْ تِلْكَ المَعْرِفَةُ، وَلَا ذَلِكَ الإِقْرَارُ بِإِيمَانٍ؛ وَلَكِنَّهُ إِقْرَارٌ مِنَ الطَّبِيعَةِ لِلرَّبِّ، فِطْرَةٌ أَلْزَمَهَا قُلُوبَهُمْ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ الِاعْتِرَافِ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالخُضُوعِ؛ تَصْدِيقًا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَ، وَجَحَدَ بَعْدَ المَعْرِفَةِ، وَهُوَ بِهِ عَارِفٌ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ اللهُ تَعَالَىٰ لِيَدْعُوَ خَلْقَهُ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِهِ، وَهُوَ لَمْ يُعَرِّفْهُمْ نَفْسَهُ، إِذْ كَانَ يَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ كَلَّفَهُمُ الإِيمَانَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ.

* **قَالُوا**: وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٣): (مَثَّلَ تَعَالَىٰ: خَلْقَهُمْ عَلَىٰ فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، شَاهِدِينَ: بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، شَهَادَةً لَا يُخَالِجُهَا رَيْبٌ.

* بِحَمْلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ الاعْتِرَافِ بِهَا بِطَرِيقِ الأَمْرِ، وَمُسَارَعَتِهِمْ إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَلَعْثُمٍ أَصْلاً.

* **وَالقَصْدُ مِنَ الآيَةِ**: الاحْتِجَاجُ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ، مَعْرِفَةً فِطْرِيَّةً، لَازِمَةً لَهُمْ لِزُومِ الإِقْرَارِ مِنْهُمْ، وَالشَّهَادَةِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠] ، وَالفِطْرَةُ: هِيَ مَعْرِفَةُ رُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَىٰ). اهـ

* فَإِنَّهُمْ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَأُخْرِجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ قَالُوا بَلَىٰ: طَائِعِينَ.

فَهَذَا الآيَةُ: تَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ التَّقْلِيدِ فِي الدِّيْنِ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَزَالَ العُذْرَ، وَأَزَاحَ العِلَّةَ، وَبَعْدَهَا لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ إِذَا وَقَعَ فِي الشِّرْكِ، وَالضَّلَالِ.(١)

قَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٧): (اسْتُدِلَّ: بِهَذِهِ الآيَةِ، وَالأَحَادِيثِ المُتَقَدِّمَةِ فِي مَعْنَاهُ، أَنَّ مَعْرِفَتَهُ تَعَالَىٰ: فِطْرِيَّةٌ، ضَرُورِيَّةٌ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥]، **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٨٦ و٨٧]). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١١): (كَوْنُ النَّاسِ: تَكَلَّمُوا حِيْنَئِذٍ، وَأَقَرُّوا بِالإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ بِهَذَا تَقُومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٩٠): (أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ

---

(١) وَانْظُرْ: «الرُّوْحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٣١١)، وَ«البُرْهَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلزَّرْكَشِيِّ (ج٢ ص٧٦)، وَ«لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٢)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُم مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ، وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتِ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا الشِّرْكُ الَّذِي يُؤَاخَذُونَ بِهِ يَكُونُ مِنْ آبَائِهِمْ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ، لِثُبُوتِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**العَهْدِ**».(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٢): (وَهَذَا الإِشْهَادُ؛ مُقِرُّونَ بِأَخْذِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، وَهَذَا الأَخْذُ المَعْلُومُ المَشْهُودُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ؛ هُوَ: أَخْذُ المَنِيِّ مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَنُزُولُهُ فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا الأُمَّهَاتِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ وَهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِدِينِ آبَائِهِمْ، لَا لِدِينِ الأُمَّهَاتِ، كَمَا

---

(١) وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٦٢)، وَ«شِفَاءَ العَلِيلِ» لَهُ (ص١٩٥)، وَ«الرُّوحَ» لَهُ أَيْضًا (ج٢ ص٤٨٨)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٣)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلمَرَاغِيِّ (ج٩ ص١٠٥)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِلسَّمْعَانِيِّ (ج٢ ص٢٣١)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣١٢)، وَ«لُبَابَ التَّأْوِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ ص٦١٠ و٦١٢)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٢)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤)، وَ«نَوَادِرَ الأُصُولِ» لِلْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ (ج١ ص٣١٠)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٩)، وَ«التَّفْسِيرَ الكَبِيرَ» لِلرَّازِيِّ (ج١٥ ص٤٤).

قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٢]؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٤]؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: اذْكُرْ حِينَ أُخِذُوا مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، فَخُلِقُوا حِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، مُقِرِّينَ بِالخَالِقِ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ: بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبُّهُمْ، فَهَذَا الإِقْرَارُ: حُجَّةٌ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ، فَأَخْذُهُمْ يَتَضَمَّنُ: خَلْقَهُمْ، وَالإِشْهَادُ يَتَضَمَّنُ: هُدَاهُ لَهُمْ إِلَىٰ هَذَا الإِقْرَارِ، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ، فَهَذَا الإِشْهَادُ مِنْ لَوَازِمِ الإِنْسَانِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، شَاهِدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَاللهُ تَعَالَىٰ خَالِقُهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِبَنِي آدَمَ، لَا يَنْفِكُّ مِنْهُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ مِمَّا جُبِلُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ، لَا يُمْكِنُ أَحَدًا جَحْدُهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾؛ أَيْ: كَرَاهِيَةَ أَنْ تَقُولُوا، أَوْ؛ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ أَيْ: عَنْ هَذَا الإِقْرَارِ للهِ تَعَالَىٰ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَعَلَىٰ نُفُوسِنَا بِالعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ هَذَا، بَلْ كَانَ هَذَا مِنَ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمُ الَّتِي لَمْ يَخْلُ مِنْهَا بَشَرٌ قَطُّ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً، وَلَكِنْ قَدْ يَغْفُلُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ عُلُومِ العَدَدِ، وَالحِسَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ: فَإِنَّهَا إِذَا تَصَوَّرَتْ كَانَتْ عُلُومًا ضَرُورِيَّةً، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ غَافِلٌ عَنْهَا.

وَأَمَّا الِاعْتِرَافُ بِالخَالِقِ: فَإِنَّهُ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَازِمٌ لِلإِنْسَانِ، لَا يَغْفُلُ عَنْهُ أَحَدٌ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَهُ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَسِيَهُ.

* وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ التَّعْرِيفُ بِذَلِكَ: تَذْكِيرًا، فَإِنَّهُ تَذْكِيرٌ بِعُلُومٍ فِطْرِيَّةٍ ضَرُورِيَّةٍ، وَقَدْ يَنْسَاهَا العَبْدُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحَشْرُ: ١٩]، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يَقُولُ اللهُ؛ لِلكَافِرِ: فَاليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**»(١). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الرُّوْحِ»** (ج٢ ص٤٨٨): (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ: وَنَظِيرَتُهَا فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ، بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**» فِيهَا أَهْلَ الكِتَابِ، فَإِنَّهُ: «**مِيثَاقٌ**» أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الأَعْرَافِ فِي سُوْرَةٍ مَكِّيَّةٍ؛ ذَكَرَ فِيهَا: «**المِيثَاقَ**»، وَ«**الإِشْهَادَ العَامَّ**»: لِجَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرَّ بِرُبوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ «**مِيثَاقٌ**»: وَ«**إِشْهَادٌ**» تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ العُذْرُ، وَتَحِلُّ بِهِ العُقُوبَةُ، وَيُسْتَحَقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الإِهْلَاكُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، عَارِفِينَ بِهِ؛ وَذَلِكَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُ، وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ.

*** وَنَظْمُ الآيَةِ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ:**

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: آدَمَ، وَبَنُو آدَمَ غَيْرُ آدَمَ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٨٢٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج٤ ص٥٣٤) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ، أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: ذُرِّيَّتَهُ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهَا.

الخَامِسُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ: بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

السَّادِسُ: تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ، وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتَ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

السَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ وَالإِشْهَادِ: **إِحْدَاهُمَا**: أَنْ لَا يَدَّعُوا الغَفْلَةَ، **وَالثَّانِيَةُ**: أَنْ لَا يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ؛ فَالغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ.

الثَّامِنُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ أَيْ: لَو عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ، وَشِرْكِهِمْ لَقَالُوا ذَلِكَ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ، وَتَكْذِيبِهِمْ، فَلَو أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِم فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم بِالرُّسُلِ؛ لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا

فَعَلَ المُبْطِلُونَ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ القُرىٰ بِظُلْمٍ، وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الأَعْذَارِ، وَالإِنْذَارِ.

التَّاسِعُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كَلَّ وَاحِدٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِه تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]؛ أَيْ: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ التَّوْحِيدِ بَعْدَ هَذَا الإِقْرَارِ مِنْهُمْ أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي القُرْآنِ؛ فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ؛ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ:١٠].

* فَاللهُ تَعَالَىٰ إِنَّمَا ذَكَّرَهُمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ بِهَذَا الإِقْرَارِ وَالمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يُذَكِّرْهُمْ قَطُّ بِإِقْرَارٍ سَابِقٍ عَلَىٰ إِيْجَادِهِمْ، وَلَا أَقَامَ بِهِ عَلَيْهِمْ حُجَّةً.

العَاشِرُ: أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدِّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأَنْعَامُ:٥٥]؛ أَيْ: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ وَالتَّبْيِينِ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمِنَ الكُفْرِ إِلَىٰ الإِيْمَانِ.

* وَهَذِهِ الآيَاتُ الَّتِي فَصَّلَهَا هِيَ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي كِتَابِهِ مِنْ أَنْوَاعِ مَخْلُوقَاتِهِ.

وَهَذَا الإِقْرَارُ وَالشَّهَادَةُ: فِطْرَةٌ فُطِرُوا عَلَيْهَا لَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ.

وَهَذِهِ الآيَةُ؛ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾[1] [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، مُطَابِقَةٌ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»[2]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠-٣١]). اهـ

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ المُرَادُ: أَوْلَادُهُمْ عَلَىٰ العُمُومِ.

قُلْتُ: فَنَصْبُ الأَدِلَّةِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَمَا نُبِّهُوا عَلَيهِ، قَائِمٌ مَعَهُمْ، فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي الإِعْرَاضِ عَنِ التَّوْحِيدِ، وَالإِقْبَالِ عَلَىٰ الشِّرْكِ بِالتَّقْلِيدِ، وَالاقْتِدَاءِ بِالآبَاءِ، كَمَا لَا عُذْرَ لِآبَائِهِمْ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

* **وَالمَعْنَىٰ**: أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ هَذَا الإِشْهَادِ أَنْ لَا يَقُولَ: الكُفَّارُ إِنَّمَا أَشْرَكْنَا، لِأَنَّ آبَاءَنَا أَشْرَكُوا، فَقَلَّدْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الشِّرْكِ.

قُلْتُ: **وَالحَاصِلُ**؛ أَنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمْ: «**المِيْثَاقَ**»، امْتَنَعَ عَلَيْهِمُ التَّمَسُّكُ بِهَذَا القَدْرِ مِنَ الأَعْذَارِ البَاطِلَةِ.

---

(١) الآيَةُ وَرَدَتْ كَذَا فِي النُّسَخِ عَلَىٰ قِرَاءَةِ: أَبِي عَمْرٍو، وَبِهَا قَرَأَ: نَافِعُ، وَابنُ عَامِرٍ أَيْضًا.

وانْظُرْ: «حُجَّةِ القِرَاءَاتِ» لابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠١ و٣٠٢)، و«زَادَ المَسِيرِ» لابنِ الجَوْزِيِّ (ج٣ ص٢٨٤).

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٨٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، وَبِلَفْظٍ آخَرَ عَنْهُ؛ عِنْدَ البُخَارِيِّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٨)، وَمُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨).

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٣)**: (وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّاتِ بَنِي آدَمَ: **مِيْثَاقَ التَّوْحِيدِ للهِ تَعَالَىٰ**، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ). اهـ

* حَتَّىٰ يَجِبُ كَوْنَ ذَلِكَ الإِشْهَادَ، وَالشَّهَادَةَ، مَحْفُوظًا لَهُمْ فِي إِلْزَامِهِمْ، بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**».

وَالمَعْنَىٰ: فَعَلْنَا مَا فَعَلْنَا مِنَ الأَمْرِ بِذِكْرِ: «**المِيْثَاقِ**»، وَبَيَانِهِ كَرَاهَةً، أَنْ تَقُوْلُوا، أَوْ لِئَلَّا تَقُوْلُوا: أَيُّهَا الكَفَرَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ: «**إِنَّا كُنَّا غَافِلِينَ**»، عَنْ ذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**»، لَمْ نُنَبَّهْ عَلَيهِ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، وَإِلَّا لَعَمِلْنَا بِمُوْجِبِهِ، هَذَا عَلَىٰ قِرَاءَةِ الجُمْهُورِ.(١)

قَالَ الإِمَامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «البُرْهَانِ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٧٦)؛ عَنِ الآيَاتِ**: (إِقَامَةُ الحُجَّةِ بِهَا عَلَيْهِمْ(٢)؛ وَذَلِكَ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ، وَلُغَتِهِمْ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ **فِي «الرُّوْحِ» (ج٢ ص٤٨٨)**: (وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَنَظِيرَتُهَا، فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ: خَاطَبَ بِالتَّذْكِيرِ، بِهَذَا: «**المِيثَاقِ**»؛ فِيهَا: أَهْلَ الكِتَابِ، فَإِنَّهُ: «**مِيثَاقٌ**» أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ بِالإِيمَانِ بِهِ، وَبِرُسُلِهِ.

* وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ آيَةُ الأَعْرَافِ فِي سُوْرَةٍ مَكِّيَّةٍ؛ ذَكَرَ فِيهَا: «**المِيثَاقَ**»، وَ«**الإِشْهَادَ العَامَّ**»: لِجَمِيعِ المُكَلَّفِينَ مِمَّنْ أَقَرَّ بِرُبوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ: «**مِيثَاقٌ**»، وَ«**إِشْهَادٌ**» تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِمُ الحُجَّةُ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ العُذْرُ، وَتَحِلُّ بِهِ العُقُوبَةُ، وَيُسْتَحَقُّ بِمُخَالَفَتِهِ الإِهْلَاكُ.

---

(١) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠).

(٢) يَعْنِي: العَرَبَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ.

* فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَاكِرِينَ لَهُ، عَارِفِينَ بِهِ؛ وَذَلِكَ مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَفَاطِرُهُمْ، وَأَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ يُذَكِّرُونَهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ، وَيُعَرِّفُونَهُمْ حَقَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَمْرَهُ، وَنَهْيَهُ، وَوَعْدَهُ، وَوَعِيدَهُ). اهـ

قُلْتُ: فَاللهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَوْضَحَ الدَّلَائِلَ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَصِدْقَ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِيْمَا أَخْبَرُوا بِهِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً لِلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُ الحُجَّةُ، وَنِسْيَانُهُ، وَعَدَمُ حِفْظِهِ، لَا يُسْقِطُ الاحْتِجَاجَ بَعْدَ إِخْبَارِ المُخْبِرِ الصَّادِقِ.

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٤ ص١١١): (**يُخْبِرُ تَعَالَىٰ**: أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ: بَنِي آدَمَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، أَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَمَلِيكُهُمْ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

* **كَمَا أَنَّهُ تَعَالَىٰ**: فَطَرَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَجَبَلَهُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوم:٣٠]؛ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ: المِلَّةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»). اهـ

* فَيَتَعَيَّنُ حِينَئِذٍ، أَنْ يُرَادَ: «**بِالمِيْثَاقِ**» مَا رَكَّبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيْهِمْ، مِنَ العُقُولِ، وَآتَاهُمْ مِنَ البَصَائِرِ، لِأَنَّهَا: هِيَ الحُجَّةُ البَالِغَةُ، وَالمَانِعَةُ، عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ الإِقْرَارَ، وَالتَّمَكُّنَ، مِنْ مَعْرِفَةِ

رُبُوبِيَّتِهِ، وَوَحْدَانِيَّتِهِ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِشْرَاكِ، كَمَا جَعَلَ بَعْثَ الرَّسُولِ ﷺ: حُجَّةً عَلَيْهِمْ فِي الإِيْمَانِ، بِمَا أَخْبَرَ عَنْهُ مِنَ الغُيُوبِ.(١)

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رحمه الله **فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٣)**: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ: مِنْ ظُهُورِ ذُرِّيَّاتِ بَنِي آدَمَ، **مِيْثَاقَ التَّوْحِيدِ للهِ تَعَالَىٰ**، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ زَنْجَلَةَ رحمه الله **فِي «حُجَّةِ القِرَاءَاتِ» (ص٣٠٢)**: (أَدَلُّ دَلِيلٍ عَلَىٰ صِحَّةِ التَّوْحِيدِ، إِذْ كَانُوا هُمْ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ، وَقَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ التَّوْحِيدِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو المُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ رحمه الله **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٣١)**: (قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ **يَعْنِي**: إِنَّمَا أَخَذْتُ، مَا أَخَذْتُ مِنَ: «**العَهْدِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ**» عَلَيْكُمْ جَمِيعًا؛ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **يَعْنِي**: أَنَّ الجِنَايَةَ مِنَ الآبَاءِ، وَكُنَّا أَتْبَاعًا لَهُمْ؛ فَيَجْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ حُجَّةً، وَعُذْراً، عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ!). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا النَّصُّ مَسُوقٌ لِإِلْزَامِ الخَلْقِ بِمُقْتَضَىٰ: «**المِيْثَاقِ العَامِّ**» عِنْدَمَا كَانُوا فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَشْرَكَ، بَعْدَ إِلْزَامِهِمْ: «**بِالمِيْثَاقِ المَخْصُوصِ**» بِهِمْ، وَالاحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ بِالحُجَجِ السَّمْعِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَمَنْعِهِمْ عَنِ التَّقْلِيدِ لِآبَائِهِمْ فِي الشِّرْكِ، وَالبِدَعِ.

* فَتَمَادَىٰ هَؤُلَاءِ المُشْرِكُونَ فِي الغَيِّ بَعْدَ أَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ، مِنَ: «**المِيْثَاقِ العَامِّ**» فِي عَالَمِ الغَيْبِ، وَمِنَ: «**المِيْثَاقِ الخَاصِّ**» فِي عَالَمِ الحَيَاةِ.

---

(١) انْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٩).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢ و١٧٣ و١٧٤].

قَالَ المُفَسِّرُ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «رُوْحِ المَعَانِي» (ج٩ ص١٣٤): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ **أَيْ:** أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَوْلَئِكَ الذُّرِّيَةِ المَأْخُوذِينَ مِنْ ظُهُوْرِ آبَائِهِمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، لَا عَلَىٰ غَيْرِهِمْ، **تَقْرِيراً:** لَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ، **قَائِلاً لَهُمْ:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ **أَيْ:** مَالِكَ أَمْرِكُمْ، وَمُرَبِّيكُمْ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مَدْخَلٌ فِي شَأْنٍ مَنْ شُؤُونِكُمْ: ﴿قَالُوا﴾؛ فِي جَوَابِهِ سُبْحَانَهُ، ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ **أَيْ:** عَلَىٰ أَنْفُسِنَا بِأَنَّكَ رَبُّنَا، لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُكَ، **وَالمُرَادُ:** أَقْرَرْنَا بِذَلِكَ). اهـ

قُلْتُ: وَبَلَىٰ: حَرْفُ جَوَابٍ.

قَالَ الحَافِظُ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٣٤-رُوْحُ المَعَانِي): (إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ، أَصْلٌ: فِي الإِقْرَارِ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٢): (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ ذَاكِراً لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ، كَمَا تَأْتِي الإِشَارَةُ إِلَىٰ ذَلِكَ، لَا يَذْكُرُ شَهَادَةً قَبْلَهُ.

* أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّ حِكْمَةَ هَذَا الإِشْهَادِ: إِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلَّا يَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، وَالحُجَّةُ إِنَّمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، وَالفِطْرَةِ الَّتِي

فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءُ:١٦٥].

* **تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ**، لِئَلَّا يَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلُّهُمْ وَإِشْهَادُهُمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الوَقْتُ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ.

* قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ فَذَكَرَ حِكْمَتَيْنِ فِي هَذَا الأَخْذِ وَالإِشْهَادِ: أَنْ لَا يَدَّعُوا الغَفْلَةَ، أَوْ يَدَّعُوا التَّقْلِيدَ، فَالغَافِلُ لَا شُعُورَ لَهُ، وَالمُقَلِّدُ مُتَّبِعٌ فِي تَقْلِيدِهِ لِغَيْرِهِ، وَلَا تَتَرَتَّبُ هَاتَانِ الحِكْمَتَانِ؛ إِلَّا عَلَىٰ مَا قَامَتْ بِهِ الحُجَّةُ مِنَ الرُّسُلِ وَالفِطْرَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٣]؛ أَيْ: لَوْ عَذَّبَهُمْ بِجُحُودِهِمْ وَشِرْكِهِمْ، لَقَالُوا ذَلِكَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ إِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ لِمُخَالَفَةِ رُسُلِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ، فَلَوْ أَهْلَكَهُمْ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ مِنْ غَيْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِالرُّسُلِ، لَأَهْلَكَهُمْ بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ، أَوْ أَهْلَكَهُمْ مَعَ غَفْلَتِهِمْ عَنْ مَعْرِفَةِ بُطْلَانِ مَا كَانُوا عَلَيهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَ القُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بَعْدَ الإِعْذَارِ وَالإِنْذَارِ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ.

* أَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥].

* فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَضْمُونِهَا، وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا رُسُلُهُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠].

* أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا آيَةً، وَهِيَ الدَّلَالَةُ الوَاضِحَةُ البَيِّنَةُ المُسْتَلْزِمَةُ لِمَدْلُولِهَا بِحَيْثُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا المَدْلُولُ، وَهَذَا شَأْنُ آيَاتِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهَا أَدِلَّةٌ مُعَيَّنَةٌ عَلَىٰ مَطْلُوبٍ مُعَيَّنٍ مُسْتَلْزِمَةً لِلْعِلْمِ بِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤]، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ، فَمَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، لَا يُوْلَدُ مَوْلُودٌ عَلَىٰ غَيْرِ هَذِهِ الفِطْرَةِ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ.

* وَلَا شَكَّ أَنَّ الإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، وَالشِّرْكُ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالأَبْنَاءُ تَقَلَّدُوهُ عَنِ الآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجُّوا يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَنَّ الآبَاءَ أَشْرَكُوا، وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَىٰ عَادَتِهِمْ). اهـ

قُلْتُ: لِئَلَّا تَقُوْلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الأَمْرِ، وَإِحَاطَةِ العَذَابِ، بِمَنْ أَشْرَكَ؛ ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾؛ **أَيْ**: وُحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ: ﴿غَافِلِينَ﴾، لَمْ نُنَبَّهْ عَلَيهِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَسَعْهُمْ هَذَا الاعْتِذَارُ، حِيْنَئِذٍ عَلَىٰ مَا قِيلَ، لِأَنَّهُمْ: نُبِّهُوا بِنَصْبِ الأَدِلَّةِ، وَجُعِلُوا مُتَهَيِّئِينَ: تَهَيُّأً تَامًّا، لِتَحْقِيقِ الحَقِّ، وَإِنْكَارِ ذَلِكَ: مُكَابَرَةٌ، فَكَيْفَ يُمْكِنُهُمْ، أَنْ يَقُوْلُوا ذَلِكَ.[1]

قَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٠): (فَكُلُّ مَنْ بَلَغَ، وَعَقِلَ، فَقَدْ أُخِذَ عَلَيهِ: «**المِيْثَاقُ**»، بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي يُؤْخَذُ بِهِ: «**المِيْثَاقُ**»،

(١) انْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٧).

وَهُوَ العَقْلُ، وَالتَّكْلِيفُ، فَيَكُونُ مَعْنَىٰ؛ الآيَةِ: وَإِذْ يَأْخُذُ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ وَيُشْهِدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِمَا رَكَّبَ فِيْهِمْ مِنَ العَقْلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ: الفَهْمُ، وَالتَّكْلِيفُ الَّذِي بِهِ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ صَاحِبِهِ الثَّوَابُ، وَالعِقَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٥): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ **أَيْ**: سَنُّوا الإِشْرَاكَ، وَاخْتَرَعُوهُ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾؛ **أَيْ**: مِنْ قَبْلِ زَمَانِنَا، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ **أَيْ**: فَنَشَأْنَا عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، احْتِجَاجاً بِالتَّقْلِيدِ، وَتَعْوِيلاً عَلَيهِ.

* فَقَدْ قَطَعْنَا العُذْرَ بِمَا بَيَّنَّا مِنَ الآيَاتِ: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؛ **أَيْ**: أَتُؤَاخِذُنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُنَا مِنَ الشِّرْكِ، وَأَسَّسُوا مِنَ البَاطِلِ، أَوْ بِفِعْلِ آبَائِنَا الَّذِينَ أَبْطَلُوا تَأْثِيرَ العُقُولِ، وَأَقْوَالِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟؛ وَالاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ؛ أَيْ: أَنْتَ حَكِيمٌ لَا تَأْخُذُ الأَبْنَاءَ، بِفِعْلِ الآبَاءِ، وَقَدْ سَلَكْنَا طَرِيقَهُمْ، وَالحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِمَا شَرَعُوا لَنَا مِنَ البَاطِلِ.

وَالمَعْنَىٰ: أَزَلْنَا الشُّبْهَتَيْنِ بِأَنَّ الإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَالتَّوْحِيدِ، هُوَ فِي أَصْلِ فِطْرَتِكُمْ، فَلِمَ لَمْ تَرْجِعُوا إِلَيْهِ، عِنْدَ دَعْوَةِ العُقُولِ، وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟، وَالفِطْرَةُ: أَكْبَرُ دَلِيلٍ، فَهِيَ تَسُدُّ بَابَ الاعْتِذَارِ بِوَجْهٍ مَا، لَا سِيَّمَا وَالتَّقْلِيدُ، عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا مَسَاغَ لَهُ أَصْلاً). اهـ

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ؛ لِأَبِي: حُصَيْنٍ: (كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟، قَالَ أَبِي: سَبْعَةً، سِتَّةً فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ!، قَالَ: فَأَيُّهُمْ تُعُدُّ لِرَغْبَتِكَ، وَرَهْبَتِكَ؟ قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ!).(١)

قُلْتُ: وَهَذَا فِيهِ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، فَطَرَهُمْ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ: رَبُّهُمْ.

قَالَ المُفَسِّرُ القَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (ج٧ ص٢٩٨): (فَاللهُ تَعَالَىٰ: فَطَرَ الخَلْقَ كُلَّهُمْ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ فِطْرَةَ تَوْحِيدٍ، حَتَّىٰ مَنْ خُلِقَ مَجْنُونًا، مُطْبِقًا، مُصْطَلِمًا، لَا يَفْهَمُ شَيْئًا، مَا يَحْلِفُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَهْلَجُ لِسَانُهُ بِأَكْثَرِ مِن اسْمِهِ المُقَدَّسِ، فِطْرَةٌ بَالِغَةٌ). اهـ

---

(١) **حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلأُصُولِ فِي الفِطْرَةِ عَلَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ.**

أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (ج٦ ص٩٤)، وَفِي «العِلَلِ الكَبِيرِ» (ج٢ ص٩١٧)، وَالبُخَارِيُّ فِي «التَّارِيخِ الكَبِيرِ» (ج٣ ص١)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (ص٤٢٣ و٤٢٤)، وَابنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السُّنَّةِ» (٢٣٥٥)، وَالطَّبَرَانِيُّ فِي «المُعْجَمِ الكَبِيرِ» (٣٥٥١)، وَالمِزِّيُّ فِي «تَهْذِيبِ الكَمَالِ» (ج١٢ ص٣٦٧ و٣٦٨)، وَالبَزَّارُ فِي «المُسْنَدِ» (٣٥٧٩).

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ».

وَانْظُرْ: «تُحْفَةَ الأَشْرَافِ» لِلمِزِّيِّ (ج٨ ص١٧٥)، و«تَهْذِيبَ الكَمَالِ» لَهُ (ج١٢ ص٣٦٧).

قُلْتُ: إِنَّ الإِقْرَارَ، وَالاعْتِرَافَ بِالخَالِقِ سُبْحَانَهُ: فِطْرِيٌّ، ضَرُورِيٌّ فِي قُلُوبِ الخَلْقِ، وَمَعْرِفَةِ الرُّبُوبِيَّةِ تَحْصُلُ بِالفِطْرَةِ، الضَّرُورِيَّةِ، الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي نُفُوسِ الخَلْقِ مِنْ صِغَرِهِمْ، فَهُمْ: يُوْلَدُونَ عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ.(١)

قَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رحمه الله فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥): (**وَالخُلَاصَةُ**: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمُ الاعْتِذَارَ، بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ، وَالأَجْدَادِ، إِذِ التَّقْلِيدُ عِنْدَ قِيَامِ الدَّلَائِلِ، وَالقُدْرَةِ عَلَىٰ الاسْتِدْلَالِ بِهَا، مِمَّا لَا يُرْكَنُ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِعَاقِلٍ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ.

* كَمَا أَنَّ الاعْتِذَارَ بِالجَهْلِ بَعْدَ مَا أَقَامَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَيِّنَاتِ الفِطْرِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ، مِمَّا لَا يُقْبَلُ). اهـ

وَقَالَ المُفَسِّرُ المَرَاغِيُّ رحمه الله فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٩ ص١٠٥): (**وَفِي الآيَةِ**: إِيْمَاءٌ إِلَىٰ أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ، بِعْثَةُ رَسُولٍ، لَا يُعْذَرُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَلَا بِفِعْلِ الفَوَاحِشِ، وَالمُوْبِقَاتِ، الَّتِي تَنْفِرُ مِنْهَا: الفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ، وَتُدْرِكُ ضَرَرَهَا العُقُولُ الحَصِيفَةُ). اهـ

---

(١) **وَالفِطْرَةُ**: هِيَ ضَرُورَةٌ مِنْ نَاحِيَةِ العَقْلِ، وَاسْتِدْلَالٍ مِنْ نَاحِيَةِ الحِسِّ.

* فَإِنَّ العَقْلَ السَّلِيمَ مِنَ الآفَةِ، البَرِيءَ مِنَ العَاهَةِ، يَحُثُّ عَلَىٰ الاعْتِرَافِ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

* **فَاللهُ تَعَالَىٰ**: مَعْرُوفٌ عِنْدَ العَقْلِ بِالاضْطِرَارِ، لَا رَيْبَ عِنْدَهُ فِي وُجُودِهِ، وَمُسْتَدِلٌّ عَلَيهِ عِنْدَ الحِسِّ.

وَانْظُرْ: «مَحَاسِنَ التَّأْوِيلِ» لِلقَاسِمِيِّ (ج٧ ص٢٩٩).

وَقَالَ المُفَسِّرُ الخَازِنُ البَغْدَادِيُّ رحمه الله في «لُبَابِ التَّأْوِيلِ» (ج٢ ص٦١٢):

(**فَقَامَتِ الحُجَّةُ**: عَلَيْهِمْ؛ لِإِمْدَادِهِمْ بِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَإِعْلَامِهِمْ بِجَرَيَانِ: أَخْذِ: «**المِيْثَاقِ**» عَلَيْهِمْ.

* وَبِذَلِكَ قَامَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَيْضاً يَوْمَ القِيَامَةِ، لِإِخْبَارِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إِيَّاهُمْ بِذَلِكَ: «**المِيْثَاقِ**» في الدُّنْيَا؛ فَمَنْ أَنْكَرَهُ كَانَ مُعَانِداً، نَاقِضاً: لَلْعَهْدِ، وَلَزِمَتْهُمْ الحُجَّةُ، وَلَمْ تَسْقُطْ الحُجَّةُ عَنْهُمْ بِنِسْيَانِهِمْ، وَعَدَمِ حِفْظِهِمْ بَعْدَ إِخْبَارِ الصَّادِقِ صَاحِبِ الشَّرْعِ، وَالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَاتِ). اهـ

قُلْتُ: فَقَدَ ثَبَّتَ اللهُ تَعَالَىٰ الحُجَّةَ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ في عَالَمِ الغَيْبِ **بِالمِيْثَاقِ وَالفِطْرَةِ فِي الإِجْمَالِ، وَهَذَا المِيْثَاقُ الأَوَّلُ** الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ العِبَادِ، وَهُمْ في ظُهُورِ آبَائِهِمْ.[1]

* فَأَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ: «**العَهْدَ**»، وَ«**المِيْثَاقَ**» عَلَىٰ بَنِي آدَمَ جَمِيعاً، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، فَلَا يَكُونُ لَهُمُ العُذْرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، **في الإِشْرَاكِ بِاللهِ: جَهْلاً، أَوْ تَقْلِيداً.**

---

(١) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ في مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ البَغْدَادِيِّ (ج٢ص٦١١)، و«التمهيد» لابن عبد البر (ج١٨ ص٩٠ و٩١)، وَ«التَّذْكِرَةَ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج٣ ص١٠٤٤)، وَ«رُوْحَ المَعَانِي في تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤١)، و«دَرْءَ تُعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» لابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٣٥٩ و٣٦٠)، و«المُغِيثَ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» للسَّنْجَارِيِّ (ص٣١٤)، و«تَهْذِيبَ السُّنَنِ» لابنِ القَيِّمِ (ج١٢ ص٣١٦ و٣١٩)، و«فَتْحَ البَارِي» لابنِ حَجَرٍ (ص٢٩٢ و٢٩٣)، و«تَأْوِيلَ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لابنِ قُتَيْبَةَ (ص٧٣ و٩٥).

قُلْتُ: جَعَلَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ: عُقُولاً، يَفْهَمُونَ بِهَا، وَأَلْسِنَةً، يَنْطِقُونَ بِهَا، فَهُمْ: يَعْلَمُونَ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَقَدْ شَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**»، وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ: «**بِالمِيْثَاقِ**» يَوْمَ القِيَامَةِ.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٩]؛ **يَعْنِي**: يَوْمَ أَخَذَ عَلَىٰ الخَلْقِ **المِيْثَاقَ**.(٢)

وَعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ، **فِي حَدِيثِ**: «**الرُّؤْيَا**»، **وَهُوَ حَدِيثٌ**: **طَوِيلٌ، عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ**: (**وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ، فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا الوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ: فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **وَأَوْلَادُ المُشْرِكِينَ**). **وَفِي رِوَايَةٍ**: (**وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ**).(٣)

---

(١) وَانْظُرْ: «لُبَابَ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ» لِلْخَازِنِ (ج٢ ص٦١٠)، وَ«البَحْرَ المُحِيطَ» لِأَبِي حَيَّانَ (ج٤ ص٥٣٤)، وَ«الإِتْقَانَ فِي عُلُومِ القُرْآنِ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٤ ص٢٢٥)، وَ«الرُّوحَ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٤٧٤)، وَ«حُجَّةَ القِرَاءَاتِ» لِابنِ زَنْجَلَةَ (ص٣٠٢ و٣٠٣).

(٢) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٨٦)، وَ«جَامِعِ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٣ ص٢٤٢ و٢٤٣)، وَ«الدُّرَّ المَنْثُورَ» لِلسُّيُوطِيِّ (ج٦ ص٦٥٣).

(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٧٠٤٧)، و(١٣٨٦).

وَأَوْرَدَهُ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص١١٨)؛ ثم قَالَ: (وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهُ، أَوْلَادُ النَّاسِ؛ وَهَذَا يَقْتَضِي ظَاهِرُهُ، وَعُمُومُهُ جَمِيعُ النَّاسِ)[1]. اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّذْكِرَةِ بِأَحْوَالِ المَوْتَىٰ وَأُمُورِ الآخِرَةِ» (ج٣ ص١٠٤٤): (**وَمَنْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ المُشْرِكِينَ**: فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيهِ القَلَمُ، فَلَيْسَ يَكُونُونَ مَعَ آبَائِهِمْ فِي النَّارِ؛ **لِأَنَّهُمْ**: مَاتُوا عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ فِي صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، **وَلَمْ يَنْقُضُوا المِيْثَاقَ**). اهـ

وَقَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٢): (أَخَذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ، وَأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ، بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَأَقَرُّوا بِذَلِكَ، وَالْتَزَمُوهُ). اهـ

وَقَالَ العَلَّامَةُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ فِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» (ج١ ص٣١٥): (وَإِنْ كَانَ الْآبَاءُ مُخَالِفِينَ الرُّسُلَ، كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبِعَ الرُّسُلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العَنْكَبُوتُ: ٨]؛ الآيَةَ.

* **فَمَنِ اتَّبَعَ دِينَ آبَائِهِ بِغَيْرِ بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ**، بَلْ يَعْدِلُ عَنِ الحَقِّ المَعْلُومِ إِلَيْهِ، فَهَذَا اتَّبَعَ هَوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البَقَرَةُ: ١٧٠].

---

(١) **يَعْنِي**: أَوْلَادَ المُسْلِمِينَ، وَأَوْلَادَ المُشْرِكِينَ، فَهُمْ: فِي الجَنَّةِ، جَمِيعًا، لِأَنَّهُمْ مَاتُوا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ.

* وَهَذِهِ حَالُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِنَ الَّذِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الإِسْلَامِ، **يَتْبَعُ أَحَدُهُمْ أَبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنِ اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ**، وَإِنْ كَانَ خَطَأً لَيْسَ هُوَ فِيهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، بَلْ هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الدَّارِ، لَا مُسْلِمَةِ الِاخْتِيَارِ، **وَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ قَالَ؟ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ.**

* فَلْيَتَأَمَّلِ اللَّبِيبُ هَذَا المَحِلَّ، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيَقُمْ للهِ، وَلْيَنْظُرْ مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ هُوَ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ، فَإِنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ دَلِيلٍ، فَإِنَّهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَأَقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ المَرْءُ أَمْرُ نَفْسِهِ لَمَّا كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ، **وَالتَّرَائِبُ**: عِظَامُ الصَّدْرِ، ثُمَّ صَارَتْ تِلْكَ النُّطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الخَلَائِقِ). اهـ

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٤].

قُلْتُ: فَقَدْ أَقَامَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الخَلْقِ، الحُجَّةَ عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ فِي الغَيْبِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِمُ الحُجَّةَ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ عِنْدَمَا خَرَجُوا إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، مِمَّنْ بَلَغَ مِنْهُمْ.

قَالَ أَبُو حَيَّانَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللهُ فِي «البَحْرِ المُحِيطِ» (ج٤ ص٥٣٤): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أَيْ: مِثْلَ هَذَا التَّفْصِيلِ الَّذِي فَصَّلْنَا فِيهِ لِلآيَاتِ السَّابِقَةِ، نُفَصِّلُ لِلآيَاتِ اللَّاحِقَةِ؛ فَالكُلُّ عَلَىٰ نَمَطٍ وَاحِدٍ فِي التَّفْصِيلِ، وَالتَّوْضِيحِ؛ لِأَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ، وَبَرَاهِينِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ عَنْ شِرْكِهِمْ، وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، إِلَىٰ تَوْحِيدِهِ، وَعِبَادِهِ، بِذَلِكَ التَّفْصِيلِ وَالتَّوْضِيحِ). اهـ

قُلْتُ: فَمَنْ وَقَعَ فِي: «**الشِّرْكِ الأَكْبَرِ**»، وَهُوَ جَاهِلٌ، قَدْ قَامَتْ عَلَيهِ الحُجَّةُ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**»مَعًا، عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَكَفَىٰ.

* وَأَمَّا مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ **الكُتُبِ** مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، **وَإِرْسَالِ**: الرُّسُلِ إِلَيْهِ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيهِ الحُجَّةُ عَلَىٰ الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ إِذَا خَرَجَ إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا[1]، بِأَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ الكُتُبِ، وَالرُّسُلِ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ مَا يَحْتَاجُهُ مِنَ العِلْمِ النَّافِعِ: **مِنْ أَحْكَامِ التَّوْحِيدِ، وَأَحْكَامِ الصَّلَاةِ، وَأَحْكَامِ الزَّكَاةِ، وَأَحْكَامِ الصِّيَامِ، وَأَحْكَامِ الحَجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ**[2]، **فِي الأُصُولِ وَالفُرُوعِ**، مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ العَبْدُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا.[3]

قُلْتُ: لَوْ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَىٰ الخَلْقِ، إِلَّا هَذَا: «**العَهْدُ**»، وَ«**المِيْثَاقُ**»، وَلَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ، لَكَفَىٰ بِذَلِكَ حُجَّةً مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِمَا تَضَمَّنَهُ: «**المِيْثَاقُ**» مِنْ إِقْرَارِ الخَلْقِ؛ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ.

* **فَمَا بَالُكَ**: بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، فَقَدْ أَزَالَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمُ الاحْتِجَاجَ، بِتَرْكِيبِ العُقُولِ، وَالفَهْمِ فِيْهِمْ، وَتَذْكِيرِهِمْ، بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إِلَيْهِمْ، فَقَطَعَ بِذَلِكَ أَعْذَارَهُمْ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحْلُ:٣٦].

---

(١) **أَمَّا قِيَامُ الحُجَّةِ ابْتِدَاءً**، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيهِ بِالإِجْمَالِ؛ «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**» مَعًا، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

(٢) **أَمَّا قِيَامُ الحُجَّةِ بِالقُرْآنِ، وَدَعْوَةِ الرَّسُولِ** ﷺ، فَعَلَىٰ التَّفْصِيلِ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

(٣) وَانْظُرْ: «رُوْحَ المَعَانِي فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ العَظِيمِ وَالسَّبْعِ المَثَانِي» لِلْآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٣٤).

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «نَوَادِرِ الأُصُولِ» (ج١ ص٣١٠):** (**وَهَذَا بَعْدَ الإِدْرَاكِ**: حِيْنَ عَقِلُوا أَمْرَ الدُّنْيَا، وَتَأَكَّدَتْ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ، بِمَا نَصَبَ مِنَ الآيَاتِ الظَّاهِرَةِ، مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ، وَالبَرِّ وَالبَحْرِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَلَمَّا عَمِلَتْ أَهْوَاؤُهُمْ فِيْهِمْ، أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَدَعَتْهُمْ إِلَىٰ اليَهُوْدِيَّةِ، وَالنَّصْرَانِيَّةِ، فَذَهَبَتْ بِأَهْوَائِهِمْ، يَمِينـًا وَشِمَالاً). اهـ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **(كُلُّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ)**.[1]

* **فَأَخْذُ المِيْثَاقِ** مِنَ النَّاسِ فِي الغَيْبِ، وَإِقْرَارُهُمْ جَمِيعـًا، بِالرُّبُوبِيَّةِ للهِ تَعَالَىٰ، مَعَ فِطْرَةِ التَّوْحِيدِ وَالإِسْلَامِ، الَّتِي فَطَرَ اللهُ تَعَالَىٰ النَّاسَ عَلَيهَا فِي وَلِادَتِهِمْ.

* **كَفَىٰ بِذَلِكَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الإِجْمَالِ**، وَأَنَّهُ يَجُوزُ الاحْتِجَاجُ بِهَا عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ قَدْ أَقَرُّوا جَمِيعـًا بِهَذَا: «**المِيْثَاقِ**» للهِ تَعَالَىٰ، وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ سُبْحَانَهُ، وَبِتَوْحِيدِهِ، وَأَضِفْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَلْزَمَهُمُ الفِطْرَةَ، فِطْرَةَ الإِسْلَامِ مِنْ صِغَرِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَيُنَزِّلَ عَلَيْهِمُ الكُتُبَ، لِيَقُومَ عَلَيْهِمُ بِالحُجَّةِ البَالِغَةِ، فِي الإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ.[2]

* فَلَا يُوْلَدُ؛ لِأَيِّ: مَوْلِدٍ، إِلَّا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ حَقِيقَةً عِنْدَ وِلَادَتِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ اللهُ تَعَالَىٰ لِيَدْعُو خَلْقَهُ إِلَىٰ الإِيْمَانِ بِهِ، وَهُوَ لَمْ يُعَرِّفْهُمْ نَفْسَهُ العَظِيمَةَ ابْتِدَاءً فِي الغَيْبِ،

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٩)، و(١٣٨٥)، و(٤٧٧٥)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨).

(٢) وَانْظُرْ: «فَتْحَ القَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٢ ص١٥٢ و١٥٣)، و«رُوْحَ المَعَانِي» لِلآلُوسِيِّ (ج٩ ص١٤٠)، و«جَامِعِ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٢٣١)، و«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٠)، و«تَفْسِيرِ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٤ ص١١٧).

وَفِي صِغَرِهِمْ، إِذْ كَانَ يَكُونُ حِيْنَئِذٍ قَدْ كَلَّفَهُمُ الإِيْمَانَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، وَكَلَّفَهُمْ بِشَيْءٍ لَا يُدْرِكُونَهُ فِي الحَيَاةِ، وَهَذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، لِأَنَّهُ عَلِيمٌ، وَحَكِيمٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدِيرٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ.

* وَاللهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَذْكُرْ؛ لِأَيِّ: آيَةٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ، إِلَّا فِيهَا مِنَ الحُجَّةِ البَالِغَةِ، وَالحِكْمَةِ العَالِيَةِ، وَالعِلْمِيَّةِ النَّافِعَةِ لِلْخَلْقِ، فَلَا يَذْكُرُهَا سُبْحَانَهُ بِعَبَثٍ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ[1]، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ حِكْمَةٍ، عَرَفَهَا مَنْ عَرَفَ، وَجَهِلَهَا مَنْ جَهِلَ، وَاللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ.

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٨٨): (وَأَخْرَجَهُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، لِيَعْرِفَ مِنْهُمُ: العَارِفُ، وَيَعْتَرِفَ: فَيُؤْمِنُ، وَلِيُنْكِرَ مِنْهُمُ: المُنْكِرُ مَا يَعْرِفُ، فَيَكْفُرُ، وَذَلِكَ كُلُّهُ قَدْ سَبَقَ بِهِ لَهُمْ: قَضَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَقَدَّمَ فِيهِ عِلْمُهُ؛ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَيْهِ فِي حِينِ تَصِحُّ مِنْهُمُ: المَعْرِفَةُ، وَالإِيمَانُ، وَالكُفْرُ، وَالجُحُودُ، وَذَلِكَ عِنْدَ التَّمْيِيزِ، وَالإِدْرَاكِ). اهـ

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٨٩): (**وَمَعْنَىٰ الآيَةِ وَالحَدِيثِ**: أَنَّهُ أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ، كَيْفَ شَاءَ، وَأَلْهَمَهُمْ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، فَقَالُوا: ﴿بَلَىٰ﴾، لِئَلَّا يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، ثُمَّ تَابَعَهُمْ بِحُجَّةِ العَقْلِ، عِنْدَ التَّمْيِيزِ، وَبِالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: بَعْدَ ذَلِكَ؛ اسْتِظْهَارًا: بِمَا فِي عُقُولِهِمْ، مِنَ

(١) لِذَلِكَ؛ يَكْفِي لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَىٰ النَّاسِ، بِالمِيْثَاقِ، وَالفِطْرَةِ، عَلَىٰ الإِجْمَالِ، فَلَا يَأْتِي أَيُّ جَاهِلٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا لَا أَدْرِي، أَنَا كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الغَفْلَةِ عَنْ ذَلِكَ.

المُنَازَعَةِ إِلَىٰ خَالِقٍ، مُدَبِّرٍ، حَكِيمٍ، يُدَبِّرُهُمْ بِمَا لَا يَتَهَيَّأُ لَهُمْ، وَلَا يُمْكِنُهُمْ: جَحْدُهُ، **وَهَذَا إِجْمَاعُ أَهْلِ السُّنَّةِ**؛ وَالحَمْدُ للهِ). اهـ

* وَهَذَا الإِقْرَارُ حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفِسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ.(١)

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «شِفَاءِ العَلِيلِ» (ص١٩٥): (قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكَمِ أَخْذِ المِيْثَاقِ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا

---

(١) **فَأَمَّا نُطْقُهُمْ**: فَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَحَادِيثِ، الَّتِي فِيهَا أَنَّهُمْ أُخْرِجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، أَوْ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّتَهُ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ، وَأَنَّهُمْ كَهَيْئَةِ الذَّرِّ، ثُمَّ رُدُّوا فِي صُلْبِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَلْفَاظِ، فَلَا تَقُومُ بِهَا الحُجَّةُ، وَلَا تَصِحُّ أَسَانِيدُهَا كُلُّهَا.

وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٥٩).

* **قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الرُّوحِ» (ج٢ ص٤٧٣)**: (وَهَذَا الإِسْنَادُ، يُرْوَىٰ بِهِ أَشْيَاءُ مُنْكَرَةٌ جِدًّا، مَرْفُوعَةً، وَمَوْقُوفَةً). اهـ

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ فِي «دَرْءِ التَّعَارُضِ» (ج٨ ص٤٨٢): (مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: هَذَا الإِشْهَادُ كَانَ لَمَّا اسْتَخْرَجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ، كَمَا نَقَلَ ذَلِكَ **عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ**، وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ: مَرْفُوعًا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الحَاكِمُ، لَكِنْ رَفْعَهُ: ضَعِيفٌ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٢ ص٢٦٤)؛ فِي حَدِيثِ: ابنِ عَبَّاسٍ، وَحَدِيثِ ابنِ عُمَرَ: (وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُمَا مَوْقُوفَانِ لَا مَرْفُوعَانِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٥٩): (وَأَمَّا الْآثَارُ الَّتِي فِيهَا أَنَّهُ اسْتَنْطَقَهُمْ، وَأَشْهَدَهُمْ، وَخَاطَبَهُمْ فَهِيَ بَيْنَ مَوْقُوفَةٍ، وَمَرْفُوعَةٍ لَا يَصِحُّ إِسْنَادُهَا). اهـ

يَحْتَجُّوا يَوْمَ القِيَامَةِ: بِغَفْلَتِهِمْ عَنْ هَذَا الأَمْرِ، وَلَا بِتَقْلِيدِ الأَسْلَافِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ فَالضَّمِيرُ فِي: «بِهِ»: القُرْآنُ، وَ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾؛ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: حَذَارِ أَنْ تُسْلِمَ نَفْسٌ إِلَىٰ الهَلَكَةِ، وَالعَذَابِ، وَتَرْتَهِنُ بِسُوءِ عَمَلِهَا). اهـ

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢].

وَالمُرَادُ: فِي هَذِهِ الآيَةِ، إِنَّمَا يُرَادُ بِهَا شَهَادَةُ العَبْدِ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ **بِمَعْنَىٰ:** أَدَاءِ الشَّهَادَةِ عَلَىٰ نَفْسِهِ.

* **وَقَوْلُهُمْ:** ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ هُوَ إِقْرَارُهُمْ: بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ أَخْبَرَ بِأَمْرٍ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَدْ شَهِدَ بِهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾؛ **مَعْنَاهُ:** أَنْتَ رَبُّنَا، وَهَذَا إِقْرَارٌ مِنْهُمْ: بِرُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وَجَعْلِهِمْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ يَقْتَضِي أَنَّهُ هُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي جَعَلَهُمْ: شَاهِدِيْنَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، بِأَنَّهُ رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ.[1]

---

(١) وَانْظُرْ: «أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٦١)، و«تَأْوِيلَ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لابنِ قُتَيْبَةَ (ص٧٣ و٩٥)، و«التَّمْهِيدَ» لابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٩٠ و٩١)، و«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ والنَّقْلِ» لابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٣٥٩ و٣٦٠)، و«الفَتَاوَىٰ» لَهُ (ج٤ ص٢٤٥ و٢٤٧)، و«فَتْحَ البَارِي» لابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٤٨)، و«مَعَالِمَ السُّنَنِ» للخَطَّابِيِّ (ج٥ ص٨٨)، و«العَيْنَ» للخَلِيلِ (ج٧ ص٢٢٨)، و«لِسَانَ العَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ (ج٥ ص٥٥ و٥٨)، و«المُغِيثَ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» للسَّنْجَارِيِّ (ص٣١٤).

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٢): (وَهَذَا الإِشْهَادُ مُقِرُّونَ بِأَخْذِهِمْ مِنْ ظُهُورِ آبَائِهِمْ، وَهَذَا الأَخْذُ المَعْلُومُ المَشْهُودُ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ؛ هُوَ: أَخْذُ المَنِيِّ مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، وَنُزُولُهُ فِي أَرْحَامِ الأُمَّهَاتِ، لَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ هُنَا الأُمَّهَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]؛ وَهُمْ كَانُوا مُتَّبِعِينَ لِدِينِ آبَائِهِمْ، لَا لِدِينِ الأُمَّهَاتِ، كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٢]؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٢٤]؛ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: اذْكُرْ حِينَ أُخِذُوا مِنْ أَصْلَابِ الآبَاءِ، فَخُلِقُوا حِينَ وُلِدُوا عَلَىٰ الفِطْرَةِ، مُقِرِّينَ بِالْخَالِقِ، شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، **فَهَذَا الإِقْرَارُ**: حُجَّةٌ للهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهُوَ يَذْكُرُ أَخْذَهُ لَهُمْ، وَإِشْهَادَهُ إِيَّاهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَقَدَّرَ فَهَدَىٰ، فَأَخْذُهُمْ يَتَضَمَّنُ خَلْقَهُمْ، وَالإِشْهَادُ يَتَضَمَّنُ هُدَاهُ لَهُمْ إِلَىٰ هَذَا الإِقْرَارِ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿أَشْهَدَهُمْ﴾؛ أَيْ: جَعَلَهُمْ شَاهِدِينَ، فَهَذَا الإِشْهَادُ مِنْ لَوَازِمِ الإِنْسَانِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ جَعَلَهُ اللهُ مُقِرًّا بِرُبُوبِيَّتِهِ، شَاهِدًا عَلَىٰ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَاللهَ خَالِقُهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِبَنِي آدَمَ، لَا يَنْفَكُّ مِنْهُ مَخْلُوقٌ، وَهُوَ مِمَّا جُبِلُوا عَلَيْهِ، فَهُوَ عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَهُمْ، لَا يُمْكِنُ أَحَدًا جَحْدُهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾؛ أَيْ: كَرَاهِيَةَ أَنْ تَقُولُوا، أَوْ لِئَلَّا تَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ **أَيْ**: عَنْ هَذَا الإِقْرَارِ للهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَعَلَىٰ نُفُوسِنَا بِالعُبُودِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ مَا كَانُوا غَافِلِينَ عَنْ هَذَا، بَلْ كَانَ هَذَا مِنَ العُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُمُ الَّتِي لَمْ يَخْلُ مِنْهَا بَشَرٌ قَطُّ، بِخِلَافِ كَثِيرٍ مِنَ العُلُومِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً، وَلَكِنْ قَدْ يَغْفُلُ

عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ عُلُومِ العَدَدِ وَالحِسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ: فَإِنَّهَا إِذَا تَصَوَّرَتْ، كَانَتْ عُلُومًا ضَرُورِيَّةً، لَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ غَافِلٌ عَنْهَا.

* وَأَمَّا الِاعْتِرَافُ بِالخَالِقِ فَإِنَّهُ: عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ لَازِمٌ لِلإِنْسَانِ، لَا يَغْفُلُ عَنْهُ أَحَدٌ بِحَيْثُ لَا يَعْرِفُهُ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَهُ، وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَسِيَهُ.

وَلِهَذَا يُسَمَّىٰ التَّعْرِيفُ بِذَلِكَ: تَذْكِيرًا، فَإِنَّهُ تَذْكِيرٌ بِعُلُومٍ فِطْرِيَّةٍ ضَرُورِيَّةٍ، وَقَدْ يَنْسَاهَا العَبْدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحَشْرُ: ١٩]؛ وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**يَقُولُ اللهُ لِلكَافِرِ: فَاليَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي**»(١). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٦٣)**: (قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]؛ فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ لَهُمْ حُجَّتَيْنِ يَدْفَعُهُمَا هَذَا الإِشْهَادُ:

إِحْدَاهُمَا: أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾؛ فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا: عِلْمٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ لَا بُدَّ لِكُلِّ بَشَرٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُجَّةَ اللهِ فِي إِبْطَالِ التَّعْطِيلِ، وَأَنَّ القَوْلَ بِإِثْبَاتِ الصَّانِعِ: عِلْمٌ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَىٰ نَفْيِ التَّعْطِيلِ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾، وَهُمْ آبَاؤُنَا المُشْرِكُونَ؛ أَيْ: أَفَتُعَاقِبُنَا بِذُنُوبِ غَيْرِنَا؟ فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَارِفِينَ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَوَجَدُوا آبَاءَهُمْ مُشْرِكِينَ، وَهُمْ ذُرِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِهِمْ،

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٨٢٣)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَمُقْتَضَىٰ الطَّبِيعَةِ العَادِيَّةِ أَنْ يَحْتَذِيَ الرَّجُلُ حَذْوَ أَبِيهِ حَتَّىٰ فِي الصِّنَاعَاتِ، وَالمَسَاكِنِ، وَالمَلَابِسِ، وَالمَطَاعِمِ إِذْ كَانَ هُوَ الَّذِي رَبَّاهُ، **وَلِهَذَا كَانَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**، فَإِذَا كَانَ هَذَا مُقْتَضَىٰ العَادَةِ وَالطَّبِيعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ، **قَالُوا**: نَحْنُ مَعْذُورُونَ، وَآبَاؤُنَا هُمُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَنَحْنُ كُنَّا ذُرِّيَّةً لَهُمْ بَعْدَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا مَا يُبَيِّنُ خَطَأَهُمْ: **فَإِذَا كَانَ فِي فِطَرِهِمْ مَا شَهِدُوا بِهِ مِنْ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُمْ، كَانَ مَعَهُمْ مَا يُبَيِّنُ بُطْلَانَ هَذَا الشِّرْكِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي شَهِدُوا بِهِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ**.

فَإِذَا احْتَجُّوا بِالعَادَةِ الطَّبِيعِيَّةِ: مِنِ اتِّبَاعِ الآبَاءِ، كَانَتِ الحُجَّةُ عَلَيْهِمُ: هِيَ الفِطْرَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الفِعْلِيَّةُ السَّابِقَةُ؛ لِهَذِهِ العَادَةِ الطَّارِئَةِ، وَكَانَتِ الفِطْرَةُ المُوجِبَةُ لِلإِسْلَامِ: سَابِقَةً لِلتَّرْبِيَةِ الَّتِي يَحْتَجُّونَ بِهَا؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ نَفْسَ العَقْلِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُونَ التَّوْحِيدَ: حُجَّةٌ فِي بُطْلَانِ الشِّرْكِ، **لَا يَحْتَاجُ ذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولٍ، فَإِنَّهُ جَعَلَ مَا تَقَدَّمَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ بِدُونِ هَذَا**، وَهَذَا لَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٥]؛ فَإِنَّ الرَّسُولَ يَدْعُو إِلَىٰ التَّوْحِيدِ، وَلَكِنَّ الفِطْرَةَ: دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ يُعْلَمُ بِهِ إِثْبَاتُ الصَّانِعِ، لَمْ يَكُنْ فِي مُجَرَّدِ الرِّسَالَةِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ: فَهَذِهِ الشَّهَادَةُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمُ الَّتِي تَتَضَمَّنُ إِقْرَارَهُمْ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُمْ، وَمَعْرِفَتُهُمْ بِذَلِكَ أَمْرٌ لَازِمٌ لِكُلِّ بَنِي آدَمَ، بِهِ تَقُومُ حُجَّةُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي تَصْدِيقِ رُسُلِهِ، فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا أَنْ يَقُولَ يَوْمَ القِيَامَةِ: إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا غَافِلًا، وَلَا أَنَّ الذَّنْبَ كَانَ لِأَبِي المُشْرِكِ دُونِي، لِأَنَّهُ عَارِفٌ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَعْذُورًا فِي التَّعْطِيلِ، وَالإِشْرَاكِ، بَلْ قَامَ بِهِ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَذَابَ). اهـ

قُلْتُ: فَالقَوْلُ فِيمَا تَقَدَّمَ قَبْلُ هَذَا يَغْنِي عَنِ الجِدَالِ فِي إِقَامَتِ الحُجَّةِ: «**بِالمِيْثَاقِ**»، وَ«**الفِطْرَةِ**» عَلَىٰ الجُهَّالِ الَّذِينَ وَقَعُوا فِي: «**الشِّرْكِ الأَكْبَرِ**»، **لِأَنَّهُمْ** أَقَرُّوا فِي الغَيْبِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ، هُوَ رَبُّهُمْ المَعْبُودُ بِحَقٍّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، **وَكَذَلِكَ**: إِقْرَارُهُمْ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِالفِطْرَةِ[1] أَلْزَمَهَا قُلُوبَهُمْ مِنْذُ الصِّغَرِ، فَكَفَوْنَا التَّعْبَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ، بِهَذِهِ المَقَالَةِ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فِي عَالَمِ الغَيْبِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ: تَقْدِيرُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَفِطْرَتُهُ لَهُمْ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **(كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)**.[2]

وَعَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ رحمه الله؛ **أَنَّهُ قَالَ: (الفِطْرَةُ: الخِلْقَةُ الَّتِي يُخْلَقُ عَلَيْهَا الْمَوْلُودُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ)**.[3]

---

(١) **وَالفِطْرَةُ**: مَا يَقْلِبُ اللهُ تَعَالَىٰ، قُلُوبَ الخَلْقِ إِلَيْهِ، مِمَّا يُرِيدُ، وَيَشَاءُ، مِنَ التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ.

* **فَإِذَا أَرَادَ العَبْدُ**: الإِيْمَانَ بِالتَّوْحِيدِ، فَيَكُونُ مُؤْمِنًا، حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ الإِيْمَانِ وَالتَّوْحِيدِ.

* وَقَدْ يُشْرِكُ، وَيُرِيدُ الكُفْرَ، ثُمَّ لَا يَزَالُ عَلَىٰ كُفْرِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ، بِسَبَبِ جَهْلِهِ بِالتَّوْحِيدِ.

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٩)، و(١٣٨٥)، و(٤٧٧٥)، و(٦٥٩٩)، و(٦٦٠٠)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «سُنَنِهِ» (٢٢٧٤)، و(٢٢٧٥)، وَأَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (٧١٨١)، و(٧٤٤٥)، وَمَالِكٌ فِي «المُوَطَّأِ» (ج١ ص٢٤١)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (٤٧١٤)، وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» (١٢٨)، و(١٣٣).

(٣) **أَثَرٌ صَحِيحٌ**.

أَخْرَجَهُ الأَزْهَرِيُّ فِي «تَهْذِيبِ اللُّغَةِ» (ج٣ ص٢٨٠٣).

وإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقَالَ الإِمَامُ الأَزْهَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَهْذِيبِ اللُّغَةِ» (ج٣ ص٢٨٠٥): (وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ)؛ **مَعْنَاهُ**: أَنَّ اللهَ فَطَرَ الْخَلْقَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ بِهِ). اهـ

وقَالَ الإِمَامُ الخَطَّابِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَعَالِمِ السُّنَنِ» (ج٥ ص٨٨): (مَعْنَاهُ: أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ مِنَ البَشَرِ إِنَّمَا يُولَدُ فِي مَبْدَأِ الخِلْقَةِ، وأَصْلِ الجِبِلَّةِ عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، والطَّبْعِ المُتَهَيِّءِ؛ لِقَبُولِ الدِّينِ: فَلَوْ تُرِكَ عَلَيْهَا وَخُلِّيَ وُسُومَهَا؛ لاسْتَمَرَّ عَلَىٰ لُزُومِهَا، وَلَمْ يُفَارِقْهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا.

* لأَنَّ هَذَا الدِّينَ مَوْجُودٌ حَسَنُهُ فِي العَقْلِ يَسَّرَهُ فِي النُّفُوسِ، وإِنَّمَا يَعْدِلُ عَنْهُ مَنْ يَعْدِلُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَيُؤَثِّرُ عَلَيْهِ، لآفَةٍ مِنْ آفَاتِ النُّشُوءِ والتَّقْلِيدِ، فَلَوْ سَلِمَ المَوْلُودُ مِنْ تِلْكَ الآفَاتِ لَمْ يَعْتَقِدْ غَيْرَهُ، وَلَمْ يَخْتَرْ عَلَيْهِ مَا سَوَاهُ). اهـ

* **وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (خَمْسٌ مِنَ الفِطْرَةِ)**[1]؛ يَعْنِي: فِطْرَةَ الإِسْلَامِ.

قُلْتُ: فالفِطْرَةُ، هِيَ: الإِسْلَامِ.

وَعَنِ الإِمَامِ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ أَنَّهُ كَانَ يُفَسِّرُ؛ حَدِيثَ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ»، قَالَ: (هَذَا عِنْدَنَا حَيْثُ أَخَذَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمُ: العَهْدَ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ **[الأَعْرَافُ: ١٧٢]**).[2]

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (٥٨٨٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٥٧) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) **أَثَرٌ صَحِيحٌ**.

أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ فِي «جَامِعِ البَيَانِ» (ج١٠ ص٥٥٩)، وَابنُ عَبْدِ البَرِّ فِي «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٩٣)، وابنُ بَطَّةَ فِي «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (ج١ ص٧٢٠).

=

قَالَ شَيْخُنَا العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ في «شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» (ج٨ ص١١٣): (حَدِيثُ أَخْذِ: «**العَهْدِ**»، وَ«**المِيْثَاقِ**» فِي صُلْبِ آدَمَ؛ تَكَلَّمَ فِيهِ النَّاسُ كَثِيراً، وَقَالُوا: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ إِنَّ هَذَا مَا رَكَزَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي الفِطَرِ وَالعُقُولِ مِنَ الوَحْدَانِيَّةِ، وَالإِيْمَانِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْرِهِمْ، فَالجَمْعُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ: بَنُو آدَمَ أَنْفُسُهُمْ، أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخَذَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَذَلِكَ بِمَا رَكَزَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الفِطْرَةِ، وَالمَسْأَلَةُ مَبْسُوطَةٌ فِي شَرْحِ الطَّحَاوِيَّةِ). اهـ

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ:٢٥].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «شَرْحِ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَةِ» (ج١ ص٣١٣): (سُبْحَانَهُ: أَشْهَدَ كُلَّ وَاحِدٍ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ رَبُّهُ، وَخَالِقُهُ، وَاحْتَجَّ عَلَيْهِ، بِهَذَا الإِشْهَادِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ:٢٥]؛ فَهَذِهِ هِيَ الحُجَّةُ الَّتِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ بِمَضْمُونِهَا،

=

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَذَكَرَهُ أَبُو القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ فِي «شَرْحِ صَحِيحِ البُخَارِيِّ» (ج٣ ص٢٨٣).

وَذَكَّرَتْهُمْ بِهَا: رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]) .اهـ

وَعَنِ الإِمَامِ الزُّهْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: (يُصَلَّىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَوْلُودٍ مُتَوَفًّىٰ، وَإِنْ كَانَ لِغَيَّةٍ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ: وُلِدَ عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ، إِذَا اسْتَهَلَّ صَارِخًا صُلِّيَ عَلَيْهِ، وَلاَ يُصَلَّىٰ عَلَىٰ مَنْ لاَ يَسْتَهِلُّ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سِقْطٌ).[١]

وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: (أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي، يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا، حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا).[٢]

قُلْتُ: وَهَذَا الحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا فَسَّرَ بِهِ الأَئِمَّةُ: «**الفِطْرَةَ**»، أَنَّهَا دِيْنُ الإِسْلَامِ، هُوَ صَرِيحٌ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَطَرَ الخَلْقَ عَلَىٰ الحَنِيفِيَّةِ، وَهِيَ: الإِسْلاَمُ.[٣]

* **والحَنَفِيَّةُ**: هِيَ الإِسْلاَمُ.

---

(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٣ ص٢٦٠).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٨٦٥)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ القُرْآنِ» (ص١٠٤)، وَأَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (ج٤ ص١٦٢ و٢٦٦)، وَالطَّيَالِسِيُّ فِي «المُسْنَدِ» (١٠٧٩).

(٣) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البرِّ (ج١٨ ص٧٣)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٣ ص٧١)، و(ج٧ ص٤٠٠)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٣١).

قَالَ الحَافِظُ ابنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٧٥)**: (وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْحَنَفِيَّةَ: الْإِسْلَامُ.

* **وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ**، قَوْلُ اللهِ تعالىٰ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [الأعراف: ٦٧].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]). اهـ

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الرُّوْمُ:٣٠].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأَحْزَابُ:٧].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأَعْرَافُ:١٠٢].

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المَائِدَةُ: ٧].

قُلْتُ: فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ العَهْدَ بِالإِيْمَانِ بِهِ، وَالإِقْرَارِ، وَالمَعْرِفَةِ بِاللهِ، وَأَمْرِهِ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِ، وَلِئَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا[1]، فَآمَنُوا، وَصَدَّقُوا، وَعَرَفُوا، وَأَقَرُّوا.

---

(١) فَأَخَذَ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ: **المِيْثَاقَ**، أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.

وَانْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٣ ص٢٢٢)، وَ«جَامِعَ البَيَانِ» لِلطَّبَرِيِّ (ج١٠ ص٥٦٤ و٥٦٥)، وَ«أَحْكَامَ أَهْلِ الذِّمَّةِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٥٢٧ و٥٢٨)، وَ«الكَلَامَ في مَسْأَلَةِ السَّمَاعِ» لَهُ (ص٣٨٣ و٣٨٥)، و«تَأْوِيلَ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لابنِ قُتَيْبَةَ (ص٧٣ و٩٥)، و«غَرِيبَ الحَدِيثِ» لَهُ (ج١ ص٣٥٠)، و«شَرْحَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» للنَّوَوِيِّ (ج١٦ ص٢٠٨)، و«العَيْنَ» للخَلِيلِ (ج٧ ص٤١٨)، و«لِسَانَ العَرَبِ» لابنِ مَنْظُورٍ (ج٥ ص٥٥ و٥٨)، و«المُغِيثَ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» للسَّنْجَارِيِّ (ص٣١٤)، و«مُشْكِلَ الآثَارِ» للطَّحَاوِيِّ

=

* فَهَذِهِ الأَحَادِيثُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ، وَأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، المُسْتَقِيمَةِ، طَاهِرِينَ مِنَ المَعَاصِي، مُنِيبِينَ: لِقَبُولِ الهِدَايَةِ.

* وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ، وَحَرَفَتْهُمْ، وَأَزَالَتْهُمْ عَنْ هَذِهِ الهِدَايَةِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ مَقَتَهُمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ.

* وَصَحَّ أَنَّ جَمِيعَ المَوَالِيدِ، يُوْلَدُونَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَهُوَ: «**المِيْثَاقُ الأَوَّلُ**»، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]، فَهُمْ: يُوْلَدُونَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَعَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**»، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ: آبَاؤُهُمْ، يَحْرِفُوهُمْ عَنْ هَذَا: «**المِيْثَاقِ**» إِلَىٰ الضَّلَالَةِ.

وَعَنِ الإِمَامِ إِسْحَاقَ بنِ إِبْرَاهِيمَ الحَنْظَلِيِّ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: فِي قَوْلِهِ: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ»؛ أَرَادَ بِهِ عَلَىٰ المِيْثَاقِ الأَوَّلِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢].(١)

=

(ج٤ ص١١)، و«الجَامِعَ لأَحْكَامِ القُرْآنِ» للقُرْطُبِيِّ (ج١٤ ص٢٤ و٣٠)، و«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لابنِ كَثِيرٍ (ج٣ ص٣٧٠)، و«الحُجَّةَ فِي بَيَانِ المَحَجَّةِ» للأَصْبَهَانِيِّ (ج٢ ص٣٤)، و«شَرْحَ العَقِيدَةَ الطَّحَاوِيَّةِ» لابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣٣ و٣٥).

(١) **أَثَرٌ صَحِيحٌ**.

أَخْرَجَهُ البَيْهَقِيُّ فِي «القَضَاءِ وَالقَدَرِ» (ج٣ ص٨٥٦).

وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

قُلْتُ: فَذَهَبَ الإِمَامُ إِسْحَاقُ بنُ رَاهُوْيَه رحمه الله، إِلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**»، أَرَادَ بِهِ عَلَىٰ: «**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**».

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢].

قَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رحمه الله **فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٣١)**: (فَصْلٌ: وَيَدُلُّ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا فَسَّرَ بِهِ الأَئِمَّةُ «**الفِطْرَةَ**» أَنَّهَا: «**الدِّينُ**»؛ مَا رَوَاهُ: مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ[1]: «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا**»؛ وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّهُمْ خُلِقُوا عَلَىٰ الحَنِيفِيَّةِ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ اقْتَطَعَتْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْهَا، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْهَا.

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* وَهَذَا يَتَنَاوَلُ إِخْرَاجَ الشَّيَاطِينِ لَهُمْ مِنْ نُورِ الفِطْرَةِ إِلَىٰ ظُلْمَةِ الكُفْرِ وَالشِّرْكِ، وَمِنَ النُّورِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ إِلَىٰ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالضَّلَالِ).اهـ

---

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (ج٤ ص١٦٢ و٢٦٦)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٥ ص٧١٦)، وَأَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي «المُسْنَدِ» (١٠٧٩)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ القُرْآنِ» (ص١٠٤).

وَقَالَ الإِمَامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «أَحْكَامِ أَهْلِ الذِّمَّةِ» (ج٢ ص٥٢٧)؛ عَنْ تَفْسِيرِ المِيْثَاقِ: بِالفِطْرَةِ، مُسْتَنِداً: إِلَىٰ السُّنَّةِ، وَدِلَالَةِ العَقْلِ، وَظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَالنَّظَائِرِ: (وَأَحْسَنُ مَا فُسِّرَتْ بِهِ الآيَةُ: قَوْلُهُ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ: فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ**»، فَالمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ، وَالإِشْهَادُ الَّذِي أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، وَالإِقْرَارُ الَّذِي أَقَرُّوا بِهِ هُوَ الفِطْرَةُ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَا يَذْكُرُهُ، بَلْ بِمَا يُشْرَكُونَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَالإِقْرَارِ بِهِ، وَأَيْضًا، فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢]؛ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ آدَمَ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: «مِنْ ظَهْرِهِمْ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ وَلَمْ يَقُلْ: «ذُرِّيَّتَهُ»؛ ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، **وَهَذَا يَقْتَضِي إِقْرَارَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ إِقْرَارًا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الحُجَّةُ**، وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ الإِقْرَارُ الَّذِي احْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ [إِبْرَاهِيمُ: ١٠]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ: ٨٧]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لُقْمَانُ: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المُؤْمِنُونَ: ٨٤ - ٨٥]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ: يَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنَ الإِقْرَارِ بِرَبِّهِمْ، وَفَاطِرِهِمْ، وَيَدْعُوهُمْ: بِهَذَا الإِقْرَارِ إِلَىٰ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَأَلَّا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، هَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي فِي «الأَعْرَافِ» وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٧٢] الآيَةَ، وَلِهَذَا قَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا

إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ و١٧٣]، فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا أَقَرُّوا بِهِ مِنْ رُبُوبِيَّتِهِ عَلَىٰ بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ، وَعِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَأَلَّا يَعْتَذِرُوا، إِمَّا بِالغَفْلَةِ عَنِ الحَقِّ، وَإِمَّا بِالتَّقْلِيدِ فِي البَاطِلِ، **فَإِنَّ الضَّلَالَ لَهُ سَبَبَانِ**: إِمَّا غَفْلَةٌ عَنِ الحَقِّ، وَإِمَّا تَقْلِيدُ أَهْلِ الضَّلَالِ، فَيُطَابِقُ الحَدِيثَ مَعَ الآيَةِ، وَيُبَيِّنُ مَعْنَىٰ كُلٍّ مِنْهُمَا بِالآخَرِ). اهـ

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠].

قَالَ الإِمَامُ الطَّحَاوِيُّ رحمه الله **فِي «مُشْكِلِ الآثَارِ» (ج٤ ص١٨)**: (**قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ أَيْ: مِلَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ الَّتِي خَلَقَ النَّاسَ عَلَيْهَا). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ رحمه الله **فِي «تَفْسِيرِ القُرْآنِ» (ج٣ ص٤٤٢)**: (يَقُولُ تَعَالَىٰ: فَسَدِّدْ وَجْهَكَ، وَاسْتَمِرَّ عَلَىٰ الدِّينِ، الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لَكَ، مِنَ الحَنِيفِيَّةِ: مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، الَّتِي هَدَاكَ اللهُ تَعَالَىٰ لَهَا، وَكَمَّلَهَا لَكَ غَايَةَ الكَمَالِ، وَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ لَازِمْ فِطْرَتَكَ السَّلِيمَةَ، الَّتِي فَطَرَ اللهُ تَعَالَىٰ الخَلْقَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ فَطَرَ خَلْقَهُ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرَهُ). اهـ

وَقَالَ الحَافِظُ البُخَارِيُّ رحمه الله **فِي «صَحِيحِهِ» (ص٨٣٩)**: (بَابٌ: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ لِدِينِ اللهِ: ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ [الشُّعَرَاءُ:١٣٧]؛ دِينُ الأَوَّلِينَ، وَالفِطْرَةُ: الإِسْلاَمُ).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ [(١)] البَهِيمَةُ، بَهِيمَةً جَمْعَاءَ [(٢)]، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ [(٣)]، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]. وَفِي رِوَايَةٍ: (كُلُّ بَنِي آدَمَ يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ). وَفِي رِوَايَةٍ: (لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ، يُولَدُ؛ إِلَّا عَلَىٰ هَذِهِ الفِطْرَةِ، حَتَّىٰ يُعَبِّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ). وَفِي رِوَايَةٍ: (لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ، يُولَدُ؛ إِلا عَلَىٰ هَذِهِ المِلَّةِ، حَتَّىٰ يُبَيِّنَ عَنْهُ لِسَانُهُ). وَفِي رِوَايَةٍ: (كُلُّ بَنِي آدَمَ يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ). وَفِي رِوَايَةٍ: (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ، وَهُوَ صَغِيرٌ؟، قَالَ ﷺ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ). وَفِي رِوَايَةٍ: (فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ؛ يَعْنِي: مَاتَ؟، قَالَ ﷺ: اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ).

أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (١٣٥٨)، و(١٣٥٩)، و(١٣٨٥)، و(٤٧٧٥)، و(٦٥٩٩)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٦٥٨)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» (٤٧١٤)، وَمَالِكٌ فِي «المُوَطَّأِ» (ج١ ص٢٤١)، وَهَمَّامُ بنُ مُنَبِّهٍ فِي «صَحِيفَتِهِ» (ص٢٥٩)، وَالبَيْهَقِيُّ فِي «السُّنَنِ الكُبْرَىٰ» (ج٦ ص٢٠٢)، وَفِي «الاعْتِقَادِ» (١٦٤)، وَفِي «القَضَاءِ وَالقَدَرِ» (ج٣ ص٨٥٧ و٨٥٨ و٨٦٠ و٨٦١)، وَفِي «مَعْرِفَةِ السُّنَنِ وَالآثَارِ» (٣٨٣٠)، وَأَبُو مُصْعَبٍ

---

(١) أَيْ: تُوْلَدُ.

(٢) جَمْعَاءُ: نَعْتٌ لِبَهِيمَةٍ؛ أَيْ: لَمْ يَذْهَبْ مِنْ بَدَنِهَا شَيْءٌ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، لِاجْتِمَاعِ أَعْضَائِهَا.

(٣) جَدْعَاءُ: أَيْ؛ مَقْطُوعَةِ الأَنْفِ، أَوِ الأُذُنِ، أَوِ الأَطْرَافِ.

انْظُرْ: «شَرْحَ المُوَطَّأِ» لِلزُّرْقَانِيِّ (ج٢ ص١٢٩).

الزُّهْرِيُّ في «المُوَطَّأِ» (٩٩٥)، وَأَحْمَدُ في «المُسْنَدِ» (ج٢ ص٢٣٣ و٢٧٥ و٣٩٣ و٤١٠ و٤٨١)، وَابْنُ حِبَّانَ في «صَحِيحِهِ» (١٢٨)، و(١٣٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ في «سُنَنِهِ» (٢٢٧٤)، و(٢٢٧٥)، وَالطَّبَرَانِيُّ في «مُسْنَدِ الشَّامِيِّينَ» (ج١ ص٨٣ و٨٦)، وَالطَّحَاوِيُّ في «مُشْكِلِ الآثَارِ» (ج٤ ص١١ و١٢ و١٣)، وَابْنُ بُكَيْرٍ في «المُوَطَّأِ» (ج١ ص٦٧٢)، وَابْنُ بَطَّةَ في «الإِبَانَةِ الكُبْرَىٰ» (١٤٧٨)، وَاللَّالَكَائِيُّ في «الاعْتِقَادِ» (٩٩٥)، و(٩٩٨)، وَالجَوْهَرِيُّ في «مُسْنَدِ المُوَطَّأِ» (٥٣٨)، وَالفِرْيَابِيُّ في «القَدَرِ» (١٦١)، وَالآجُرِّيُّ في «الشَّرِيعَةِ» (٣٩٦)، وَابْنُ القَاسِمِ في «المُوَطَّأِ» (٣٣٨)، وَابْنُ عَبْدِ البَرِّ في «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٦٤ و٦٥)، وَفي «الاسْتِذْكَارِ» (ج٨ ص٣٧٥)، وَعَبْدُ الحَقِّ الإِشْبِيلِيُّ في «الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الكُبْرَىٰ» (ج٢ ص٥٧١)، وَالقَسْطَلَانِيُّ في «إِرْشَادِ السَّارِي» (ج٣ ص٤٩٤)، وَالمَحَامِلِيُّ في «الأَمَالِي» (٢٢٥)، وَابْنُ وَهْبٍ في «المُوَطَّأِ» (ص٤٦٢)، وَالبَزَّارُ في «المُسْنَدِ» (ج١٤ ص١٨١ و٣٧١)، وَ(ج١٦ ص٢٠٨ و٢٦٧)، وَمَعْمَرُ بنُ رَاشِدٍ الأَزْدِيُّ في «الجَامِعِ» (ج١١ ص١١٩)، وَالدَّارَقُطْنِيُّ في «العِلَلِ» (ج٨ ص٢٨٨)، وَابْنُ أَبِي صُفْرَةَ في «المُخْتَصَرِ النَّصِيحِ» (ج٢ ص٣٨)، وَيَعْقُوبُ بنُ سُفْيَانَ في «المَعْرِفَةِ وَالتَّارِيخِ» (ج٢ ص٢٨٣)، وَابْنُ عَسَاكِرَ في «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (ج٥٩ ص٣٨٩)، وَأَبُو يَعْلَىٰ في «المُسْنَدِ» (ج١١ ص٢٨٢)، وَالطَّيَالِسِيُّ في «المُسْنَدِ» (٢٨٢٣)، وَالبَغَوِيُّ في «شَرْحِ السُّنَّةِ» (٨٤)، و(٨٥)، وأَبُو نُعَيْمٍ في «المُسْنَدِ المُسْتَخْرَجِ» (ج٣ ص٩)، وفي «أَخْبَارِ أَصْبَهَانَ» (ج٢ ص٢٢٦)، وَالطُّوْسِيُّ في «مُخْتَصَرِ الأَحْكَامِ» (١٥٥٩)، وَأَبُو عَوَانَةَ في «المُسْنَدِ الصَّحِيحِ» (ج٢٠ ص٢٦١ و٢٦٨ و٢٦٩ و٢٧٣ و٢٧٤ و٢٧٥)، وَالمُطَرِّزُ في «الفَوَائِدِ» (١٨٦)،

و(١٨٧)، و(١٨٨)، و(١٨٩)، وَالمِزِّيُّ في «تَهْذِيبِ الكَمَالِ» (ج١٨ ص١٣١)، وَالحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ في «نَوَادِرِ الأُصُولِ» (ج٢ ص٢٠٨)، وَالحُمَيْدِيُّ في «المُسْنَدِ» (ج٢ ص٤٧٣)، وَالدَّيْلَمِيُّ في «الفِرْدَوْسِ بِمَأْثُورِ الخِطَابِ» (٤٧٣٠)، وَأَبُو الشَّيْخِ في «طَبَقَاتِ المُحَدِّثِينَ بِأَصْبَهَانَ» (ج٣ ص٤٧٠)، وَأَبُو إِسْحَاقَ الفَزَارِيُّ في «السِّيَرِ» (ج٢ ص٥٩٨)، وَالشَّافِعِيُّ في «المُوَطَّأِ» (ص٤٦٢)، وَالذُّهْلِيُّ في «الزُّهْرِيَّاتِ» (ج٢ ص٧٧٦)، وَابْنُ أَبِي أُسَامَةَ في «المُسْنَدِ» (ج٢ ص٣٢١)، و(ج٥ ص٢٨)، وَأَبُو بَكْرٍ الأَنْصَارِيُّ في «المَشْيَخَةِ الكُبْرَىٰ» (ج٢ ص٧٩٧) مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَهَمَّامِ بنِ مُنَبِّهٍ، وَأَبِي سَلَمَةَ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَطَاوُوسَ، وَعَطَاءِ بنِ يَزِيدَ، وَأَبِي جَامِعٍ، وَبَشِيرِ بنِ نَهِيكٍ، وَعَمَّارٍ مَوْلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ، وَالحَسَنِ البَصْرِيِّ، وَالأَعْرَجِ، وَحُمَيْدِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ يَعْقُوبَ الحُرَقِيِّ، جَمِيعُهُمْ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بِهِ.

وَقَالَ الحَافِظُ ابن عَبْدِ البَرِّ رحمه الله **في «الاسْتِذْكَارِ» (ج٨ ص٣٧١)**: (وَرُوِيَ هَذَا الحَدِيثُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: مِنْ وُجُوهٍ، صِحَاحٍ، ثَابِتَةٍ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه).

* **فَقَوْلُهُ** ﷺ: (**كُلُّ مَوْلُودٍ، يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**)؛ إِنَّمَا أَرَادَ ﷺ بِهِ: الإِخْبَارَ بِالحَقِيقَةِ الَّتِي خُلِقُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ: فِطْرَةُ الإِسْلَامِ، وَ«**المِيْثَاقِ الأَوَّلِ**».[1]

---

(١) وَانْظُرْ: «تَأْوِيلَ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لِابنِ قُتَيْبَةَ (ص٢٦١)، وَ«المُغِيثَ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» للسَّنْجَارِيِّ (ص٣١٣)، وَ«غَرِيبَ الحَدِيثِ» لِأَبِي عُبَيْدٍ (ج٤ ص٣٧٣)، وَ«غَرِيبَ الحَدِيثِ» لِلْحَرْبِيِّ (ج١ ص١١)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٧٣)، وَ«الاسْتِذْكَارِ» لَهُ (ج٣ ص١٠١)، وَ«مُشْكِلَ الآثَارِ» لِلطَّحَاوِيِّ (ج٤ ص١١)، وَ«الجَامِعَ لِأَحْكَامِ القُرْآنِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج١٤ ص٣١٩)، وَ«الحُجَّةَ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ج٢ ص٤١)، =

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأَعْلَىٰ:٢ و٣].

قَالَ الحَافِظُ ابن عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «التَّمْهِيدِ» (ج١٨ ص٦٤)**: (وَالدَّلِيلُ: عَلَىٰ أَنَّ المَعْنَىٰ، كَمَا وَصَفْنَا، رِوَايَةُ مَنْ رَوَىٰ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ، يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»، وَ«**مَا مِنْ مَوْلُودٍ؛ إِلَّا وَهُوَ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**»؛ وَحَقُّ الكَلَامِ، أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ عُمُومِهِ). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «شَرْحِ صَحِيحِ البُخَارِيِّ» (ج٣ ص٢٦٤)**: (قَوْلُهُ ﷺ: «**بَهِيمَةً جَمْعَاءَ**»؛ أَيْ: تَامَّةَ الأَعْضَاءِ، غَيْرَ نَاقِصَةِ الأَطْرَافِ، وَ«**بَهِيمَةً**»؛ نَصْبُ مَفْعُولِ: «**تُنْتَجُ**»، وَ«**جَمْعَاءَ**»: نَعْتٌ لَهَا). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «التَّحْرِيرِ في شَرْحِ مُسْلِمٍ» (ص٦٠٤)**: (وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: أَنَّ الفِطْرَةَ هَاهُنَا؛ هِيَ الفِطْرَةُ الغَرِيزِيَّةُ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ في كُلِّ إِنْسَانٍ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ رَجَعَ إِلَىٰ الفِطْرَةِ الغَرِيزِيَّةِ عَرَفَ خَالِقَهُ، **وَذَلِكَ مَعْنَىٰ**: قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ وَهَذِهِ المَعْرِفَةُ: هِيَ المَعْرِفَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ، بِوُجُودِهَا مِنَ الكُفَّارِ، وَذَلِكَ: في **قَوْلِهِ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّمَرُ:٣٨]؛ **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العَنْكَبُوتُ:٦٥]؛ فَحِينَ ظَهَرَتْ لَهُمْ

=

وَ«التَّحْرِيرَ في شَرْحِ مُسْلِمٍ» لَهُ (ص٦٠٤)، وَ«شَرْحَ صَحِيحِ البُخَارِيِّ» لَهُ أَيْضاً (ج٣ ص٢٨٣)، وَ«أَعْلَامَ الحَدِيثِ» لِلخَطَّابِيِّ (ج١ ص٧١٦)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٣٥٩)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٥٠).

حَالُ الضَّرُورَةِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ أَسْبَابِ الخَلْقِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِأَحَدٍ، ظَهَرَتْ فِيْهِمُ: المَعْرِفَةُ الغَرِيزِيَّةُ). اهـ

قُلْتُ: وَهَذَا المُعْتَقَدُ الصَّحِيحُ، فِي الفِطْرَةِ، قَدْ دَلَّتْ عَلَيهِ الأَدِلَّةُ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا كَانَ عَلَيهِ سَلَفُ هَذِهِ الأُمَّةِ، مِنَ الصَّحَابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ: مِنَ الأَئِمَّةِ المَرْضِيِّينَ.

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ **فِي «الحُجَّةِ»** (ج١ ص٤١): (وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ أَنَّ الفِطْرَةَ هَا هُنَا: هِيَ الفِطْرَةُ الغَرِيزِيَّةُ الَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَرْجِعُ إِلَىٰ غَرِيزَتِهِ عَرَفَ خَالِقَهُ، **وَذَلِكَ مَعْنَىٰ**: قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ وَهَذِهِ المَعْرِفَةُ: هِيَ المَعْرِفَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ، بِوُجُودِهَا مِنَ الكُفَّارِ، **وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ**: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّمَرُ:٣٨]؛ **وَقَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العَنْكَبُوتُ:٦٥]؛ فَحِينَ ظَهَرَتْ لَهُمْ حَالُ الضَّرُورَةِ، وَانْقَطَعُوا عَنْ أَسْبَابِ الخَلْقِ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ تَعَلُّقٌ بِأَحَدٍ، ظَهَرَتْ فِيْهِمُ: المَعْرِفَةُ الغَرِيزِيَّةُ، إِلَّا أَنَّهَا: غَيْرُ نَافِعَةٍ، إِنَّمَا النَّافِعَةُ هِيَ المَعْرِفَةُ الكَسْبِيَّةُ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ فَطَرَ النَّاسَ عَلَىٰ المَعْرِفَةِ الغَرِيزِيَّةِ، وَطَلَبَ مِنْهُمُ: المَعْرِفَةَ الكَسْبِيَّةَ، وَعَلَّقَ الثَّوَابَ بِهَا، وَالعِقَابَ عَلَىٰ تَرْكِهَا). اهـ

* **وَالقَوْلُ بِأَنَّ المُرَادَ بِالفِطْرَةِ**: المَعْرِفَةُ الغَرِيزِيَّةُ، لَا يُخَالِفُ مَا دَلَّتْ عَلَيهِ الأَحَادِيثُ، مِنْ أَنَّ المَوْلُودَ يُوْلَدُ عَلَىٰ المِلَّةِ، وَأَنَّ المَوْلُودَ مِنْ بَنِي آدَمَ خُلِقَ حَنِيفًا، مُسْلِمًا، بَلْ هُوَ مُؤَيِّدٌ لِذَلِكَ.ث

* لِأَنَّ هَذِهِ المَعْرِفَةُ مِنْ مُقْتَضِيَاتِ دِيْنِ اللهِ، هُوَ الإِسْلَامُ، الَّذِي هُوَ مَعْنَىٰ: الفِطْرَةِ الوَارِدَةِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠].

وَالقَوْلُ بِأَنَّ المُرَادَ بِالفِطْرَةِ: الإِسْلَامُ، مَذْهَبُ كَثِيرٍ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، مِنْهُمْ: عِكْرِمَةُ، وَالحَسَنُ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَأَحْمَدُ، وَغَيْرُهُمْ.

* وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ، أَنَّهُ إِذَا قِيْلَ: إِنَّهُ وُلِدَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، أَوْ عَلَىٰ الإِسْلَامِ، أَوْ عَلَىٰ هَذِهِ المِلَّةِ، أَوْ خُلِقَ حَنِيفًا: فَلَيْسَ المُرَادُ بِهِ أَنَّهُ حِيْنَ خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ أَنَّهُ يَعْلَمُ هَذَا الدِّيْنَ وَيُرِيدُهُ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ.

فَإِنَّ؛ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النَّحْلُ:٧٨].

قُلْتُ: وَلَكِنَّ فِطْرَتَهُ تَسْتَلْزِمُ الإِقْرَارَ بِخَالِقِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّيْنِ لَهُ، وَرُسُوخِهَا فِي النَّفْسِ، وَاكْتِمَالِهَا؛ بِحَسَبِ كَمَالِ الفِطْرَةِ إِذَا سَلِمَتْ مِنَ المُعَارِضِ، وَنَظَرْتَ إِلَىٰ الأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ أَنَّ الإِسْلَامَ حَقٌّ.

* فَحُصُولُ هَذَا التَّهْوِيدِ، وَالتَّنْصِيرِ، وَالتَّمْجِيسِ: مَوْقُوفٌ عَلَىٰ أَسْبَابٍ خَارِجَةٍ عَنِ الفِطْرَةِ، وَحُصُولِ الحَنِيفِيَّةِ، وَالإِخْلَاصِ، وَمَعْرِفَةِ الرَّبِّ، وَالخُضُوعُ لَهُ، لَا يَتَوَقَّفُ أَصْلُهُ عَلَىٰ غَيْرِ الفِطْرَةِ، وَإِنْ تَوَقَّفَ كَمَالُهُ وَتَفْصِيلُهُ عَلَىٰ غَيْرِهَا.

فَالمُرَادُ بِالحَدِيثِ: أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُوْلَدُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ لِفَاطِرِهِ، وَإِقْرَارِهِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَاسْتِحْقَاقِهِ لَهُ بِالعِبَادَةِ وَحْدَهُ، فَلَوْ خُلِّيَ، وَعُدِمَ المُعَارِضُ لَمْ يُعْدَلْ عَنْ ذَلِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ.(١)

وَقَالَ المُفَسِّرُ ابنُ الحِيْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الكِفَايَةِ فِي التَّفْسِيرِ» (ج٦ ص٧٢): (قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الرُّوْمُ:٣٠]؛ وَالحَنِيفُ: المَائِلُ عَنِ الأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَقِيلَ: ﴿حَنِيفًا﴾؛ مُسْلِمًا: ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾؛ أَيْ: دِينُ اللهِ: ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ خَلَقَ النَّاسَ عَلَيهَا، وَأَرَادَ بِهِ: آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ فِي صُلْبِهِ، **قَالَ أَبُو العَالِيَةِ وَمُقَاتِلٌ**: أَرَادَ بِهِ أَخْذَ المِيْثَاقِ عَلَيْهِمْ حِيْنَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ أَبِيهِمْ آدَمَ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢](٢)؛ فَهَذَا مَعْنَىٰ: ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ أَيْ: خَلَقَكُمْ، وَيُؤَيِّدُ مَا قَالُوا؛ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»(٣).

---

(١) انْظُرْ: «دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٤٢٢)، وَ«شَرْحَ السُّنَّةِ» لِلبَغَوِيِّ (ج١ ص١٥٧)، وَ«شَرْحَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» لِلنَّوَوِيِّ (ج١٦ ص٢٠٨)، وَ«شِفَاءَ العَلِيلِ» لِابنِ القَيِّمِ (ص٥٩٧ و٦٠٣ و٦٣٢)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٤٩)، وَ«الرِّسَالَةَ الوَافِيَةَ» لِلدَّانِي (ص٢٢٧)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٥٩)، وَ«الاسْتِذْكَارِ» لَهُ (ج٨ ص٣٧٨).

(٢) انْظُرْ: «تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِمُقَاتِلِ بنِ سُلَيْمَانَ (ج٣ ص٤١٣).

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ، وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٤ ص٢٠٤٧).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ؛ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ، فَأَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ، فَحَلَّلَ لَهُمْ حَرَامِي، وَحَرَّمَ لَهُمْ حَلَالِي**»(١)؛ **قَالَ مُجَاهِدٌ**: يَعْنِي: دِيْنَ الإِسْلَامِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ خِلْقَةَ اللهِ الَّتِي خَلَقَ النَّاسَ عَلَيهَا، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ)(٢). اهـ

* **فَالمُرَادُ بِالفِطْرَةِ أَيْضًا؛ فِي هَذَا الحَدِيثِ**: بِالمِيْثَاقِ الأَوَّلِ، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، قَبْلَ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَىٰ الدُّنْيَا، يَوْمَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِهِ، فَخَاطَبَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ، قَالُوا: بَلَىٰ، فَأَقَرُّوا جَمِيعًا لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُمْ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَصْلَابِ آبَائِهِمْ: مَخْلُوقِينَ، مَطْبُوعِينَ عَلَىٰ تِلْكَ المَعْرِفَةِ، وَذَلِكَ الإِقْرَارِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَمِنْهُمْ: مَنْ آمَنَ بِهِمْ، وَمِنْهُمْ: مَنْ كَفَرَ بِهِمْ!.(٣)

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٤ ص٢١٩٧).

(٢) وَكُلُّ هَذِهِ الأَقْوَالِ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَتَفْسِيرُ الفِطْرَةِ بِالإِسْلَامِ: أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ فِي «جَامِعِ البَيَانِ» (ج٢١ ص٤٠ و٤١)؛ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ، وَجَزَمَ بِهِ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (ج٨ ص٥١٢)، وَعَلَيهِ جَمْعُ العُلَمَاءِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ البَارِي» (ج٣ ص٢٤٨).

(٣) وَانْظُرْ: «شِفَاءَ العَلِيلِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٧٧٧ و٧٨٦ و٧٨٠ و٨١١)، وَ«الإِبَانَةَ الكُبْرَىٰ» لِابنِ بَطَّةَ (ج١ ص٧١٦ و٧١٧ و٧١٨)، وَ«التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٦٨)، وَ«الاسْتِذْكَارَ» لَهُ (ج٣ ص١٠١)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٣٦١)، وَ«السُّنَّةَ» لِلخَلَّالِ (ج١ ص٤٤٨ و٤٤٩)، وَ«التَّحْرِيرَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ص٦٠٤)، وَ«أَعْلَامَ الحَدِيثِ» لِلخَطَّابِيِّ (ج١ ص٧١٦)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٣٥٠).

* **فَالفِطْرَةُ**: هِيَ «**المِيْثَاقُ**» أَيْضـًا، وَهَذَا قَرِيبٌ مِنْ أَنَّ «**المِيْثَاقَ**»: كَانَ عَلَىٰ الإِسْلَامِ، لِأَنَّ الفِطْرَةَ، هِيَ الإِسْلَامُ.(١)

قُلْتُ: فَالإِقْرَارُ بِمَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ العَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَصُلْبِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأَعْرَافُ:١٧٢]؛ فَلَيْسَ أَحَدٌ؛ إِلَّا وَهُوَ مُقِرٌّ بِأَنَّ لَهُ خَالِقًا، وَمُدَبِّرًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [الزُّخْرُفُ:٨٧]؛ فَكُلُّ مَوْلُودٍ، يُوْلَدُ عَلَىٰ ذَلِكَ الإِقْرَارِ الأَوَّلِ.(٢)

---

(١) وَانْظُرْ: «تَوْفِيقَ رَبِّ البَرِيَّةِ فِي حَلِّ المَسَائِلِ القَدَرِيَّةِ» لِلغَامِدِيِّ (ص٢٧٧)، وَ«الفَتَاوَىٰ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٤ ص٢٤٥ و٢٤٨)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لَهُ (ج٨ ص٣٧١ و٣٧٧)، وَ«رِسَالَتَهُ: فِي الكَلَامِ عَلَىٰ الفِطْرَةِ» (ج١ ص٣١٧)، وَ«تَهْذِيبَ السُّنَنِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج١٢ ص٣١٦ و٣١٩)، وَ«شِفَاءَ العَلِيلِ» لَهُ (ص٢٨٣ و٣٠٢)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٩٢ و٢٩٣)، وَ«فَتْحَ القَدِيرِ» لِلشَّوْكَانِيِّ (ج٤ ص٢٢٤)، وَ«الحُجَّةَ فِي بَيَانِ المَحَجَّةِ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ج٢ ص٣٤ و٤٢)، وَ«شَرْحَ صَحِيحِ البُخَارِيِّ» لَهُ (ج٣ ص٢٨٣)، وَ«تَفْسِيرَ القُرْآنِ» لِابنِ كَثِيرٍ (ج٣ ص٣٧٠)، وَ«المِنْهَاجَ» لِلنَّوَوِيِّ (ج١٦ ص٢٠٨)، وَ«أَعْلَامَ الحَدِيثِ» لِلخَطَّابِيِّ (ج١ ص٧١٦).

(٢) وَانْظُرْ: «شِفَاءَ العَلِيلِ فِي مَسَائِلِ: القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَالحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ» لِابنِ القَيِّمِ (ج٢ ص٧٧٥ و٧٧٦)، وَ«لِسَانَ العَرَبِ» لِابنِ مَنْظُورٍ (ج٥ ص٥٦)، وَ«المِنْهَاجَ» لِلنَّوَوِيِّ (ج١٦ ص٢٠٨)، وَ«الجَامِعَ لِأَحْكَامِ القُرْآنِ» لِلقُرْطُبِيِّ (ج١٤ ص٢٤ و٣٠)، وَ«غَرِيبَ الحَدِيثِ» لِأَبِي عُبَيْدٍ (ج٢ ص٢١ و٢٢)، وَ«مَعَالِمَ السُّنَنِ» لِلخَطَّابِيِّ (ج٧ ص٨٣ و٨٨)، وَ«الحُجَّةَ فِي بَيَانِ المَحَجَّةِ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ج٢ ص٣٤ و٤٢)، وَ«التَّحْرِيرَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ» لَهُ (ص٦٠٤)، وَ«شَرْحَ العَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ» لِابنِ أَبِي العِزِّ الحَنَفِيِّ (ج١ ص٣٣ و٣٥).

قُلْتُ: فَمَنْ يُوْلَدُ، يُوْلَدُ عَلَىٰ هَذِهِ الفِطْرَةِ، ظَاهِرُ هَذَا اللَّفْظِ: تَعْمِيمَ الوَصْفِ المَذْكُورِ، فِي جَمِيعِ المَوْلُودِينَ، وَأَصْرَحُ مِنْهُ، رِوَايَةُ: (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ؛ إِلَّا يُوْلَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ**). وَرِوَايَةُ: (**مَا مِنْ مَوْلُودٍ؛ إِلَّا وَهُوَ عَلَىٰ المِلَّةِ**). وَرِوَايَةُ: (**لَيْسَ مِنْ مَوْلُودٍ؛ إِلَّا عَلَىٰ هَذِهِ الفِطْرَةِ، حَتَّىٰ يُعَبِّرَ عَنْهُ لِسَانُهُ**).

* **وَالفِطْرَةُ هَا هُنَا**: الإِسْلَامُ، وَهُوَ المَعْرُوفُ عِنْدَ عَامَّةِ السَّلَفِ، وَأَهْلِ التَّأْوِيلِ، قَدْ أَجْمَعُوا فِي تَأْوِيلِ: قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ قَالُوا: «فِطْرَتَ اللهِ»، دِيْنُ الإِسْلَامِ.

* **وَالمُرَادُ**: أَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ، يُوْلَدُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ لِفَاطِرِهِ، وَإِقْرَارِهِ لَهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَادِّعَائِهِ لَهُ بِالعُبُودِيَّةِ.[1]

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «التَّحْرِيرِ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ» (ص٦٠٤): (وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «**خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ**»[2]؛ فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ المَعْرِفَةِ الغَرِيزِيَّةِ، الَّتِي هِيَ مُرَكَّبَةٌ فِيهِمْ). اهـ

---

(١) وَانْظُرْ: «شِفَاءَ العَلِيلِ» لِابنِ القَيِّمِ (ص٥٩٧ و٥٩٨ و٦٠٣ و٦٠٤)، وَ«المُغِيثَ مِنْ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» للسَّنْجَارِيِّ (ص٣١٤)، وَ«تَأْوِيلَ مُخْتَلَفِ الحَدِيثِ» لِابنِ قُتَيْبَةَ (ص٢٦١)، وَ«غَرِيبَ الحَدِيثِ» لَهُ (ج١ ص٣٥٠ و٣٥١)، و«غَرِيبَ الحَدِيثِ» لِلْحَرْبِيِّ (ج١ ص١١١)، وَ«التَّحْرِيرَ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ» لِلأَصْبَهَانِيِّ (ص٦٠٤)، وَ«الحُجَّةَ» لَهُ (ج٢ ص٤١)، وَ«شَرْحَ صَحِيحِ البُخَارِيِّ» لَهُ أَيْضًا (ج٣ ص٢٨٣)، وَ«أَعْلَامَ الحَدِيثِ» لِلخَطَّابِيِّ (ج١ ص٧١٦)، وَ«دَرْءَ تَعَارُضِ العَقْلِ وَالنَّقْلِ» لِابنِ تَيْمِيَّةَ (ج٨ ص٣٥٩)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٥٠)، وَ«الاسْتِذْكَارِ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج٣ ص١٠١).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (٢٨٦٥) مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ رحمه الله في «الرِّسَالَةِ الوَافِيَةِ» (ص٢٢٧): (وَالفِطْرَةُ: هِيَ الإِسْلَامُ، بِدَلِيلِ؛ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الرُّوْمُ: ٣٠]؛ **وَقِيلَ**: الفِطْرَةُ: العَهْدُ، وَالمِيْثَاقُ الَّذِي أُخِذَ عَلَيْهِمْ حِيْنَ: فُطِرُوا). اهـ

وَقَالَ الإِمَامُ أَبُو القَاسِمِ الأَصْبَهَانِيُّ رحمه الله في «التَّحْرِيرِ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ» (ص٦٠٥): (قَوْلُهُ ﷺ: «**مِنْ جَدْعَاءَ**»؛ أَيْ: مَقْطُوعَةَ الأَنْفِ، **يَقُولُ**: إِنَّ البَهِيمَةَ أَوَّلُ مَا تُوْلَدُ تَكُونُ سَلِيمَةً مِنَ الجَدْعِ، وَالخَرْمِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ العُيُوبِ.

* حَتَّىٰ يُحْدِثَ فِيهَا أَرْبَابُهَا هَذِهِ النَّقَائِصَ، **كَذَلِكَ**: الطِّفْلُ يُوْلَدُ مَجْبُولاً عَلَىٰ خِلْقَةٍ لَوْ تُرِكَ عَلَيهَا لَسَلِمَ مِنَ الآفَاتِ، إِلَّا أَنَّ وَالِدَيْهِ يُزَيِّنَانِ لَهُ الكُفْرَ، وَيَحْمِلَانِهِ عَلَيهِ، وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يُوْجِبُ حُكْمَ الإِيْمَانِ لَهُ[1]، إِنَّمَا هُوَ ثَنَاءٌ عَلَىٰ هَذَا الدِّيْنِ، وَإِخْبَارٌ عَنْ حُسْنِ مَوْقِعِهِ مِنَ النُّفُوسِ). اهـ

* وَإِنَّمَا يُوْلَدُ المَوْلُودُ عَلَىٰ السَّلَامَةِ فِي خَلْقِهِ، لَيْسَ مَعَهُ إِيْمَانٌ؛ إِلَّا فِي الجُمْلَةِ، وَلَا كُفْرٌ، وَلَا إِنْكَارٌ، وَلَا مَعْرِفَةٌ، ثُمَّ يَعْتَقِدُ: الإِيْمَانَ، أَوِ الكُفْرَ، بَعْدَ البُلُوغِ، إِذَا مَيَّزَ.

* **وَقَوْلُهُ** ﷺ: كَمَا تُنْتَجُ[2] البَهِيمَةُ، بَهِيمَةً: جَمْعَاءَ[3]؛ يَعْنِي: سَالِمَةً، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؛ يَعْنِي: مَقْطُوعَةَ الأُذُنِ.

---

(١) لَكِنْ يُحْكَمُ بِإِسْلَامِهِ، لِأَنَّهُ خُلِقَ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، وَالفِطْرَةُ: هِيَ الإِسْلَامُ.

(٢) **يَعْنِي**: وَضَعَتْ حَمْلَهَا.

(٣) **الجَدْعَاءُ**: البَهِيمَةُ الَّتِي قُطِعَتْ أُذُنُهَا؛ مِنْ جَدَعَ: إِذَا قَطَعَ الأُذُنَ وَالأَنْفَ.

=

* **فَمَثَّلَ** ﷺ: قُلُوبَ بَنِي آدَمَ بِالبَهَائِمِ، لِأَنَّهَا تُوْلَدُ كَامِلَةَ الخَلْقِ، لَيْسَ فِيهَا نُقْصَانٌ، وَلَا آفَةٌ، ثُمَّ تُقْطَعُ آذَانُهَا: بَعْدُ، وَأُنُوفُهَا، فَيُقَالُ: هَذِهِ بَحَائِرٌ، وَهَذِهِ سَوَائِبُ.

* **فَكَذَلِكَ قُلُوبُ الأَطْفَالِ فِي حِيْنِ**: وِلَادَتِهِمْ: سَالِمَةً لَيْسَ لَهُمْ: كُفْرٌ حِيْنَئِذٍ، وَلَا إِيْمَانٌ، وَلَا مَعْرِفَةٌ، وَلَا إِنْكَارٌ، كَالبَهَائِمِ السَّالِمَةِ.

* فَلَمَّا بَلَغُوا اسْتَهْوَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَكَفَرَ أَكْثَرُهُمْ، وَعَصَمَ اللهُ تَعَالَىٰ أَقَلَّهُمْ.

* وَيَسْتَحِيلُ فِي المَعْقُولِ، أَنْ يَكُونَ الطِّفْلُ فِي حِيْنِ وِلَادَتِهِ، يَعْقِلُ: كُفْراً، أَوْ إِيْمَانًا، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ: أَخْرَجَهُمْ فِي حَالٍ لَا يَفْقَهُونَ مَعَهَا شَيْئًا.(١)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [الأَنْبِيَاءُ: ٧٨]، فَمَنْ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، اسْتَحَالَ مِنْهُ: كُفْرٌ، أَوْ إِيْمَانٌ، أَوْ مَعْرِفَةٌ، أَوْ إِنْكَارٌ؛ عَلَىٰ التَّفْصِيلِ.(٢)

* فَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ ذَكَرَ مِنْ أَحْوَالِ: تَبْدِيلِ الفِطْرَةِ، مِنْ مِلَلِ الكُفْرِ، مِنَ اليَهُودِيَّةِ، وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَالمَجُوسِيَّةِ، وَغَيْرِهِمْ.

=

يَعْنِي: حَتَّىٰ تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا؛ أَيْ: تَقْطَعُونَ، آذَانَهَا، أَوْ أَنْفَهَا، أَوْ شَيْئًا مِنْهَا.

وَانْظُرْ: «فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٣٥٠)، وَ«عُمْدَةَ القَارِي» لِلعَيْنِيِّ (ج٧ ص٩٥).

(١) لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَخْرَجَهُمْ، مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، لَكِنَّهُمْ خُلِقُوا عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلَامِ.

(٢) وَانْظُرْ: «التَّمْهِيدَ» لِابنِ عَبْدِ البَرِّ (ج١٨ ص٦٩ و٧٠)، وَ«الاسْتِذْكَارِ» لَهُ (ج٨ ص٣٧٨ و٣٧٩)، وَ«فَتْحَ البَارِي» لِابنِ حَجَرٍ (ج٣ ص٢٥٠)، وَ«عُمْدَةَ القَارِي» لِلعَيْنِيِّ (ج٧ ص٩٥)، وَ«شِفَاءَ العَلِيلِ» لِابنِ القَيِّمِ (ص٦٢٠)، وَ«شَرْحَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» لِلنَّوَوِيِّ (ج٥ ص٥١٣).

* وَلَمْ يَذْكُرْ ﷺ مِلَّةَ الإِسْلَامِ، لِأَنَّ المَوْلُودَ، قَدْ فُطِرَ عَلَيْهَا، وَهُمْ: يُحَوِّلُونَهُ عَنْهَا، بِمَا شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَسَبَقَ ذَلِكَ فِي عِلْمِهِ.

هَذَا آخرُ مَا وفَّقني اللهُ سُبْحَانه وتَعَالىٰ إليْهِ فِي تَصْنِيفِ هَذَا الكِتَابِ النَّافعِ المُبارك -إنْ شَاءَ اللهُ- سَائِلاً ربِّي جَلَّ وعَلا أنْ يكتُبَ لِي بهِ أَجْراً، ويَحُطَّ عَنّي فيهِ وِزْراً، وأنْ يَجْعلَهُ لِي عِنْدَهُ يَوْمَ القِيَامةِ ذُخْراً ... وصَلّىٰ اللهُ وسَلّمَ وبَارِكَ عَلَىٰ نَبيِّنَا مُحَمّدٍ، وعَلَىٰ آلِهِ، وصَحْبِهِ أَجْمعِينَ، وآخِرُ دَعْوَانا أنِ الحُمْدُ الله ربِّ العَالمِين.

فِهْرِسُ المَوْضُوعَاتِ

الرَّقْمُ	المَوْضُوعُ	الصَّفْحَةُ
١)	دُرَّةٌ نَادِرَةٌ للعَلاَّمَةِ الشَّيْخِ حَافِظٍ الحَكَمِيِّ فِي إِثْبَاتِ: «المِيثَاقِ الأَوَّلِ» عَلَىٰ أَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَىٰ الخَلْقِ.....	٥
٢)	المُقَدِّمَةُ.....	١٤
٣)	ذِكْرُ الدَّلِيلِ عَلَىٰ أَنَّ أَوَّلَ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، الَّتِي يَحُجُّهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَالآخِرَةِ، هِيَ: حُجَّةُ المِيْثَاقِ عَلَىٰ الإِجْمَالِ، الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيهِمْ، وَهُمْ: فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَقَدْ فَطَرَ اللهُ تَعَالَىٰ العِبَادَ عَلَىٰ هَذَا المِيْثَاقِ، وَعَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ، وَالفِطْرَةُ: حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبَادِهِ، حَيْثُ مَا مِنْ مَوْلُودٍ، إِلاَّ يُوْلَدُ عَلَىٰ فِطْرَةِ الإِسْلاَمِ، وَالإِيْمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ رَبُّكُمْ سُبْحَانَهُ، وَقَطَعَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَذَا المِيْثَاقِ أَعْذَارَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنَ الغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا عَنْ هَذَا المِيْثَاقِ، وَمِنْ أَنْ لاَ يَفُونَ بِهِ، أَوْ أَنْ يَعْتَذِرُوا يَوْمَ القِيَامَةِ؛ بِتَقْلِيدِ الآبَاءِ وَغَيْرِهِمْ عَلَىٰ الشِّرْكِ، وَالضَّلاَلِ، وَأَنْ يَكُونُوا غَافِلِينَ عَنِ الإِسْلاَمِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَقَدْ أَكَّدَ اللهُ تَعَالَىٰ، وَذَكَّرَ العِبَادَ رَحْمَةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ، بِهَذَا المِيْثَاقِ؛ وَالفِطْرَةِ، بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ الكَرِيمَ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، بِبُلُوغِهِ؛ تَأْكِيداً، وَتَذْكِيراً: لَهُمْ	٥٨

عَنْ غَفْلَتِهِمْ عَنِ الدِّيْنِ الصَّحِيحِ، فَهُوَ دَاعٍ، وَنَذِيرٌ، أَيْضًا لِلْعِبَادِ عَلَىٰ الإِجْمَالِ، وَعَلَىٰ التَّفْصِيلِ، وَهُوَ البُرْهَانُ المُؤَكَّدُ، الَّذِي يَنْدَفِعُ بِهِ الجَهْلُ أَيْضًا، وَتُحْسَمُ بِهِ الأَعْذَارُ، فَمَنْ بَلَغَهُ القُرْآنُ، فَقَدْ بَلَغَتْهُ الحُجَّةُ الَّتِي تُبْطِلُ الأَعْذَارَ، وَتُوْجِبُ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهَا، وَمُعَانِدِهَا عَذَابَ النَّارِ، وَكَذَا وُصُولُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَالسَّمَاعِ بِالرِّسَالَةِ، وَبِدَعْوَتِهِ، فَمَنْ بَلَغَتْهُ، فَقَدْ بَلَغَتْهُ نِذَارَةُ الرَّسُولِ، الَّتِي تُبْطِلُ الأَعْذَارَ، وَكَأَنَّمَا رَأَىٰ الرَّسُولَ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَمْرُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالإِسْلاَمُ، أَخَذَهُ، أَوْ تَرَكَهُ، وَبِالتَّالِي، فَقَدْ أُقِيْمَتْ عَلَىٰ العِبَادِ حُجَجُ اللهِ تَعَالَىٰ الَّتِي يَسْتَحِقُّونَ نَارَ جَهَنَّمَ إِذَا خَالَفُوهَا، وَوَقَعُوا فِي الشِّرْكِ، أَوِ الكُفْرِ، أَوْ التَّقْلِيدِ.....